جروح غوتنبرغ الرقيقة

(حين استعارَ العاشق حصان الملك غوستاف في غوتنبرغ)

الروائيون يحكون عن ذلك الجزء من الحقيقة القابع في أعماق كل كذبة

إيتالو كالفينو

عن كتاب: فيزياء الرواية. ترجمة لطفية الدليمي

الفصل الأول

مُهاترات تحت مِظلّة

«هنا يقفُ غوستاف أدولف الثاني مؤسس يوتبوري»، قالت «ساندرا» بكلماتٍ واضحة مخارج حروفها السويدية. تنبجسُ كلماتها عن شفتين شبه مدوَّرتين متغضنتين شهوةً، وبقامتها الرشيقة. شَعْرُها على شُقرةٍ، يلتمعُ في ارتجاف ضباب يُغطي الساحة.

لا تفاصيل أنثوية مُغْرية لِسانْدرا، المعلمة الشقراء، على مظهر لباسها الخارجي، كما عند نساء الشرق اللائي يبرقْنَ في كل مناسبة، ومكان. لا مساحيقَ تزاحمُ مساحيق، لا أظافرَ مصقولة، لا تبرُّجَ، لا حُليٍّ ذهبٍ، لا أكْسِسْوارات. خاتمٌ فضةٌ صغير، فقط، في بُنْصُر يدها اليسرى. بنطال ساندرا من الجينز، وكنزة صوفٍ فضفاضة. شالٌ من صوفٍ ثخين على الرقبة. شعرٌ قصير متروك على هواه.

«تأملوا التمثالَ جيِّداً»، أكملت ساندرا جُملتَها، وهي تشير بيدها اليمنى إلى الملك غوستاف، الرجلِ البرونز، منتصباً على قاعدةٍ حجرٍ من روحِ الصوَّان. حمامة بيضاءُ، مندهشة، لمْ تُعِرْنا اهتماماً، تقف على رأسه. طفنا، صحبة ساندرا، في جولةٍ استعراضٍ حول الساحة، ومعالمها.

«درسْنا الأسبوع القادم، عن هذا الرجل، الملك الذي بنى يوتبوري»، قالت سانْدرا. «إلى اللقاء في المدرسة»، أضافت وهي تودعنا بابتسامةٍ أذابت شيئاً من نُدَفِ الثلج المتساقطة.

«الفيمَّان»، المجمَّعُ التجاري الضخم، لا يبْعُد عن تمثال الملك غوستاف إلا خطوات قليلات. سحبتْني قدمايَ قفزاً على خط السكة الحديد الذي تُسيَّرُ عليه حافلاتُ الترام تنقلني إلى الجهة المقابلة للتمثال، حيثُ أحد أبواب المجمع الضخمة مدخلاً إلى عالمه التجاري. ولجتُ إلى الفيمَّان، تاركاً، خلفي، إيقاع الضجيجِ خارج المبنى.

فتحتُ حقيبتي الجلد المتدلية على كتفي. أخرجتُ السمورغوس. التهمتُها ببطءٍ فيما أنا أتنقَّلُ بين صفوف الدكاكين التي لا تتشابه

خصائصها الاستهلاكية: ملابسُ، أجهزة الكترونية، مكتبات، محال ساعات وأكسسوارات، مَحال لبيع الزهور بأصنافها، محال لبيع الصحون والكؤوس إلى جانب شموعٍ صغيرة مُدوَّرة صُبَّت في دوائر صغيرة من معْدنٍ فضيٍّ خفيف. شموعٌ توضعُ في قعرِ قاعدة صغيرة من حجرِ الرخام ترتفعُ عليها قاعدة اسطوانية مُشبَّكة، من حديد رفيع، يُجلَّسُ عليه إبريق الشاي أو القهوة فيظلان ساخنين طالما الشمعة موقَدَة. اختراعُ أراه لأول مرة.

عظامي تقرِصُني. تشنُّجٌ وارتجافٌ خفيفان بسبب البرد الذي لسعني حين التجوال صحبة زملاء الدراسة، والمعلمة ساندرا الطيبة، العسلية العينين. ذابت، بسرعةٍ، تلك النُدفُ الثلجُ فامتصتها عظامي من تحت سترتي الجلدية السوداء، وبنطالي القطني الأزرق. لم يُسعفني حذائي الجلد في الاحتفاظ بحرارةِ جسدي. تسللت البرودة من أخْمصيْ قدمَي حتى رأسي. لم أجد من يحملُ مظلة احتماءً من الثلج، إلاَّ إذا أمْطرَت. وأنا لا أمتلكُ مظلة تقيني الثلج، ولا أعرف اسمها بالسويدية. لكني وجدتها في أحد محال بيع الألعاب أثناء تجوالي بين الدكاكين. التقطتها من صندوقٍ معدني كبير أسْقِطت فيه مظلات بأحجام وألوانٍ متنوعة، وهممتُ بدفع ثمنها. لم احتَجْ للفظ اسمها. دلالتها تكفي وأنا أضعها أمام البائعة. فتحتها لتتأكد من صلاحيتها:

«لدينا مظلات لشخصين أيضاً، إن رغبت»، قالت البائعة وهي تلفظ اسم المظلة بالسويدية: «paraply».

«لا بأس، قلت للبائعة بابتسامةٍ متوردة دوَّرت خدَّيَّ . مظلة عزباء أفضل لي، على الأقل لحد الآن، أضفتُ.

ابتسمت البائعة ابتسامة غطتها غرابتها بجوابٍ نطقتهُ عيناها من جملتي: «مظلة عزباء».

فتحت المظلة بمجرد خروجي إلى الشارع. استعدتُ بعض ارتباكي الذي خلخل البردُ جسدي مُبلالاً. توقفتُ على الرصيف الذي يواجه ساحة الملك غوستاف ناظراً جهة اليمين تارةً، وأخرى جهة اليسار كي أحدِّد مسار اتجاهي. لا حيلَ لي في العودة إلى شقتي. بي فضولٌ أن استكشفَ معالم المدينة بعيداً عن مركزها. أن أسيرَ باتجاه شوارعَ لم تطأْها قدماي لحد اللحظة. عند تلك البُرهة الصامتة من تفكيري عن أفضلية مَساري اكتشافاً لشوارع ومحلات وأزقة وبنايات ونُصُبٍ ومعالِمَ أخرى منتشرة في قلبِ المدينة.

ارتجفَ، بَغْتةً، الإنبوبُ المعدني الرفيع الذي تستند عليه قُماشة المظلة السوداء المدعَّمَة بأنابيب رفيعة مُقوَّسة تُسْنِدُ جهات المظلة دائرياً.

بلا تمهيدٍ بالمُطْلَق، وإذا بامرأةٍ، ربما في الثلاثين من عُمْرها، بيضاء، رشيقة، أطولُ منِّي بشبْريْنِ تقريباً تلتصِقُ بي، تُشاركُني المظلة ماسِكةً بها بيدها اليسرى. شعرها الحنْطي المائلُ إلى لونٍ خَمْريٍّ بُلِّل بماء الثلج يقطُرُ على كتفيها. ابتسمتُ لها ابتسامة بلْهاء من شدَّة المفاجئة.

بارتخاءٍ غَنِجٍ منها سكبت بضعَ كلماتٍ في أذُني؛ كلماتٍ عُجِنَت بطعْمِ كحولٍ، فاحت ضباباً شممْتهُ ثقيلاً.

- أتسمح لي ان أشاركك مظلتك ريثما أصل «Saluhallen»؟ قالت وهي تمسحُ بيديها نزولاً وصعوداً كامل جسدها المُبلَّل، بلا رحْمة، من الرأس حتى حذائها الجلْدي.

ارتبكتُ، فعلاً. لم أعرف، حينها، المكان الذي تنوي الذهابَ إليه هذه المرأة الغريبة التي فاجأني وجودها الغريب من إنسانٍ غريبٍ على المدينة.

بضع كلماتٍ من رجائها صاحبةُ توسُّلٌ طري من عينيها الذابلتين أكْملتْهُ إيضاحاً بإشاراتٍ من اهتزازِ جسدها برْداً.

قرَّبتُ المظلة إلى جسدها أكثر فارتطم رأسي بساعدها الأيسر، بسبب فارقِ الطول بين جسدي وجسدها. احتكَّ رسغُ يدها اليسرى بكَتفي اليسرى.

دبيبُ ذبذبةٍ أُنْثوية خفيفة لسعتْني، سَرَت رشيقة إلى داخل جسدي. ابتسمتْ الغريبة ابتسامة رضى وشُكرٍ على موافقتي التي جاءت هزاًّ خفيفاً من رأسي.

تناولت المظلة من يدي ورفعتها تقي بها رأسَيْنا من تساقط الثلج المزعج.

سرنا خطواتٍ سريعةً، مرتبكة، بفعل اهتزاز المظلة وارتطامها برأسينا تارةً، وبكتفينا تارة أخرى.

توقفت المرأة السكِّيْرة، بعد ما يُقارب العشرين متراً من سيرِنا، بالقُرب محلٍ لبيع الملابس. نظرتْ إليَّ بعفوية الشخص الذي يرتجي شيئاً. قالت:

«امسك المظلة وانتظرني لثوانٍ».

ولجت السكيرةُ الرشيقة المرتجفة من فعل الكحول والثلج الكافر المتساقط جنوناً، محلاً لبيع الملابس، ثم عادت وبيدها مجموعة من جرائد ومجلات الدعاية الملونة التي تخص مختلف أنواع الملابس التي يبيعها المحل. سألْتها:

«ماهذا، وماحاجتك إلى هذه الكمية من الجرائد والمجلات؟»، ردت على سؤالي بقهقهةٍ ملوكية جريئة وبريئة:

«سنضرط عليها». ضحكتُ من جوابها السريع والغريب. أضافت: «إن ليسَ لديك رغبة بالضراط فدعني استمتع بهذه الفِعْلة لوحدي».

أمسكتْ السكيرة بالمظلة، من جديد، ضاغطة بيدها على يدي فأحسستُ بقشعريرةٍ تسري في يدي من يدٍ انثوية ترتجفُ كحولاً.

عند نُصبٍ برونزي مرتفع بحدود ثلاثة أمتار توقفنا، مثلما توقف الثلجُ فجاءةً. أغْلقتُ المظلة رافعاً رأسي إلى الأعلى باتجاه جسدِ الرجلِ النُصب. تركت السكيرةُ يدي، دافعة، بخفةٍ وغنجٍ، المظلة عنها باتجاهي. جلست فارشةً كمية من صحف الدعاية الملونة على المسطبة الرخام الرمادية.

التمثال البرونزي الذي يرتفعُ عليه نُصبٌ لرجلٍ يمتطي حصاناً مُبالغاً في ضخامته وعنفوان نظرته الشزرة. من نظرتي الأولى إليه تكونت لدي فكرة عن هيبة ورمزية نُصب الشخص الضخم الجسد بملابسه العسكرية.

«مَن هذا؟»، سألتُ المرأة المشبَّعة كحولاً.

- هذا كارل غوستاف التاسع حين كان ملكاً على السويد قبل أكثر من أربعمائة عاماً.

تسمَّرتُ واقفاً تحت مظلتي لوحدي. تطلعْتُ إليها مستغرباً اندفاعها تجاهي بلا معرفة مُسبقة. ربما هي اندفاعة الكحول الذي منحها الجرأة كي تُرافقني. نظرتْ إليَّ بحنوٍّ نزلَ زائِغاً من عينيها المحمرَّتين بفعْلِ السُكْر ربما. كان النهار في منتصفَه.

فرشت السكيرة، جَنبها، ما تبقى من جرائد ومجلات الدعاية. نادتي أن أجلس. أغلقتُ المظلة، وجلستُ لصقَها باحتكاك خفيف مرتعشٍ بين رسْغينا.

«أعرفتَ لِمَ نحن بحاجة إلى هذه الجرائد الملونة؟ هذه جرائد ومجلات دعاية لملابس لا أستطيع شراءها لغلاء ثمنها. وأنا لدي حِكْمة في حياتي: الشيء الذي لا تستطيع أن تحصل عليه اضرط عليه»، فسَّرت السكيرة حكْمتها بتهكُّمٍ واثقةً من كلامها:

«الكحولُ أبدى من الملابس. ثم إني أفضلُ شراء الملابس المستعملة»، أضافت السكيرة إضافة جديدة تبريراً مقنعاً لها عن عدم شراء ملابس جديدة.

«معادلة في مكانها»، أجبتُ المرأة السكيرة الغريبة الكلام كثيرهُ. أخجلَني تبريرها المجازي: «إن لم تستطع شراءَ شيْ فاضرط عليه».

غيَّرتُ دفَّة الحديث عن حكمة الضراط. أشرتُ بأصْبعي عالياً، من خلف ظهري، إلى صاحبِ التمثال الذي يعتلي فرساً ضخماً، على قاعدة النُصب الرخامية التي نجلس عليها مستفسراً، من جديد، عن مكانة هذا الفارس، رُغم إني توقعت، مسبَّقا، أن لهذا الرجل شأناً كبيراً حيث حُفِر على القاعدة البرونز التي يقف عليها اسمه ونُبذةٌ عن سيرةِ مقامه.

استدارت برأسها استدارةً واضحة مُقرِّبةٌ وجهها إليّ. قالت، بكلمات مُثقلةٍ زهْواً:

«هذا الملك الشاهق فوقنا، كارل غوستاف التاسع، مؤسس هذه المدينة، مدينتي التي أعشقُها: يوتبوري، أة غةتبرغ العظيمة، التي يُطلق عليها «لندن الصُغرى» كناية عن لندن الكُبرى عاصمة إمبراطورية جلالة الملكة إليزابيث الثانية، وأنا «أَلِيْسيا» الخالدة، أليسيا أنا»، دقَّت بأصابعها على صدرها تأكيداً موسِّعةً من فتحات جفونها، صاعدةً، بعونٍ من سلالم الكحول، مدارجَ الفخر بشخصها: «أنا ملكةٌ مُتوَّجة على أطيب، وأنقى ما صنعته البشرية: «النبيذ». أنا اسمي أليسيا»،

نطقت اسمها مصحوباً بشهيقٍ انزلقَ ضباباً متقطعاً في جوفها الذي أحسستُه يرتجفُ كَكَوثلِ زورقٍ. نطقتُهُ نطْقاً متهدِّلاً عن لسانٍ ورديٍّ باهتٍ.

لامَسَ وجهها وجهي مُلامسة بريئَّة بفِعْلٍ من الصدْفة. عدَّلتْ، قليلاً، بلوزتها الصوف الكحليَّة المتهدلة على كتفيها بعد أن نزعت سترتها الجلدية السوداء الخفيفة، ورمتها رمية استقرت، انتصافاً، بين حضني وحضْنَها.

«هذا الملكُ، ملكٌ ديمقراطي، يسمحُ لنا أن نضرُطَ على قاعدته الرخامية الملساء»، قالت أليسيا جملتها الأخيرة مصحوبة بضحكةٍ مفرطة. أضافت: «أتعْرف، أيها الغريب، جُلَّ حِكَم هذا الملك العظيم؟» سألتْني باستخفافٍ مُبطَّنٍ بحُمرةٍ من دفَقِ دَمِها على وجنتيها من نعمة الكحول، وهي تُشيرُ بيدها اليسرى إلى أعلى النُصب، حيث وقفت فجاءةً مقربةً رأسها من قاعدة النُصب: «سأقرأ لك، أيها الغريب، بعض ما نُقِشَ من حِكَمِ الملك كارل، هنا على حجر البرونز. حجرٌ حُفرَ عليه اسم الملك وحِكَمِهِ بإزاميل أجدادنا الفايكنغ. كارل، هذا، هو ابن عشيقي «غوستاف»، الذي قال: «الله هو راحتي»، «الربُ هو ما أُتيتُ من قوة».

عادت أليسيا إلى حيث تجلسُ لصْقي لكنها زادت من التصاقُ جسدها بجسدي. فتحت حقيبتها الجلد السوداء، أخرجت زجاجة فودكا. قرَّبت الزجاجة إليَّ: «خُذ رشْفة من هذه الفودكا البولونية» قالت. اعتذرتُ لها. وضعت فتحة الزجاجة على فمها. سحبت جرعة ماكِنة من كحولها. أغلقتها وأعادتها إلى حقيبتها.

«أنا أحتسي فودكا بولونية، أنكحُها نكايةً بمحاولة البولون احتلال يوتبوري أيام هذا البطل كارل»، أشارت بيدها إلى حيث نُصب الملك. ابتسمتُ لها ابتسامة مُجاملةٍ.

قلت للسكيرة التي استلْطفَتْ، كما يبدو، صُحبتي المفاجئة لها: «يبدو أن الطقس أصبح أكثر رحمة».

«لا تنتظر من طقس السويد رحمة، أيها الغريب. أنا أعرفُ لعنة الشتاء، لذا أعاندُهُ بهذا السُم الذي في حقيبتي. أتدفأ بالكحول نكاية بالثلج القوَّاد».

صمتت أليسيا صمتاً وزَّعتهُ على حركة المارين ذهاباً وإياباً عبر نُصب الملك الصامد على حصانه الضخم. استدارت إليَّ، فجاءة. قالت:

«وأنت، ماذا عنك؟». قذفت سؤالها رفقَةَ تدويرةٍ من يدها اليمنى فابتسامةٍ ساحرة، ناطقة عن بؤبؤين مغْناجَيْنِ فسَّرْتُه أنها ترغب بمعرفة اسمي، ومن أكون.

- أنا «هِرْمِيس». اسمي هرميس قلت لها.

«آه، هِرْميتْس!». لفظتْ هيلين اسمي مُضيفة إليه حرف التاء بتسكينٍ مُركَّزٍ.

«أنتَ يونانيٌّ، إذاً»، أضافت.

ضحكتُ من تحديدها السريع، الخاطئ، عن أصل بلدي، في إشارةٍ إلى مواطَنَتي من خلال اسمي فقط. قطع استرسالها السريع، المفاجئ، رغبتي أن أُصحِّح استنتاجها الذي أفرحني قليلاً بخصوص أصل جنسيتي.

وافقتُها، في سري، عن أصلي اليوناني الذي لفَّقته لي هذه السكيرة ببراءة، وعن قناعةٍ منها دون أن تحاول التأكد عن أصل منْبتي. قلتُ في سرِّي: قد تُصْدم، ربما، إن أخبرتها عن أصل منْبَتي.

«أنا لا أُحبُّ اليونان»، قالتْ. «لكني أعبُد إلهاً واحداً في هذا الكون الذي هو منكم، يا هرميتس»، أضافت أليسيا.

- من تقصدين، يا أليسيا، فآلهتنا كُثُرٌ ولكل منهم مهمته؟

نظرت إليَّ نظرة استغراب سوَّرتْها همهمات أسمعتني عبرها رجرجات تعلو وتهبط من مراتب أنفاسها المشروخة حزناً وأسىً. ألقت نظرة بعيدة إلى الجهة اليمين. أشارت إلى مطعمٍ من طبقتين يبعُد عنا حيث نجلس تحت نُصب كارل التاسع.

«أزُرتَ ذلك المطعم . البار؟»، أشارت بيدها تُدلِّني على مقصدها. أشعرتني أن هذا البار يهمها دون البارات الكثيرة المنتشرة في هذا الشارع الطويل الذي يبدأ من حيث يقف نُصب الملك غوستاف أدولف وحتى أخر الشارع الطويل المسمى (Avenyn) والذي ينتهي بالنُصب العاري لملك البحر «بوسايدون».

نظرتُ أستجلي، ببعض الدقة، إلى جهة البار الذي تقصده. نقرتْ نقرتين خفيفتين على كتفي اليسرى. استدرتُ إليها. قالت:

«هذه الحانة هي حانةُ دِبْلِن الوحيدة في يوتبوري. حانتي المفضلة فيها يشتَمُّ المرء رائحة يوليسيس، وتهجع أرواح أبطال جويس. هل دخلْتهُ يوماً؟.

لم أُجبْها. نقَّلتُ نظراتي حول المكان، كأني ضيَّعتُ مقصدها.

صمتت أليسيا. أشعرتُها أنها بدأت تُصعِّدُ من هذيانها الذي أخذ يتقافزُ، بلا تركيز.

- لكن، لم تُخبريني، يا أليسيا، من هو إلهكِ المفضل من بين آلهة الآغريق الأساطير؟

نظرت أليسيا إلى وجهي بتمعُّنٍ أغرقني خجلاً، حسبتُهُ عتاباً أنثوياً كأني تقصَّدتُ نقل مسار حديثها عن حانة «دبلن» إلى سكة أخرى من سكك تخيُّلاتِها التي تنثرها من بئر ثمالتها.

مدت أليسيا يدها إلى حاجبي الأيسر. مسَّدتْهُ بأصابعها الرشيقة كأقلام الرصاص:

«لأول مرة أُصادفُ رجُلاً ذا حاجبين بهذه الكثافة». فاجأتني أليسيا بهذه الاستدارة النقْلة في حديثها. أضافت: «فحولتُك، يا هرميتس، تكمنُ في حاجبيك الشبقين. ماذا تُسقيهُما بحقِّ الإله «ديونيسيوس؟»».

استأنسْتُ لتغزُّلِ أليسيا بحاجبَي. ضحكتُ لها وهي تتأمَّلني بعمق:

- ها الآن عرفتُ، يا أليسيا من هو نبيُّك الذي تعبدينه. إنه إله الخمرة «ديونيسيوس»، إذاً؟

- هو إلهي المفضل، إله البهجة والنشوة الذي ولِدَ، بعد صراعٍ مرير، مُتنقِّلاً بين رحم أمه وفخذ أبيه، يا هرميتس.

فاجأتْني. أحْبَطَتْني أليسيا، في بدء حديثها عن اليونان، بعد فرحةٍ استأنستُ لها. هي لا تُحبُّ بلَدي الذي افترضتْه لي من دون تأكيد مني. ثم ماذا؟ فلتكْرَه أليسيا اليونان. ما شأني أنا واليونان؟ سألْتُها كي تُوضِّح لي سبب كرهها لبلدٍ يسوحُ إلى جزره معظم السويديين سنوياً.

- لكنك، يا أليسيا، قلتِ، إنكِ تكرهين اليونان رغم حبكِ لأهم آلهتها سيد مسارح الإغريق «ديونيسيوس»؟

«لي ذكريات حزينة في اليونان» قالت أليسيا. صمتتْ صمتاً معجوناً بحزنٍ كئيب. مسَحتْ دموعاً بزغت، فجاءةً، من عينيها بكُمِّ بلوزتها الصوف المجعَّدة. دمع اختلطَ ببقايا ماءٍ نُقِّطَ على خدَّيْها من شعرها السَّبلِ الذي يُغطِّي جبينها العريض.

«أنا مشطورةٌ نصفين، كما انشطار اليونان، إلى جزيرتين. أنا جزيرةُ نصفها»، شَهَقت، هيييييع، أكْملت: «أنا جزيرةٌ نصفها ضائعٌ في مملكة الثلج هذه، ونصفي الآخر غرِقَ في بحر الإغْريق».

دُهِشتُ لهذا التوصيف التراجيدي لإمرأةٍ سكِّيرة، ضائعة، مرتجفة العضل بفعلِ قسوتين: البرد والكحول. لا يتكلم، ربما، بلغةٍ كهذه إلاّ من يهتم ببلاغة الشِّعْر.

«أأنْتِ شاعرة، يا أليسيا؟»، سألْتُها بفرحٍ غامض، بعض الشيء، وغامر في بعضه الآخر.

ابتسمتْ أليسيا. عدَّلت من جلْستها. جلَّستْ فخذها اليسرى على فخذها اليمنى. ألْصَقت ظهرها على النصف السفلي العريض لقاعدة تمثال كارل التاسع. ابتعدت قليلاً، بقي الجزء الأيمن الممتلئ من عجيزتها ملتصقاً بفخذي اليسرى. أخرجت، ثانيةً، قنينة الفودكا، فتحت الغطاء. كرعَت جرعة صغيرة. أغلقتها دون أن تكرر مشاركتي لها جرعة من كحولها. أخْرجتْ كيساً بلاستيكياً صغيراً يحتوي قطعاً صغيرة مقطعة من الليمون الأصفر بقشرهِ. تناولت قطعة منه. قضمتها ورمت القشرة الصغيرة الصفراء على الآرض الحجر للشارع أمام النُّصب. مدَّت، من جديد زُجاجة الكحول إليَّ، صامتةً. رقَّصتُ الحاجبين امتناعاً وتشكُّراً:

«أنا بعكْسكِ، يا أليسيا. أنا كحولي لَيْلِي»، قلتُ لها. أضفتُ: «أنا أعشقُ تخدير جمجمتي ليلاً ببعض كؤوسٍ من الكحول، بلا تصنيفٍ في النوع، أُحبُّ الغَطْسَ في لجَّة الكحول في المنعطف الأول بين الصحو ودغدغة السَكْرة متمنياً أن لا أغْرَقَ في المنعطف الثاني ثمالةً. أحلامي تُغْطِسُني في بحر الحسرة نوماً عسى الكحول يطرد كوابيس قديمة ما زالت تؤرِّقُني».

أخرجتُ علبة سكائري. ناولتُها واحدة. دفعت يدي بهدوءٍ مُعيدةً السيگارة إليَّ:

«يكفيني مَقْتَلةً واحدة، يا هِرْميشْس اليوناني»، قالت وهي تُشيرُ إلى حقيبتها التي تغطس فيها زُجاجة الفودكا. «تكفيني رحْمةً واحدة. لستُ طمَّاعة. تكفيني فضيحة واحدة، هاوية واحدة انزلقُ، ببطءٍ، إلى صمْتِ ندائها الذي يُمزِّقُني. يكفيني حنوٌّ واحدٌ أتشبَّثُ به محْرورةً من حزني الأبدي. يكفيني تمايلٌ واحدٌ يأخذني حُبُّه حسب مزاجي إلى حيثُ هو يشاء».

قاطعتُ كلام أليسيا بهمسٍ خفيف، بعد أن استعادت جلستها مُكملةً احتكاك جسدها بجسدي، علَّني أُسْكِتُ طيشَ لغْوها الذي يُثرثرُ كشلالٍ فقد بوصلة اتجاهه:

- مَن هو الذي يأخذكِ إلى حيثُ يشاء، يا أليسيا؟

نظرت إليَّ نظرة استذكاءٍ من سؤالي الباهت المُهشَّم المعنى:

«يكفيني»، أعادت اكتفاءها بتأكيدٍ بلغَ مسامعِ الملك كارل غوستاف الواقف فوقنا «أني أوقفتُ التدخين منذ سقط عشيقي مغدوراً بكحولكم الحليبي، «الأوزو». صمتت أليسيا قليلاً. أكملت كلامها هذياناً مشروخاً مُفتَّق الأنفاس:

«لذَّتان، معي، لا تجتمعان: لذة الخمرة ولذة التَّبغ. هُما ماكِرتان بتواطئهما تُشْعِرانِكَ كأنهما خُلِقتا كي تتناكحا شَرْعاً في مسارات دمِكَ فيُدْمِنهُما عقلك وقلبك بلا فِكاك. لذتان ماكرتان تسحبانكَ ببطءٍ مثل غواية السِّحْر».

بقيتُ صامتاً أستمِعُ برغبةٍ ماتعة إلى هذيانِ «الفيلسوفة» السكيرة أليسيا، كأنها تُلقي عليَّ موعظةٍ من مواعظِها المكتومةَ من خلجاتها المكلومة بنصلِ الضجرِ والوحدة القاتلة. سحبت رشفةً أخرى من

«سُمِّها» البولوني، كما تقول هي. أعادت رغبتها في أن أشاركَها قطراتٍ من الفودكا. اعتذرتُ، من جديد، بأدبٍ سلسٍ. عادت تُكمل هذيانها:

«أوقفْتُ التدخيَن حين قررتُ أن تقضمني رحمةً واحدة، هي رحمة الكحول. رحمتان مُخدِّرتان لجسدي لا تلتقيان». أضافت أليسيا بحُزنٍ مبتورَ الدهشة صبغَ وجنتيها بصِباغٍ حزنٍ ذي مواءٍ مخنوق.

تفهَّمتُ، قليلاً، قصد أليسيا. أشعلتُ سيگارتي بقدْحةٍ من آلة حجر الزَّند. كَرَعَت أليسيا جرعة أخرى من كحول قنينتها نصف الفارغة. أغلقتْها، وأعادتها إلى حقيبتها:

«الأفضل أن أخبئها قبل أن تتشمم طيور الشيطان المستريحة خلف البازار رائحتي فتشاركني ما تبقى في قنينتي».

لم أفهَم قصدها في إشارةٍ غامضة إلى «طيور الشيطان».

«أثمة طيورٌ، حقًّا تحتسي الكحول؟»، قلتُ لأليسيا مُدقِّقاً النظر إلى أنفها الرفيع كقلم كحل الشفاه منتظراً جواباً من مغزل شفتيها البضتين الملتحمتين شبقاً.

رميتُ بنظراتي صوبَ البازار الكبير المغلَق، المسقَّف بالآجُرِّ فلم أُشاهد طيوراً تحوم حوله. ربما هي خلفه كما أوضحت أليسيا. قرأت بنظرةٍ من بؤبؤيها العسليين الذاهبين ذوباناً خدراً تحت أهدابٍ مقوَّسة لا ترَف فيهما يُرتِّقُ حُزنَ عينيها:

«انتظر. ستحومُ، بعد قليلٍ، حولنا بعض النوارس الشرسة بزعيقها المفترس. السكيرون يتجمعون في كل ساحة من ساحات المدينة. لي شلَّة من الكحوليين يُشاركونني هذا السُمَّ إن نفد ما لديهم».

نظرت أليسيا إليَّ نظرة رقيقة. ابتسمتْ. قالت:

«ما أحلاكَ». رمت أليسيا كلمتها إطراءً بلا هدفٍ مُمسِّدةً بيدها اليمنى المرتجفة شعري الأسود الرطب.

قفزتْ، فجاءةً، بلا استئذانٍ من مكانها بسرعة مدهشة.هرَسَت بكعب حذائها الأيمن على الأرض المرصوصة حجراً أسود مُربعاً. صرخت: «موتي موتي، يا لعينة». ضحكتْ ضحكةً هستيرية. هههه. قتلتُها. ماتَتْ. ماتتْ.

عادت أليسيا فجلست في مكانها. استغربتُ من ردة فعلها هذه. ما الذي مات دعْساً بكعب حذائها. كنتُ أنظر إلى كعب قدمها وهي تُدوِّرُها على الأرض كأنها تسحقُ شيئاً أرْعَبَها بشكل مفاجئ.

«ما الذي هرسْتِهِ بكعب حذائك، يا أليسيا، بهذا العنفوان المرتعش؟».

«أَلَم ترَها؟ ألم ترَ الدودة الصفراء الطويلة برأسها ذي القنزعتين السوداوين وهي تزحفُ باتجاهنا، يا هِرميتس؟، أنا رأيتُها من بعيد كأنها آتيه زحْفاً من ساحة «Brunnsparken». الدود الأصفر مُقزِّز. أنا أتشاءَم من الزواحف»، أضافت أليسيا.

أفزعَتْني أليسيا. دوَّختْني. شلَّت تركيزي. أحسستُ أن يدَيَّ تُسحلان من على كتفَيَّ. انزلقت المظلة المتمدِّدة بجانبي. ركْبتاي اصْطكَّتا. لا يمكنني الوقوف على قدَمَي. حاولتُ أن أقف محاولاً أمتِحان توازني الجسدي، لكني ارتعبت. شعرتُ كأني أنا الذي احتسيتُ قنينة الفودكا التي مع أليسيا.

أغمضْتُ عيني، قليلاً. هزَزْتُ رأسي ببطءٍ يميناً وشمالاً استرجعُ حركة كعب أليسيا وكلماتها التي نزفتْها من فَمِها كأنها تتقيأ دودةً صفراء كتلك التي تقيأتها أُذُنا «صدام» في ساحة غوستاف أدولف أمس.

فتحتُ عيني ببطءٍ أخرس مدهوشاً أنظر إلى حيث المربع الحجري الذي دوَّرت أليسيا كعب قدمها عليه وهي تصرخ:

«موتي موتي».

ارتعبتُ. تراءى لي بقايا خيطٍ أصفرٍ رفيع من قشرة الليمونة التي رمتْها أليسيا قبل قليل.

«لكني لم ألْحَظ أية دودة وأنتِ تهرسين بقدمكِ الأرض؟ أين هي الدودة، يا أليسيا، لا أثرَ لها على الأرض؟»، سألتُها سؤالاً استغراباً من تصرفها المفاجئ ذاك.

صمتت أليسيا. نظرت إليَّ نظرة تدحرجت ناعسةً، مُتْعبة، على سُلَّمِ استغرابي. مدَّت يدها إلى حقيبتها. أخرجت، من جديد، قنينة الفودكا. رفعتها إلى الأعلى. صرخت: «بصحة غوستاف». بلَعَت رشفة من القنينة. أغلقتها. مسحت شفتيها بكُمٍّ بلوزتها.

تماوجت في روحي سحنات الحزن الرقيق على الانكسار الذي تختزنه أليسيا الرقيقة الشابة الضائعة خدراً بفعل الكحول السُمِّ الذي تتجرَّعه بلا رحمة في عز النهار. أحسستُ بضياعها، وتأكيدها اسم صديقها غوستاف الذي نادت باسمه مُناداة الحسرة تحت ظلال الكحول. شعرتُ بقلبها يتدحرجُ من بين أضلاعِ صدرها منزلقاً على عتبة النُصب البرونزي.

وضعتُ ذراعي اليسرى حول كتفيها بهدوءٍ حذِرٍ. جذبْتُها إليَّ جذْباً حنوناً مُخفِّفاً من غلواء حزنها الذي فاض، بلا مقدمات، من قِدْرِ كبدها نزفاً كحولا، ممتزجاً بدمعٍ لسعَ رجفة حنيني على فورانِ الخيبة الذي أحرقَ فراغَ وحدتي أنا أيضاً.

«غَرِقَ صديقي الطيب «غوستاف»، في بحرِ اليونان قبلَ سنوات أرْبع»، قالت أليسيا. كُنَّا في رِحلةِ اصطياف إلى جزيرة «كْريت». تمدَّدْنا على رملِ البحيرة. شربنا «الأوزو» اليوناني حتى تخيلنا أننا نستطيع أن نعودَ سباحةً إلى يوتبوري. أيُّ ربٍّ من أربابكم الإغريق

طابَ لهُ أن يأْمُرَ باستحضارِ هذا النوع من الكحول الذي تُغرِقونه في الماء فيتغير لونه إلى البياض؟ مشروبكم الوحيد هذا لهُ وجهان غدَّاران. اللعنة»، قالت أليسيا بانفعالٍ غريب. كرَّرت كلمة «اللعنة» ثلاث مرَّات ضاربةً كف يدها اليُمنى على سطح رخام التمثال بألم. أضافت مسترسلة بهذيانها الحزين:

«مرَّغَ عشيقي جسدي بقُبلاتٍ ما زالت طريَّة على جلدي لحد الآن. نكحني بكل طاقته ونحن على رمل الساحل. كان زَبَدُ البحر الهائج يلطُم جسدينا الملتصقين فيهيِّجنا بجنونٍ ساحق. بلَّلَني، عشيقي، سحْقاً بنكاحهِ بجنونٍ كأنهُ أتخذ قراره سرًّا أنْ يُفرِغَ آخر ثرثراتِ رغبته الشبقية العارية في جوفي الذي التهبَ طيشاً. التصقَ بلا اعتذارٍ خجلٍ ممَّن حولنا من نصف العُراة البشر حول قوس ساحل البحر الأبيض. عَضَّني من شفتيَّ بجنون. دَعَكَ نهْدَيَّ بجنون، مصَّ صُرَّتي حتى شعرتُ أن حَبْلَ سُرَّتي عاد يتراقصُ على سطح بطْني، ثم نزل إلى فخْذيَّ فرفعهما إلى الأعلى لاحِساً بلسانهِ ظهرَ قفاي. نكحني بعنفٍ هستيري هائجاً كالثور المذبوحِ، حتى بلغْنا النشوةَ بجنون.

استوينا على ظهْريْنا ملتصقين بالرملِ الفضي المعجون بملح البحر. كان الوقتُ مساءً. غفوتُ قليلاً، أو ربما كثيراً. كنتُ ثمِلةً من «الأوزو»، ومن معركة نكاح صديقي. أفقتُ، وأنا مُنتشيةً أرغبُ بالتصاقٍ جديد بجسد صديقي. مددْتُ يدي وأنا مُغمضة العينين فوقعَتْ على الرمل. حرَّكتها إلى الأعلى، ثم إلى الأسفل لم ألمس إلاَّ فراغاً غاصَ في رمل البحر. استويتُ جالسةً. ناديتُ ملتفتةً إلى كل الاتجاهات: «غوسْتاف. غوستاف. أين أنت يا غوستاف؟». لم يُجبْني غوستاف. لم أسمع إلاَّ صدىً باهتاً. نهضت أركض من دون أن أُحدد اتجاهي. بعد ساعتين من ذاك الكابوس الصاعق أخرجت فِرقُ الإنقاذ جسد

«غوستاف» صديقي الحميم مُنتفِخَ البطن. لقد شرِبَ من الأوزو حتى الثمالة. وشرِبَ جسدي حتى الثمالة. ثم شرِب بحر اليونان وانتحَر».

صمتت أليسيا. فتحت حقيبتها الجلد المدلاة على كتفها اليمنى، أخرجت، مرة أخرى، زجاجتها الفودكا، فتحت غطائها المعدني، مصَّت من فتحتها ما طابَ لها من الكحول. مدت يدها بالقنينة إليَّ:

«خُذْ قليلاً من هذا السُمَّ البولوني الصافي»، قالت لي أليسيا.

«لا. شكراً»، قلتُ لها رداً على دعوتها، «أنا لا أحتسي الكحولَ نهاراً، كما قلتُ لكِ، أنا كحولي ليليٌّ»، مُعيداً عليها تأكيداً على أني أحتسي الكحول ليلاً، لا غير، شارحا لها، ببعض التفصيل، مزاجي الكحولي.

أغلقَتْ أليسيا القنينة، وأعادتْها إلى باطن حقيبتها. استلَّت، من جديد، شريحةَ ليمونٍ من كيسٍ بلاستيكي صغير من بين شرائحَ مُقطَّعة قِطعاً صغيرة. مضغتْها على عَجَل. أعادت الكيس إلى حقيبتها. مسحت شفتيها بلسانها. زمَّتْ شفتيها بخفَّة شبقية: «الليمون ضروري أثناء احتساء الكحول»، قالت أليسيا، ثم أضافت:

«إيَّاك أن تنسى الليمون، يا هِرميتس، عند احتسائكَ الكحول، الكحولُ يمتصُّ فيتامين (C) من الجسم، وعلى الأخص مشروبكم المقْرِف هذا، المشبَّع باليانسون».

سرحَتْ أليسيا، لثوانٍ، بصمتٍ حزينٍ. لمحتُ عينيها تغرورقان دمْعاً. انتفضتْ فجأةً. صرخت:

«اللعنة اللعنة اللعنة». ضربَت، بكفِ يدها اليمنى، بقوة على عظمتي ركبتيها:

«أنا أكْره «الأُوُزو» الذي نحرَ صديقي. أنتُم اليونانيون مجانين.

إنكم تخلطون كحولكم بالماء حتى يغدو حليباً. أَيَسْكرُ البشرُ بالحليب؟»، هِهِهِع. شهقت أليسيا شهقة بكاءٍ مُرٍّ. تمدَّدت جلوساً، بعد أن توقف تساقط الثلج بالتمام.

«إششششش»، قالت أليسيا فجأة.

«ماذا، يا أليسيا. هل من شيء أزعجَكِ؟»، سألتُها.

«ألا تسمع صهيل الحصان؟ يبدو أن الملك غوستاف سيغادرنا. ربما أزعجناهُ بلغْوِنا».

«أو ربما بالغْنا، مُبْتهِجيْنِ، في ضِراطِ هلْوساتنا»، قلتُ لأليسيا قوْلاً مزجْتُه بفكاهةٍ عبثية.

«أو ربما كنا ثقيلي الدمِ عليه، ونحنُ على مائدته ولم أدعُه أن يُشاركني الفودكا»، أضافت أليسيا.

«أترى بناية البازار ذات السطح القرميد، التي أمامنا، يا هرميتس؟ ربما جاع الملك فذهب كي يتغدى. في البازار أطعمة مُشْتهاة»، أوضحت أليسيا شرحاً ببعض الإسْهاب عن ما يحويه البازار من محال لبيع المأكولات التي تُقدمها المطاعم.

نظرتُ إلى بناية البازار. سألتُ أليسيا عن أنواع الطعام التي تقدمه المطاعم في البازار:

«كلُّ ما يُهذِّبُ المعدة ويُسكِّن رجفتها متوفرٌ في داخل البازار، يا هرميتْس»، ردت أليسيا من دون لسعةِ جوعٍ فيها تُبدِّدُ حزنها وضياعها المرسوم بوضوحٍ جليٍّ على وجهها.

«ما الفرق بين الثلج والمطر؟»، سألتُ أليسيا محاولاً تغييرَ مسار الحزن الذي لفَّ جلستنا الغريبة إثرَ لقاءٍ عابرٍ غريبٍ، بلا استئذانٍ مُسبَّقٍ بيني وبين هذه المرأة السكيرة.

استدارت أليسيا برأسها متأملةً سؤالي المُباغِتَ، الساذج، ربما:

«المطرُ ثلجٌ، والثلجُ مطر»، أجابت أليسيا جواباً لا دهْشة تغلِّفه. لكني أحسستُ أنها فهمت من سؤالي مجرد فذلكة أبتغي منها تغيير دفة لقاء أوْجدتْه الصدفة بين غريبٍ طارئ، لم ينغزها الفضول في أن تسأل نفسها، ماذا يفعل «يونانيٌّ» مثلي في هذا البلد الكئيب شتاءً حيث ترحل الشمس بعيداً، فاسحةً المجال للعَتمَة والرطوبة والثلج والهواء القارس؟.

«أثمة رائحة للثلج، يا أليسيا؟ هل تشمين رائحته عندما يتساقطُ على رأسك وأنت بلا مظلة؟».

«للثلجِ رائحة اليود تتسرب إلى مسامِّيَ. يا هِرميتس الهيليني»، أجابت أليسيا إجابةَ الواثقة بدعْمٍ من مفعول الكحول. «للثلج رائحة الهشيم الذي يذوي أخرسَ بلا ارتجافٍ»، أضافت.

قهقهت أليسيا قهقهةً فجائية. نظرت إليَّ:

«أتعتقدُ، يا هرميتس، أن اسمي متلاقح من جذور أهلك الإغريق؟»، سألتني أليسيا بتعجبٍ طفوليٍّ بريء، ثم أضافت:

«أنا اسمي أليسيا، لكن يمكنك قضم حرفيه الأخيرين، اختصاراً، نادِني «أليْش»، إن شئت، أيها الإغريقي الأصيل، يا هِرميتس، يا سليل ملوك الأولمب».

ضحكتُ من هذا الربط بين اسمها وأصل اليونان الهيلينيين. لم أشأ أن أصرف النظر عن سؤالي لها عن معضلة الثلج. وافقتها على استنتاجها بهزة خفيفة من رأسي صاحبتها ابتسامة باردة مني.

«لماذا لا تحملون المظلات إلا عندما يتساقطُ المطر فقط، يا أليش، بينما تتركون أجسادكم لهباء الثلج المتساقط؟»، سألتُها استفهاماً.

«لأن الثلج خفيف الظل عند تساقطه. ليس مثله كمثل المطر. الثلجُ خيالُ المطر. الثلجُ ينتحرُ عندما يذوب»، أجابت أليسيا، أضافت: «الثلج منعشٌ. ذليلٌ. مُسالِمٌ، لا يهْتاج كالمطر. متقشِّفٌ. صامتٌ بلا قرقعة، لا يخذل المتجولين تحت سقفه. الثلجُ فردوسيٌ لذا لا نخذله بحملنا المظلات، بينما المطرُ يُسقطهُ الله كلما غضِبَ علينا. للأسف، غضبُ الله شبه دائمٍ على أبناء الاسكندناف لذا تجد المطر يتساقطُ بين يومٍ ويوم».

صمتت أليسيا كعادتها عندما تسترسل في حديثها. تسحبُ نفساً عميقاً، أو ترتشفُ قطراتٍ من كحولها. أكملت حديثها بسؤالٍ مُباغت رمته عليَّ قفزاً من لسانها، الذي بدا ثقيلاً بعض الشيء، من إكْثارها لجرعات الفودكا:

«أيغضبُ الله عليكم، في اليونان، ياهرميتس، بين يومٍ ويوم؟ أيغضبُ على آلهتكم الجبابرة؟» سألتني أليسيا مستفسرةً بلجاجة كمن يكظمُ غيضاً.

«لو كان الله يغضب علينا، في اليونان، مثل غضبه هنا لما سافرتُما، أنتِ وعشيقكِ في رحلة استجمامكما المؤسفة، يا أليسْ»، أجبتها جواباً مُملَّحاً بأسف الخسران الذي أصابها جراء غرق عشيقها في بحر جزيرة «كريت».

«غوستاف لم يغرق»، أجابتني أليسيا بعينين ساهمتين. «غوستاف انتحر»، ردَّت بحرقةٍ مرتجفة من حنجرةٍ متقوِّضة الأوتار. لقد سوىَّ حسابه مبكراً مع الوجود الذي لا معنى فيه للوجود. الانتحار شجاعة لا تُغتفَر، يا هرميتس الاسكندراني».

ابتسمتُ ابتسامةَ المدرك أن لا مجال، الآن، لتصحيح مسار اللَّبْس الذي أصرَّت عليه أليسيا السكيرة، بلا تردُّدٍ، أني يونانيٌّ قُحٌّ. استمرت

أليسيا بهذيانها رغبةً مكتومةً في جُبِّ روحها، وأنا مُطيعٌ لنزف جرحها الذي استمرت بنزفه كلاماً مكلوماً:

- حاولتُ أن ألْحَقَ بوغستاف، ساعتها، مكملةً مشوار انتحاره، لكن شبَّانَ الإنقاذ على ساحل البحر الهيليني، من أعمامك اليونان، منعوني. حملوني إلى مستشفى الطوارئ في المدينة. زرقوني بإبرة مُخدِّرة صحوت، إثرها، بعد يوم طويل بعد انتهاء مفعولها في جسدي. أعادُوني مخفورةً، صحبة موظفٍ من السفارة السويدية في أثينا، إلى يوتبوري. شحنوا معي غوستاف مُسَجًّى في تابوتٍ أجوف.

خفَتَ صوتُ أليسيا بعد سردها لي مأساتها التراجيدية هذه. خفَتَ صوتها. مدَّت جذعها العلوي مستندةً بكوعِها على البلاطة الرخامية لتمثال كارل التاسع. أغلقت عينيها. ارتخت يداها تعباً. انعجنت روحها المخمَّرةً كحولاً. لا همْسَ اسمعهُ منها بعد أن نطقت آخر جملةٍ: «تابوت أجوف»، من حديثها المطعون عن انتحار عشيقها غوستاف.

انسحبتُ، بهدوءٍ، حاملاً مظلتي، وحزني المكسور، أصلاً. سحبتُ جسدي. مشيتُ بهدوءٍ مُضعضع الروح حزينًا. أحسستُ بدورانٍ يشلُّ ساقيَّ وهُما يسحَلانني.

كدتُ أفقُد بعض توازني. ابتعدتُ عن أليسيا السكيرة، عن جسدها المهلهل كحولاً تحت أغصان الضياع والفقدان، لكن رائحتها، تلك، التي بللتني بها وهي تحدِّثُني عن خسارتها لحبيبها الذي خذلها بانتحاره، بلا مُقدِّمات، رائحة الكحول تنفثها هذَراً من باطنِ رئتيها المحمومتين، رائحة ذليلة بانكسارها التي تنفَّستُها أنا، لشد قربي منها، فظلت عالقة بي. رائحةً مجبولةً بالملح المرِّ انطحنت بمسامات وجهي وثيابي وشعري ومظلتي.

شعرتُ أني جرحتُ أليسيا السكيرة، بعض الشيء، حين قلتُ لها: أنا كحولي ليليٌّ. أنا أحتسي الكحول مساءً، وعلى الأغلب في البيت. وحدي مع كحولي، في شقتي، شقة اللاجئ الحلو. وحدي مع هذا السائل المدهش.

لم تتركني. ها هي تمشي ورائي. ألتفتُ، لا أراها، وأنا أسيرُ لوحدي. بقيت تُناكفني، دخلت في مسامات رأسي:

سأُوضِّح لكِ، يا أليسْ:

«أحياناً يكونُ الكحولُ مُكدِّراً لي، بلا مُبرِّرٍ. لا دهشة فيه فيُكدِّرُ مزاجي وأحسه مثلَ زجاجٍ يُهشِّم أعصابي؛ مثلَ قِناعٍ يُلْبِسُني كذبةَ الهروب؛ مثلَ مُفاجأة تتهادى إليَّ بحثاً عمن يُسلِّيها، عندها يشربُني الكحول، لذا يقول العارفون ببواطن سحر هذا الشراب المسحور: «لا تدع الكحول يشربك، بل اشربه أنت». الفارق بين الحالتين جد كبير».

«ما الفائدة من أن نحتسي، هذه النعمة الشفافة، ليلاً، ها؟ قُل لي، أيها اليوناني الطافح فلسفةً. أتشربها كي تنام والكل ينام؟ إذاً فلتنَم من دونها. انظر لهؤلاء البشر المتقافزين حولنا دون أن يُعيروا بالاً لِما حولهم. هم يسيرون كأنهم نِيام. أنا الصاحية بينهم. أراهم، أُجرِّدهُم من روحهم التي تُقهقه في داخلهم دون أن يحسوها. هؤلاء الذين من حولنا، كالروبوتات، ثملون بالخوف، الخوف من الآخر، ومن الوجود ومن تقلبات الجو ومن الموت، لذا ترى الناس يتبادلونَ الاعتذارات حتى في أبسط خطأ يأتي عفوياً».

«لكن الاعتذارُ بين البشر صفة حضارية، يا أليس، أليسَ كذلك؟»، قلت لها.

«طبعاً»، ردت أليسيا. صمتتْ. رشقتني، من عينيها، ببعضِ عتابٍ كإني أُعيِّرُها بثمالتها. ردت بشيءٍ من الامتعاض:

«الثمالةُ صفة حضارية أيضاً، يا هرميتس الغارق في صحوِ مثالياتك. الاعتذارُ المفاجئ حتى لو لم تكُن على خطأ هو نوع من الخوف المزروع غريزياً فينا. الخوفُ يخشاك ويخشاني. لكن وأنا ثملة، إنْ صدمني أحدٌ، دون قصد، سيقولُ لي: «عفوا»، أليس كذلك؟ أما أنا الثملة سأرد عليه: «اللعنة»، وهو في داخله الأخرس أيضاً سيقول لي اللعنة. قمعتُ خوفي الداخلي لذا أرد عليه بصوتٍ مسموع: «اللعنة». اثْمَلْ سيتنحى الخجلُ تلقائياً في داخلك. هل تتخيل أنَّ شخصاً ما، صاحٍ، سيأتي إليك من دون معرفة مسبقة ويقول لك: «هل تسمح أن أُشاركك مظلتك؟». السويديون الأصحاء لا يفعلونها، بالذات مع الغريب، ليس استنكافاً إنما يعتبرون ذلك اعتداءً على حريتك الشخصية. لِمَ شاركتُك، أنا، مظلتك، يا هرميتس، ها، لِمَ؟».

ضحكتُ لسؤل أليسيا. لم أشأ أن أقول لأنها ثملة. لكنها أخرجت زجاجة الفودكا. قبّلتْها. قالت: «الفضلُ لهذا السائل في هذه القنينة القحبة». ارتشفت جرعة أخرى. واستمرت تهذي:

«لا يقمع الخوف إلاَّ الثمالة، عندها لا يعنيك الآخر مهما فعلت، المهم أن تقمع خوفك بفعل الخمرة. الخوف يخشاك وتخشاه وأنت صاحٍ. الصحو رذيلة، والثمالة حرية، حرٌّ كأنك في صحراء. اثْمَل تصْحُ، يا هرميتْس. حين تثمل تشعر بوجودك. هؤلاء البشر من حولنا قد سرقوا خوفي وحنَّطوه ووضعوه في متحف أنانيتهم التي اختلقوها قناعاً يلبسونه متى يشاءون. كُن سارقاً، يا هرميتس. اسرق خوفك والبِسْهُ براءتكَ. الخوفُ حرية المساجين في عالم مفتوح. ما الفائدة في أن تسكر وتهجع إلى سريرك غارقاً في خوفك الذي يعوي شخيرا».

هل كانت إجابة أليسيا، التي يتحكَّمُ الكحول في إسْكاتِ مواجعها، إجابة منطقية حين سألْتُها:

- ماذا يعْني لكِ الكحولُ، يا أليسْ؟

«الكحولُ اسْتِعارة. حريَّة مُسْتعارة»، أجابتني أليسيا. حرَّرتْ يديها المحشورتين بين فخذيها من الباطن المختبئَ تحت سحَّاب بنطالها. باطنٌ يندفُ أنيناً دافئاً ملذوذاً بأنينه. رفعتهما إلى الفضاء السمجِ ببرودته. أضافت:

«الكحولُ مُتعةٌ مُستعارةٌ من اللذَّة. متعةٌ مُبجَّلةٌ لحريَّةٍ مُبجَّلة أشْحذُها، مؤقتاً، من هذا الشرابُ الذي أفضل ما اخترعهُ الإنسان. الكحولُ فراشة تأخذني إلى حيثُ أنا مُتحرِّرة من الناس، خارجة من جسدي، خفيفة، أسيرُ، كأني لوحدي وكل الأماكنَ لي.

الكحولُ يوحِّدُني مع الغِياب.

الخمرةُ رئتي الثانية التي أتنفسُ منها.

إنْ لم أحتسِ الخمرة أختنق. رئتي الأولى، الحقيقية، تستنشقُ هواءً ملوثاً ينفثهُ البشر في وجهي كل يوم».

سكتتْ أليسيا. نفختْ بين يديها من زفيرِ تثُّورِها. فركتْهُما. أعادتهما إلى حيث الفتحتان المطويتان على بئر ترقدُ فيه اللذة.

سكبت أليسيا، في كأسي، كل فضائل الاستعارات من أعاجيب استعاراتها للكحول المجبولة من خيال القلق منذ أول نقرة طير لثؤلولة عنقود دالية جعلتهُ يُغني. ولأني حزنتُ لضياعهاا لذا حاولتُ إبداء وجهة نظري عما يعني لي احتساء الكحول:

«هنالك فرقٌ، يا أليس، بين أن نُدمِن على الكحول، أو أن نحتسيه بكميات نُرضي مُتعة الروح لا أن نهتِك جلالتها»، قلتُ، تأسِّيا عليها، هي الشابة الجميلة أسيرةُ الحزن والإدْمان.

قهقهت أليسيا قهقهةً أثارت العابرين في الاتجهات البهية حول

نُصب الملك المنتصر في حروبه القديمة. صمتتْ. فركتْ صدغها بكتفي اليسرى فركاً ناعماً. أراحتْه لثَوانٍ مغمضة العينين. التصق شعرُها السَّبِل، الكثيف بأنفي. تشممتُ ما أستطعتُ من رائحته الرطَّبة. افتكرتُها غفت. تمنيتُ أنْ تُطيل غفوتها، لكن، بغتَةً، أزاحت رأسها عن كتفي. نظرت إليَّ نظرة جدِّية قرأتها في عينيها الواسعتين لوناً عسلاً خفيفاً. قالت بصوتٍ واثقٍ:

«عندما تصل إلى بَرْزخ النشيان مصحوباً بمتعة الروح إلى ما بعد اليقظة، عندها تستطيع، يا هرميتس، أن تعرف الآخرين وتواجههم بشجاعة. أنا، مثلاً، عندما تشع فنارات البرزخ أمامي، أكون قد مرَّغتُ قناعي الحقيقي تحت حوافر الكحول. أحب أن أرى الناس أشباحاً تسيرُ كأنها بيادقُ شطرنج، أو روبوتات تتقلب حسب نظامٍ غير مُنفلت.

عندما أثْمَلُ أحس أني قد اغتسلتُ وتطهَّرتُ من خدعة الوجود. تتقلب روحي إلى قطعة بللور لا حاجة إلى صقلها أو تدليكها أو تمريغها بمديح مزيف.

«كُنْ ثمِلاً، يا هرميتس، تجد حقيقتك ساطعة. شرط الحقيقة الثَمالة». أجابتني أليسيا.

«أنتِ شاعرة، يا أليس. شاعرة فيلسوفة»، قلتُ لأليسيا أستلطفُ الجو بعيداً عن سؤالي الذي بدا لي أنه قد جرح مشاعرها.

«لي استنتاجٌ آخر، يا هرميتس، عن فلسفة الكحول. نسي الله عنصراً خامساً، أو تناساه، من عناصر الخلق الأربعة المعروفة. عنصر التجلِّي من الخمرة التي خلقها على هيئة فاكهة ثمراً مدجَّجاً بنُطف المتعة والحكمة الأزلية».

سوَّرتْني أليسيا بمتعةِ صلاةٍ وهي الشبح الذي يسير بلا إزعاجٍ، تُلاحقني، مشت إلى جانبي، تُسلِّني بنقاشها الحلو، وأنا مبهوتٌ:

«من أين تأتي أليسيا باستنتاجاتها المقنعة هذه وهي على حافة الثمالة؟»، ساءلْتُ نفسي.

عادتْ أليسيا فسحبت قنينة الكحول من حقيبتها. تمضمضت قليلاً بجرعة منها، ثم ابتلعتها. لم تُعِد زجاجتها إلى الحقيبة. وضعتها بين فخذيها، وهي واقفة. نظرت إليَّ بحميمية أكثر من ذي قبل. ضمَّت أصابعي بين يديها:

- أبدو ثرثارةً، مُمِلَّة. أليسَ كذلك، يا هرميتس؟

- أبداً، يا أليس. أنت رائعة. مدهشة. ثاقبة الذهن. لم أكُن أتصور أنكِ بهذا العلو. كُحولَكِ لا يغدُر بك. من أين لكِ كل هذه الاستنتاجات فيما يخص الكحول؟

«الخمرةُ مُقدَّسة لأننا نحن نستدعيها إلى عُقرِ مزاجنا. هي لا تأتي لوحدها.

صمتتْ. رفعت رأسها إلى السماء:

«الخمرةُ كرامةُ الملائك. وانتبه، إنْ أهنتها فستُمرِّغُ مزاجكَ بوحل الشياطين. كُن كريماً معها، ستكون نبيها ساعات احتسائها. ستختبر هذه الحقيقة بنفسكَ، يا هرميتس، كلما طال مكوثك على أرض الاسكندناف. لن تشعر بحميمية وتقبُّلٍ سريعٍ، وعفوي في عيشك مع السويديين إن لم يكن أحدهم، مثلي، سكيراً. دُر على جميع ساحات المدينة، ستجد في كل ساحة تجمعاً صغيراً لسكيرين يتبادلون الخمرة حصصاً يتقاسمونها بلا مجاملات. اقترب منهم، سيرحبون بك ويجاملونك. سوف لن تشعر أنك فائض عن الوجود هنا. ربما لن أتعرف عليك، في المرة القادمة، إن صادفتُك ولم أكُن في حضرة إله برزخ الكحول».

«جرَّبتُ النبيذَ نهاراً. لكن في البيت على الأغلب. لا أحتسيه علناً، تقريباً. حتى وإن أعلنتُ عنه أمام الملأ، فإني أحذرُ من كدرٍ يأتي بلا اتفاق، ياأليس».

هل تكدَّرت أليسيا مني؟ غريب، أشعرُ الآن ببعض التأنيب. لكن، هي، لم تكن بكامل وعيها تماماً. عندما رفضتُ أن أشاركها جرعات من الفودكا البولونية، كانت تنظرُ إليَّ بحزنٍ، نظرةَ تأنيبٍ مؤدَّبٍ.

سرتُ سيراً بطيئاً إلى حيث موقف الترام الذي يوصلُني إلى شقتي الأنيقة على ساحل البحر. سرتُ ساحباً جسدي سحْباً ثقيلاً. فكرتُ بأليسيا وحزنها وضياعها. وحيدة لا تتعدَّد إلاَّ مع الكحول.

انبثق، فجاءةً، في ذهني سؤالٌ خافت حيَّرني، وأنا مرتمٍ على سريري أرتجي قيلولتي التي تعوَّدتُ عليها قبل حلول المساء. أخذتني الإغْفاءة. استوتْ يقظتي على نارِ الوحدة. انهرست أضلاعها هرْساً ساحبة نُعاسي من تحت أجفاني إلى حيث قُبَّة النوم، وأنا ما زلت أُعيدُ التفاصيل الممتعة من لقاء المصادفة الغريبة مع امرأة سكيرة:

لِمَ لم تتحرَّك رغبتي الجنسية وأليسيا الجميلة شبه ملتصقة بأطرافٍ من جسدي، ونحنُ تحتَ برَكات نُصبُ مهول بتعاريقهِ البرونزية المشغولة بإتقانٍ لجسد الملك كارل الأسوجي؟

وحدي، الآن، مثل ما أنا وحدي منذ وصولي يوتبوري، أو غوتنبرغ، كما يحلو للغرباء أن يسمونها.

ارتعبتُ من سذاجتي التي باغَتَتني بعيداً عن أليسيا بمسافة لا بأس بها. هيَّجني هذَري وأنا أنظر إلى سقف الغرفة وكفَّاي تحت رأسي.. قفزتُ. أنَّبْتُ نفْسي:

«يا أثْوَل، هل من مفطومٍ مثلكَ لمعاشرة أنثى يضيِّع فرصة أتت بلا

افتعال؟ لِمَ لم تدْعُ أليسيا، يا أثوَل، إلى شقتك الأنيقة؟ لِمَ لَمْ تنغز غرائزك، يا أثول، وأليسيا تُمسِّدُ شعرك؟ أأساها على «غوستاف» قاومْتَ به رغبتك التي دغْدغتْكَ، أول الأمر حين وصفتكَ بـ «اليوناني الحلو»؟

أفزعَتني أسئلةً باغتت جوارحي، وأنا جالسٌ في مقعد منفردٍ في حافلة الترام، عائداً إلى شقتي. هيَّجتْني المباغتة. نزلتُ في أول موقف توقف فيه الترام عازماً العودة إلى حيث النُّصب فلربما ما زالت أليسيا هناك.

ناطحَتْني هواجسَ فجائية تغلي في رأسي وأنا في الترام العائد إلى حيث نُصب كارل غوستاف الملك:

«مَن قال لك، يا أثول، أن أليسيا سترضى بمرافقتك إلى فِراشكَ؟ أمِن امرأة تُلبي دعوة رجلٍ عند أول لقاءٍ؟ لكنها أبدت رغبتها لك، أيها الثملُ بثولانِكَ. تقبَّل الفكرة ولا تتغابَ أكثر. هي دعَتْك، حينما ضيَّفتكَ من كحولها. هي استمالت إليك. لكنك تثاقلتَ وأريتَها سماحتكَ الساذجة وتفلسفتَ أمامها كونك لا تحتسي الخمر نهاراً. آهٍ، يا أثوَل. لو كنت شاركتها بعض جرعات لكنتما الآن على ظهر المركب المتهادي على سطح زجاجة الفودكا البولونية، وربما وصلتما وارشو عبر بحرٍ من ثمالة الفودكا».

تمنيتُ أن أراها ما زالت تجلسُ على مجلات الاعلانات. أسرعتُ الخطى مترجلاً من الترام. ناشدني الغيبُ المستفيق لوحده في عالم القيلولة غافٍ تتناوشني الأحلام مرْخياً على سريري:

ها هي أليسيا، هناك.

اقتربتُ أكثر إلى حيث النُّصب. متدفقة حيوية منكبَّة تقرأ في كتابٍ تُمسكه بيدها اليسرى، وفي اليُمنى علبة جعة زرقاء نوع «هينكن».

«مرحبا أليس»، ألقيتُ تحيتي استرعي انتباهها لعودتي إليها.

جفلت أليسيا. رفعت رأسها. ألْقت على هيئتي نظرات استغرابٍ. كانت ترتدي فستاناً طويلاً فضفاضاً يصل كعبي قدميها معشَّقاً قُماشته الخضراء فراشاتٍ تتهيَّجُ طيرانا ترتدي الكنزة الصوف نفسها تحتها قميص قطني أزرق جديد غير الذي ارتدته في الأمس. لفَّت حول عنقها شالاً خمريًّا من الصوف حيكت خيوطه متداخلة أشبه بسلسلةٍ حديدٍ مبرومة حلقاتٍ عقفاً.

أطالت النظر إليَّ لثوانٍ معدودات. استدركت:

- آه، هرميتس اليوناني. أهلاً. افتقدتكَ في الأمس. اختفيت بلا مقدمات.

«أراكِ قد غيَّرتي المذاقَ الثقيل إلى آخر خفيف المذاق»، قلت لأليسيا وسطَ هرجٍ غريب لبشرٍ ملأوا الساحة والشوارع كأنهم في تظاهرة غير مُنسقة، أو همْ خارجون من مواقع أعمالهم مستكملين الطريق إلى بيوتهم.

رمتني أليسيا بنظرةٍ لا معنى لها، أزاء نظرةٍ تحسُّفٍ مني، كأنها تُفكر بأمرٍ ما. أغلقت الكتاب ورمته في حقيبتها. أشارت بيدها أن أجلس بعد أن سحبت بعضاً من مجلات الدعاية من تحتها.

«تفضل»، قالت. استجبتُ لرغبتها في الجلوس. المساء في أوله. حركة المتسوقين سريعة من البازار الذي يحتوي على محال لبيع كل أصناف ما تشتهيه النَفْس من قِبَل أصناف المطاعم.

«عدتُ أدعوكِ إلى بيتي ضيفةً»، قلتُ لأليسيا، همساً منكسراً ندماً لتركها وحدها قبل أن أعود إليها.

كنتُ خجلاً وخائفاً من ردة فعلها على دعوتي إليها بلا مُقدماتٍ.

نظرت إليَّ نظرة حنونة فيها شبه رغبة لدعوتي لها. وضعت علبة الجعة الصفيح جنبها. استدارت إليَّ بكامل جذعها العلوي. احتضنتني بقوة داعكة ثدييها على صدري. شدَّتني إليها، لفًّا، بساعديْها الطويلتين. قبَّلتني من وجنتيَّ قُبلتين رجَّت فيهما صدري رجَّةً رغَّبتْني فيها أكثر، رغبة تمنيتُ لو أطيرَ بها إلى شقتي الواقعة في شارع «الساحل».

عادت أليسيا إلى جلستها. رفعت علبة الـ «Henikin». تجرَّعت ما تبقى في قعرها. لعقت ما سالَ على سطح العلبة الصفيح من بقايا رغوة الجعة. عجنتْ العلبة بيدها قرقعةً كأنها تنوي انتقاما صاحبتْها هياجاً مكتوماً من حنجرتها:

«اللعنة اللعنة». «أنا مُحْبطة، يا هرميتس»، قالت أليسيا.

لم أُقاومَ إحباط أليسيا وهي تتلوى عجْناً، وسخْناً يمرِّغُ روحها.

أخرجتُ لِفافة تبغٍ من علبة سجائري الـ «Blend» السويدية. أشْعَلتُها. سحبتُ نفَساً عميقاً نزلَ مُحبطاً، أيضاً، في صدري فيما أليسيا تنفضَ قماشة فستانها الفضفاض عن لا شيء فيه. كوَّمته بين فخذيها ثم سحبت علبة هينكن أخرى من حقيبتها. سحبت مغلاق العلبة بامتعاضٍ شهرتْهُ علَناً ففارت الرغوةُ بيضاءَ لعقتها بلسانها تدويراً من على سطح العلبة:

«هذه هي علبة الجعة الرابعة، ولم أستطع طحن ربِّ الخواء، الخراء الذي يغلي في روحي»، قالت أليسيا وهي تسحب إلى جوفها الخاوي جرعات من الجعة كإنما ترتوي بماء.

لكلٍّ منا لذَّتُه، لي لذةُ التبغ محترقاً، ولأليسيا لذة الخمرة مسكوبة في روحها.

لكل متعةٍ لذتها وسحرها، وعقابها، ولكل لذةٍ مريدوها.

اللذة أمٌّ الرغبة وجوهرها المتعة حسب مدمنيها، ولكل متعة إشْراقها.

«ما يُرعبُني، يا هرميتس، لحظة الخواء بعد تطاير الكحول عن جسدي. ذهبت فودكا الأمس إلى الجحيم. قلتُ أغتسلُ اليومَ بالجعة. ألا تراني أرتجف؟».

«لكننا ما زلنا في يومنا، لم يذهب الأمس، ها أنا عدتُ أصطحبكِ إلى شقتي، يا أليس».

قهقهت أليسيا:

«لكَ أمسك، ولي يومي، يا هرميتس». «الزمنُ ماكرٌ. الخواءُ ماكرٌ»، أضافت أليسيا.

لم أفهم كلمة «الخواء» التي لفظتها أليسيا بسويدية أسمعها للمرة الأولى. طلبتُ منها توضيحها. رفعت قدمها اليمنى. شقَّت نتفة من جريدة الاعلانات. أخرجت قلماً من حقيبتها. كتبت: «ihålighet».

«أعتذر، لا أعرف معناها باليونانية»، أضافت أليسيا، لكنها أوضحت المعنى بإنكليزية مفهومة لي لكلمة الخواء «vacuum».

نهضت أليسيا، فجاءةً. ترجلت عن مدرجات النصب الرخام:

«هيا»، أشارت لي. «قُم. لا بُد من أن أُسكتَ هذا الخواء بسرعة». مسكت بيدي. عبرنا الخطوط الحديد المتعرجة التي تسير عليها حافلات الترام مخترقة كل أجزاء يوتبوري. بالتفافة سريعة أصبحنا في الجزء الخلفي لبناية البازار. تركت يدي. قالت:

«انتظر. سأعود بسرعة».

اقتربت من أربعة رجالٍ سُكارى. كلمتهم. قدَّم أحدهم لها زجاجة كحولٍ. سحبت جرعة قوية من فمها. أعادتها إليه. رفعت لهم يدها تحية وداع. عادت ماسكة يدي بحنوٍّ انثوي: «هيا إلى بيتك»، قالت لي.

«أهذه ظاهرة طبيعية لهذه المجاميع من السُكارى في ساحات يوتبوري، يا أليس؟»، سألْتُها مستغرباً من هذا الطقس الجماعي لمجموعة صغيرة يتحلقون بعضهم حول بعض، يتناولون الكحول جماعة من قنينة واحدة ويُمَزْمزون ثرثراتهم العالية فقط.

«يبدو أنك جديدٌ على هذه المدينة، يا هرميتس. هذه ظاهرة أكثر من طبيعية. ستمر عليها مستغرباً كما سيمرون عليك بمحبة».

صمتتْ أليسيا قليلاً، أضافت: «هؤلاء لوحة بالالوان الطبيعية من بين الأطياف المختلفة لمجتمعنا المسالم. هؤلاء. شهقت، هههههيع. هؤلاء السُكارى الرثُّون أجمل طيف من أطياف أسوج. هل زُرت بناية المتحف الفني للمدينة؟»، سألتْني أليسيا سؤالاً مفاجئاً.

- لا. لم أزرها. لكني سأقوم بذلك عن قريب.

«ذكِّرني، سأصحبك يوماً ما إلى المتحف. هناك لوحة من أجمل لوحاته هي لوحة «السُكارى»، اللوحة الوحيدة في المتحف التي تُشعرُك بسعادة العالَم، وبأهمية هذا المتحف».

«أنا جائعة، يا هرميتس. جائعة إلى درجة أشتهي أن أبلع جسمك الصغير هذا»، قالت أليسيا وهي تفغر فاها كأنها تبغي ابتلاعي مجازاً.

ضحكت من هذيانها الغريب:

«سأُطعمكِ طعاماً شرقياً في البيت. أنا ماهرٌ في الطبخ، يا أليس».

«طعاماً شرقياً؟»، سألتني أليسيا باستغراب. تنبَّهت إلى إني ما زلتُ لم أُفصِح لأليسيا عن أصولي، ومن أين أتيت إلى بلدها المشرعة حدوده لمن هبَّ ودبَّ. تلعثمتُ. شعرت أن الوقت لا يسع في تصحيح مسار الجغرافيا.

- هل أنت من الجزء التركي؟ تقاطيع وجهك تبدو تُركية. إغريقية، يا هرميتس، سألتني أليسيا تنتظر توضيحاً.

ضحكتُ ضحكةً تتوافق وكشفها الجديد المضاف إلى بُرهان تأكيدها، سابقاً، كوني يونانيًّا.

«أشتهي سلطة يونانية بالمكرونة»، قالت أليسيا.

«لا بأس، يا أليس، سأحضر لكِ ما ترغبين، ومن ساريتي ما تشتهين إن رغِبتِ في تسلقها».

تجرَّعت أليسيا النصف المتبقي من علبة الجعة الخامسة. تجشَّأت هواءً مُخمَّراً. قضمت شرائح بطاطا مُملحة من كيس الشِّبْس المتروك على طاولة المطبخ.

أسقطتُ حبالَ المكرونة الطويلة في قدرٍ ملئت نصفها ماء ووضعتُه على عين ساخنة من عيون الفرن الكهربي. كانت أليسيا قد تحررت من بعض ملابسها الشتوية علَّقتها على مشجب الملابس الخشب حدَّ باب الشقة. ضيَّفتها كأساً من الويسكي المهرب من بلاد ماركس ونيتشه. تبادلنا نخباً بنخب. انتبهت أليسيا إلى بعض صفائح الـ (CD)، وبَكرات الأشرطة مدون على أغلفتها أسماء الأغاني والمطربين باللغة العربية:

«أهذه أشرطة لأغانٍ يونانية، يا هرميتس؟ لا يبدو عليها ذلك من الحروف المدونة عليها، أليست هذه حروف العَربَ؟»، سألتني أليسيا

بغتةً مُحدِّقة إليَّ باستغرابٍ وأنا منهمك بإعداد وجبة الطعام. التفت إليها مرتبكاً:

- هي كذلك، أشرطة أغانٍ عربية تركها الشخص الذي كان مقيماً قَبْلي في شقتي هذه. يبدو أنه نسيها هنا.

«خمَّنتُ ذلك من معرفتي بحروف هذه الكلمات من خلال صديقة لي عربية من فلسطين»، أضافت أليسيا.

نقلتُ قدميَّ خطوتين مقترباً التصاقاً خفيفاً من أليسيا. مددتُ يدي مُمسِّداً وجنتاها المحمَّرتين، أنْسيها الكلمات العربية وهذيانها. أغلقتْ عينيها استسلاماً لصعقةٍ من فمي الذي التصق بفمها. فار الماءُ في القدر. ساح على سطح الفرن الأسود. قفزت أليسيا مفجعوعة: «المكرونة المكرونة، يا هرميتس».

رأيتُ حبال المكرونة تنسلُّ من القدر. قفزتُ من فراشي مذعوراً. فاضت أحلام القيلولة عرقاً تصبَّبَ على صدري وبين أصابعي. أجلتُ بَصري في أنحاء الشقة. لم تكن أليسيا في المطبخ الساكنُ بصمته. عادت أغنية فيروز «وحْدُن» تصل مسامعي من أحدى الشقق التي يقطنها مهاجرٌ مثلي من بلاد العربان. زلَّ لساني بكلماتٍ غاضبة على المغْرَم بأغنية فيروز الوحيدة هذه: أليسَ لديك من أغاني الرحابنة إلاَّ «وحدُن»، يا بن العربان؟. سقطتُ بوجهي في حضن الوسادة ألتهمُها عضاً هستيرياً من كابوسٍ نهاريٍّ مُفزِع.

الفصل الثاني

Smörgås   سْمُورگوس

«نلتقي غداً، العاشرة صباحاً، في ساحة «Brunnsparken»، بالقرب من تمثال غوستاف أدولف الثاني»، قالت «ساندْرا»، معلمة اللغة السويدية الشقراء ذات العينين البنيَّتين اللتين تومضان طيبة، منهية يومنا الأول الذي باشرنا فيه ملتحقين، نحن مجموعة من الطلبة في مدرسة تعلم اللغة السويدية للاجئين.

«لا تنسوا أن تجلبوا معكم «شموزْغُوس»، ربما تجوعون. ستكون جولتنا طويلة»، أضافت ساندرا.

لم يمضِ على انتقالي إلى يوتبوري، أو «غوتنبورغ»، التي تقع غرب السويد، ثانية أكبر المدن السويدية، بعد العاصمة ستوكهولم، سوى أشهر قليلة.

سوِّيَ وضعي القانوني، كلاجيء مضطهد، في مملكة السويد، بمنْحي إقامةً دائمة في العام الذي توقفت فيه الحرب. وُفِّرَ لي شقَّة صغيرة، أنيقة، في بناية خُصِّصت لمثْلي من اللاَّجئين الهاربين من أصقاعٍ شتَّى في هذا الكون، الغالبية من العراقيين.

صمتَتْ الجبَهات. أُجْبِرت بلاد فارس على تجرُّع السُم.

هُزِمَ القائد «مُنْتصِراً». هزيمة مُتعالية بانتصارٍ مُتعجرف.

لُبِّسَ القائد بدلة بيضاء يتمسَّح بها أطفالٌ يتامى.

انتصارٌ برائحة «شعواط» النخيل.

ولولة «الانتصار» تتصاعد بُخاراً خانقاً من من حناجر أمهات القتلى.

أنا «انتصرتُ». عثرتُ على منفى شهي، مُعقَّم من آثام الحروب.

تُطِلُّ شقتي على ساحل خليج يوتبوري، بأفقه المديد، العريض، المتلَبِّد، معظم الوقت، غيوماً سوداء، رمادية، تهرُّ مطراً غاضباً يُمزِّقُ بعنفوانه زوابِعَ تقرعُ زوابِعَ. زوابِعُ متناغمة مع ارتطام الأمواج بربِّ الصخور البازلتية الزَّنِخة على طول الساحل الطويل. ارتطامٌ يُهيِّجُ عرق الأجساد، المتلفِّعة بملابس شتوية ثقيلة، من مفاجئات لطم الأمواج المتواصل.

لا رجاءَ يُرْتَجى، لا صلوات، لا قرعَ النواقيس، لإيْقافِ تغضُّنِ السَّماء. يبقى التمَنِّي مسلوخَ الرجاءِ في تغيير حال الطقس المُثلِج، الماطر، بدءاً من شهر تشرين حتى أواخرِ نيسان، أو أكثر قليلاً.

ينزلقُ ساحل «يوتبوري»، متفرعاً عن بحر الشمال الاسكندنافي. أمتار معدودات وأكون في منطقة «Klippan» . اسمُ الساحل، وتعني: «الجُرْف». هي ميناءٌ للسفن العملاقة منهُ تُبحرُ، إحدى سفنه، مساءً إلى مدينة «Kiel»، الألمانية، ويستقبل ساحل «كليبَّان» السفينة العائدة إليه، من «كييل» في التاسعة من صباح اليوم التالي.

تَضيقُ بي الأمكنة الجديدة. تُشاكسُني وأُشاكسُها. انجذابُ طِباعي ثقيلٌ مع كل جديد، لذا أحتاج القيام بمحاولة نجرِ مُشاكساتها بآلةِ نجْرٍ أستلُّها من صندوقِ مِزاجي. صندوقٌ أُجدِّدُ أقفالهُ ومفاتيحَهُ، بعدَ كل رحيلٍ يُفرضُ قسْراً عليَّ.

أنا إبنُ مِزاجٍ لا أعرِفُ من أين ورثتُه أو مَنْ أوْرَثَنِيْه. مزاجٌ صامِتٌ، بلا رغَبات صاخبة، على الأغلب، لكن مرجلهُ يغلي بأشتاتٍ صورٍ: حزنٌ، وثرثراتٌ مُفرحةٌ، في القليل من الأحيان، لكنها، في المُجْمل، تمتصُّ مجهوداً كبيراً من روحي، بانفعالاتٍ مُسْتفَزَّة، مُباغِتة تُخرِجُ

وجودي عن طوره إرغاماً. أما الفَرحَ الشديد، الذي لا يخيبني، فيأتي مُباغتَة، ويتطلَّبُ مني طاقةً لا قُدرةَ لي على احتمالها آنَ ما تتحول، تلك البغْتَة، إلى تشنُّجٍ في عمودي الفِقَريِّ يشدُّ أعصابي ألماً، من مركز الرَّقَبة نزولاً حتى العَصْعَص، كرافعٍ حديدٍ يصعد به إلى كَمال طاقته القصوى. والأمْرُ كذلك عند فجاءة حزنٍ، شديدٍ جداً، يُباغتُني أيضاً، على غير موعدٍ.

ثمت حِزَمُ تفاصيلٍ أُخَرى يتبلبلُ لها قلبي، تفاصيل يصعبُ عليها الانزلاقُ بسهولةٍ على زلاجةَ لِساني.

أدخُلَ منجرتي، بلا تأجيلٍ، كي أنْجُرَ أثلامَ ندوب تلك الطِباعِ المحْرجةِ التي تطل برأسها أمامي قبلَ أن تنقلِب ثآليلَ من حماقةَ ما يُسمىَّ بـ«الأمر الواقع». أما مرحلةُ الصَّقل، فأتأنَّاها، ريثما أُعثرُ على آلاتها التي يتطلبُ أن أقتَفي أثرَها من المكان الجديد.

استناداً على هذا المزاج، أحتاجُ وقتاً كي أتآلفُ مع يوتبوري، حتى لا تتشابك عليَّ الأمور بفوضاها واستكاناتِها.

خجلي، أحياناً، مُرعبٌ لي. أنا في عالمٍ كل ما فيه من حولي جديد. عليَّ أن أُجاهِد، ولكي أُجاهِد عليَّ أن أحْلَم كي أُمسِكَ بكرَمِ المكان الجديد وأتناسى كوابيس السنوات الماضيات.

ستُنبئني الأقدارُ: «لجوؤكَ لا بَطَرَ فيه، ولا هو مُصادفة عمياءَ».

«إذن، ها أنت الآن، في مدينة بحرية، يا سليلَ مدينة نهرية». وشْوشَتْني نفسي في آخرة الليل، مُلْقياً بجسدي على فراش السرير. فتحت الوشْوشةُ عينيها على وسْعيهما: استتبَّ أمْرُكَ، أيها اللاجئ الجديد. وجودكَ مَجازاً.

كتبت على ورقة صغيرة كلمة «Smörgås»، باللغة السويدية، كي لا أنسى توصية المعلمة ساندرا. هي من بين أولى الكلمات السويدية التي تعلمتها. وضعتُ الورقة على الطاولة المحاذية للسرير.

السمورغوس: «الساندويتش»، كلمة احتار عباقرة العربية في ترجمتها إلى لغة الضاد فلم يجدوا إلا تفسيراً جللاً لها: «الشاطر والمشطور وما بينهما».

لا يستوعب سريري غضبي وأنا أرمي بجسدي مُسْتَنْفَراً.

لا يستوعب الشباك أغلاقي له. الستائرُ يُغيضها هواء البحر.

تركتُ الوجود، في الخارج، يتسلى على مزاجه.

فركتُ رأسي بأسىً. شعري مُزيَّت. هل استحممتُ اليوم؟

نظرةٌ إلى السقف الأبيض الصقيل، بين إغفاءةٍ وصحوٍ أعادتني إلى استعراضِ بعض لقطاتٍ من جولة الصباح صحبة المعلمة ساندرا، وبقية تلاميذ صفي.

أقرأُ في رواية سالنْجِر: «الحارس في حقل الشوفان»، الرواية الوحيدة التي تنقَّلت معي حتى وصولي يوتبوري.

وسادتي ناعمة، وريشها فُقهاء أحلام.

جفناي يتراقصان شهوةً إلى إغماضةٍ تُزيحُ ضجرَ مزاج الوحدة البارد. فركتهما، بسبابتي يداي، محاولاً أن أُخْرِجَ بخيالي منعطِفاً ما بين السقف، وصفحات الرواية.

تقلبتُ أرِقاً.

تراءى لي غوستاف الثاني بهيًّا في بدلته العسكرية، لا أدري، ربما هو استعراضٌ، استباقاً لبعضِ الأسئلة المتوقع أن تطرحها ساندرا.

سقف الغرفةِ بدا برونزياً لحظتها، نياشين غوستاف الذهبية، فقط، كانت تلتمع، أما بقية جسده البرونز فقد خرجَ من الشبَّاك واختفى في لُجَّة البحر.

يَأسِرُني النومُ مستلقياً على ظهري كأني بي أسْترجِعُ تفاصيل بعض ذكرياتٍ، اجتراراً كالأحلام تموجُ أمامي على ستارة النافذة البيضاءَ المتعرِّجة كشاشة سينما.

أحلامي لا أقتفي لها أثراً. تذوبُ كشمعةٍ. هي تتماهى على المخدة إنْ أدرت جسدي ذات اليمين، أو الشمال. ما زلتُ أحتفظُ بعادةٍ حيث أحشر كتفي اليسرى تحت رأسي ساعة المنام.

هذيانٌ يُمهِّدُ الفراغَ إلى خيلاءَ الأحلام. موسيقى هادئة، لا أعرفُ مصدرها، تتقافز على سلالِمَ تتكسَّر عتباتها كتكسير الجوز.

«ساندرا، هل كان غوستاف ملكاً أم إمبراطوراً؟»، سألتُها ونحنُ ندور حول تمثال الملك، أتأمَّلُ سبابته التي يُشيرُ بها إلى الأرض.

«هل يُحيِّرُك أمرهُ، إنْ كان ملكاً أمْ إمبراطوراً؟»، أجابتني ساندرا بين لجَّةِ سؤالٍ آخر أتاها، بغتةً، من زميلي الأفغاني «صدِّيق»:

- إمبراطورٌ أمْ ملكٌ دِكْتاتور؟!

شمَمْتُ رائحةً غريبة. بخارٌ يُتَهْتِهُ فيخرجُ من لساني كتمتمةً مُنتحَلة: دِكْتاتور دكتاتور. درتُ مع دورة السقف هابطاً سُلَّم التعب والنعاس الذي يُناكفُ مسالِكَ الغيبوبةَ الطرية المؤقتة مغلقةً خلفها بابَ اليقظة، سابِحاً في بحرِ سُحب مُريَّشةٍ بهمسِ كوابيس تُؤنسها الثرثرةِ في فضاءِ أحلامي.

رطانةُ المخيال تطنُّ في رأسي:

- بماذا يُملأ باطن تمثال الملك؟

- بالأشباح. الأشباح خُدَّام الملوك

غيَّرَ الرئيس صدَّام بدْلتهُ البيضاء؛ رئيس تُلاحِقُني شهوةُ انتقامه منذ ما قبلَ مُغادرتي البلاد بأعوام؛ منذُ أن كان نائباً للرئيس؛ منذ أن قال لنا، وحتى من دون أن يقولَ، فهو ليس بحاجة أن يقول، هو ينظرُ، فقط، كأنه يقول: «عليكم أن تتعودوا عليَّ، أن تتقبَّلوني كما أنا. إمَّا أن تتعوَّدوا أو تموتوا».

صفَّر مهتاجاً:

- أيُعقَل: عُلب كبريت نستوردها، وهُم يستقبلون منَّا مُعارضين!

ردَّ وزير الصحة: هُم فاسدون وليسوا مُعارضين، سيدي.

- سنوسِّع من استيرادنا منهم. لا تنسى شاحنات «سْكَانْيا»، سيدي.

- هذه بلدوزرات وليست شاحنات. قهقه الرئيس.

وكعادته، ها هو الآن أراهُ، كما كنتُ أراه؛ ويراه الجميع يُبْدِّلُ عُربَهُ الذي لا يراه، داخل مقصورة عربته، بأخرى لا تشبهُها. رصَّعَ هيبتَه أكثر حضوراً بتثبيتُ تاجٍ وسيفين متقاطعين على كتفيه. بدلةٌ إمبراطوية التصميم، بلوْنين متناقضين: أبيضَ جهة اليمين، وأسودَ جهة اليسار.

ترجَّل صدام من عربته المهيبة، المذهَّبة، ذات السقف الجلد السميك الطبقات، سقف دُبِغَ من جلود أشرس حيوانات أفريقيا، تجرُّها ستةُ أحصنةٍ بنِّيَة اللون، زُيِّنَت بطبقة أخيرة من جلد التماسيح المرقَّطة بحوافرَ تلمعُ فضَّةً مُجلَّسة على حدواتٍ رفيعة، مُسنَّنة كنصالِ سيوفٍ مشرومة الألسنة تقطعُ، بسهولة، من يُهاجمها.

حوَّم صدام، حال تركه عربته، حول نُّصُب غوستاف أدولف، بفضولٍ مُتقلِّبَ المزاج. نقَّلَ بصره بين الجهات التي تُسوِّرُ نقطة ارتكاز التمثال.

وقفَ صدام مواجهاً الملك غوستاف.. مسَّدَ شاربيه الأسودين الكثَّين. المصابيح المشعَّة على أعمدةٍ مرتفعة حول قاعدة التمثال، أظهرت الدكتاتور بأحلى هيئةٍ، مَهيباً، مُجلِّساً، بإتْقانٍ لا يزيد ولا ينقُص، بدلته العسكرية بلونيها الأبيض والأسود. تباهى ماشياً، بقامتهِ الطويلة بصخبٍ مفتعَلٍ، حول النُصُب. وبطبعه المتعجرفً، كشَّر عن أسنانٍ سبقتها ابتسامةٍ غريبة تلتها قهقهة قوية هوتْ كصهيلِ حصانٍ مجروح، ارتجَّ لها نهر «غوتا إيلف» الذي يشقُ مركز يوتبوري طولاً.

أُخْرِجِ صندوقٌ خشبي، من العربة الذهبية، وُضِع وسط ساحة البئر. فُتِحَ الصندوق وأخْرِجت منهُ أُرْجوحة ذات مقعدٍ واحد تتدلى عن جنبيها سلسلتا حلقاتٍ حديدٍ متشابكة رُبِط كل طرف منها بعمودي الإنارة المجابهين للتمثال.

جلس صدام على الارجوحة مواجهاً تمثال غوستاف. تأرجحت الأرجوحة بجسده بخفَّة، ضربَ بقدميه، ضربة خفيفة، قاعدة التمثال الرخام. اندفعت الارجوحة اندفاعة أقوى للوراء. رغب أن يرتفع أكثر. أشار إلى مرافقه، رافعاً كلتا يديه إلى الأعلى، يحثُّه:

- ادفع، «حْمَيِّدْ» أكثر. ادفع ادفع.

مسالك جبروت صدام أراها تزحف ببطءٍ إلى حيث أقفُ عند المدخل المسقَّف لبناية مجلس المدينة الواقع خلف النُّصْب، تجنباً لنثيث الثلج. إنه يقترب، يجرف بقدميه الحجر القرميد متطايراً. لا مهربَ. قدماي جمدتا، مختنقاً اختناقاً يكظمُ صوتي المتحشرج في حنجرتي.

ازددتُّ غيضاً من المشهد الواضح بنوره الساطع على بياض الثلج الزاحف على أرضِ الساحة. أنا أسيرٌ، من جديد، في قبضة الطاغية. مساحة حريَّتي تتقلَّص.

أين أهرب؟

الطقسُ المثْلج فرمَلَ يأسي من الهرب. مُفرِّج مرعوب أتلصَّصُ من خلف أحد الأعمدة على مسرحية كاريكاتورية . تراجيدية تُعرض في الثلجِ الطَلْق تحت سقفٍ من الغيومَ الحالكة الرماد مائلةً إلى سوادٍ نازلٍ من جمرِ سماءٍ زئيرٍ فتحت فمها كفمِ أسدٍ دخل المدينة تائهاً .

هوَّن عليَّ عماء صدام الذي لا شاغل لديه، لحظتها، غير العِنادِ الذي ركبه مُفسَّراً من خلال تصرفاته رغبته أن يحلَّ محل الملك غوستاف.

استجمعَ «حميِّد»، مُرافقُ صدام الأمين كظلٍّ آدميٍّ يرصدُ الأخطار غير المتوقعة بأقصى مدى من طاقته المقتدر عليها. وضع كفه اليسرى على ظهر صدام، أتى باليُمنى ووضعها على مركز سنْسول القائد المستأنس في جلوسه على الارجوحة. استثار قوته، ودفع وسْعَ طاقته. ارتفع صدام إلى حيث غوستاف المنتصب جسداً مربوعاً. حاذاهُ، فأمسك بيده اليسرى، ألصقَ فمه بأذن الملك:

«أيُعقل، يا سيادة الملك غوستاف، تُقايضونا بعلبِ كبريت مُقابل أوادم؟».

«الإنسان عندكم أبْخس رأس مال»، ردَّ غوستاف.

فار في دم صدام استفزاز الغريب:

«عليكَ أن تترجل عن هذا المكان، يا سيادة الملك غوستاف. هذه الوقفة تصلُحُ لي، وهذه الساحة من اليوم أنا زعيمها».

ويحسبونَ الشخص القاهر «نَغْلاً»، فكيف بذاك الذي خَدَمتْ أمه في قصرِ أول ملوك الرافدين؟.

أقْسَم أن يذبح رفاقه: «خُذْها من هذا الشارب».

عرقٌ يتصبَّب من جسدي. لا تفتح الشُباك. غربانٌ تملأ الإفريز.

ذُهِلَ غوستاف من مرآى الشبح اللاأليف بسحنته السمراء، مُهدِّداً بإشهارِ سبَّابته اليمنى بوجه مَلِكٍ مُسالم.

تنهَّدَ صدام تهيدةً خفيفة عُجِنَت ببخارٍ رصاصي أعقبَتها قهقهة استهزاءٍ، بوجه الملك.

لم تستفِزَّ غوستاف تلك الضحكة الخافتة. ارتسمت في وجهه نظرة استغرابٍ مِنْ هذا الذي داهمَ المكان بلا استئذانٍ.

همَّ مَلِكَ أسوج بمسح ذاك الإصفرار المرتسم على قسمات رئيسٍ محشوٍّ بثرثرةٍ من سُلالةٍ بدوية. قسماتٍ مُرْتجفةٍ ارتجافَ اليائس من طلبه. أعادَ يده كما كانت متطبِّعةً على مكانها بسبابته التي تشير إلى أرض البئر.

«لن ننسى، يا سيد غوستاف، أن رجالكم الفايكنغ الطَنَاطِلةَ قد دنَّسوا أرضنا. هل تمعَّنْتَ جيداً بتاريخكم؟ هل أنبأتْكَ شواطئ «طريدون» كيف شقَّت سفن أجدادكَ الأجْلافِ عبابها؟».

«أبحثُ عن عراقي ساكن في الشارع الثالث الطويل، أرغبُ بزيارته».

ازداد عَرَقي تصبُّباً. ظمأٌ مُملَّح بقشعريرة جَعْلَكَ ملاءة السرير. تقرفصتُ.

ارتفعت نبرة الشبح صدام. تأرْجحَت قدماه بثقلٍ مخيف. ضَبابٌ تنزَّلَ من علياءِ غيومٍ مبقَّعةٍ برطوبةِ البحر. غيومٌ ترعى نجيلِ الظلامِ،

تخنقُ أيَّ خيطٍ مُرْتجى من شهوة الشمس. نثيثٌ من ثلجٍ خفيف تساقط، أمام نُصب غوستاف، إذ بدا مستغرباً من دِكتاتور، تتطاير من زغبات فمه غمغماتٌ عن وعْدٍ يبغي استرجاعه.

مددتُ يدي على ذُبالات شمعٍ أُذيبُ لسعة بردٍ.

تقدَّم حميِّد، من صدام، خطوتين، رفع المظلة الشمسية يقي بها رأس سيده من ثلج غطَّى النياشين وجمَّد شاربيه.

الجياد الستة التي تجر عربة الرئيس الذهبية، أصابها النصيب الأكبر من نثيثِ الثلج. ثلجٌ تراكمَ، ثقيلاً، على سطح العربة. زفرت الجيادُ زفيراً مسموعاً من مناخيرها نفْثاً بُخاراً دافئاً من روح رئتيها؛ نفْثاً بدا خافتاً أول الأمر، ومع اصطكاكِ رُكبِها، يرتفعُ صهيلها كلما خبطت بحوافرها حجر أرض ساحة البئر.

«ماذا تفعل هُنا؟»، سألتْني ساندرا.

«أصادفَ أن التقيتِ دِكتاتوراً جميلاً؟ انظري إلى ذاك الذي بالقرب من تمثال الملك».

«يبدو مُدهشاً»، علَّقت ساندرا.

«سأخطُبهُ لكِ. هل تتزوجيه؟».

«هذا مكاني، يا حضرة ملك القراصنة»، أكَّد صدام طلبه من جديد، بعجرفة بدويَّة تتطايرُ من اهتزازِ سبابته الضخمة الممسوحة الأظفَر.

«لا فايكنغ لدينا اليوم، يا حضرة الرئيس»، ذاك الشاعر، الذي ذكَّرك بهم، يهذي. علَّق غوستاف على طلب صدام، الشبح المتشنِّج بكامل أعصاب قيافته.

«إنكم تُهينون أبنائي الذين لجأوا إليكم»، قال صدام لغوستاف الثاني.

صدمةٌ عجبٌ ارتسمت على وجنتي غوستاف:

- نحنُ نوفر لهم الأمان هرباً من بطشك، يا سيادة الرئيس؟ ردَّ غوستاف محاولاً تقليبَ جوهر الإهانة، مستفهماً بإشاراتٍ استغرابٍ وتعجُّبٍ نطَقتْها حركات يده اليمنى، راسمةً في الفراغِ الهواء نصفَ دوائِرَ تتراقَصُ على علاماتِ تَعجُّبٍ من تُهْمةٍ لا منطق لمعناها.

«الطعام قبلَ الأمان، هو مبدأنا في الحياة، يا حضرة ملك القراصنة»، قال صدام لغوستاف رداً على استغرابه من موضع الإهانة التي اتهم بها الملك المربوع القامة من أكل لحم الخنزير المقدَّدِ.

- لا تنسى السمورغوس، يا هرميتس. هل أنت، أيضاً، من جماعة اللحم الحلال؟ سألتني ساندرا، وهي تبتعد مختفية بين أعمدة بناية البلدية.

«إنكم تُطْعمونَ أبنائي «السمورغوس»، فقط، وهذه إهانة لنا ولهم. هم معتادون على الأكل الدسم. هل جرَّبت الباقلاء بالدهن؟ هل أكلتَ المسموطة؟»، قال صدام، باسطاً أمام غوستاف توضيحاً غاضباً، مُفَخَّماً من حركة كفه اليمنى دوَّرها على كرشه.

خنستْ، قليلاً، جياد عربة صدام الذهبية بعد أن أحست بهياج وغضب سيد العربة الطويل القامة أسمرها. ماجت قليلاً. تحملت الجياد قسوة الثلج تفضيلاً عن السياط التي يُطعمها حين غَضَبٍ يركبه دون سابق إنذار:

«حُصُنٌ مَنايِك. حصنٌ مركوبة، مخنوثة»، يصرخ صدام بوجه جياده ساعة غضب، يتلذذ انتقاماً حين لا يجد إنساناً يُعاقبه، فتكون الجياد حصته.

عاد صدام يُناكِف غوستاف:

«ماذا تُطعِمون جيادكم، يا حضرة الملك غوستاف؟ هل تطعمونهم السمورغوس أيضاً؟»، سألَ صدام المِلِكَ الاسكندنافي، سؤالاً تهكُّميًّا معجوناً بضحكةٍ هَريرٍ غصَّت بها حنجرتهُ فتقارعت حبالها تقارُعاً رطِباً من أثرِ تبغِ السيكار الكوبي المدمن عليه، هدايا ثمينةٍ من صديقه الكوبي كاسترو.

ابتسم غوستاف الثاني ابتسامة المستعطف على كبرياء صدام الفجّةَ - كبرياءٌ فسرَّها الملكُ إهانةً مبطَّنةَ بخبثٍ مُندسٍّ كابتسامة ثعلبٍ أهْوَج، حفر ببراثنِهِ المسمومة طعنات الغدْر على قلبه.

انزلقتْ يدُ صدام، فجاءةً، عن يدُ غوستاف. ترنَّحَت أرجوحته، ترنُّحاً خفيفاً، كقطعةِ مطَّاطٍ في الفراغ الثلجي.. هاجَ. فارَ الدمُ في شرايينه المعجونةَ بغضبٍ بدويٍّ. امتقعَ وجههُ بصبغةٍ سوادٍ. استوى غَدْرُهُ مدىً لا رجعة فيه عند فهرنهايت الإنفجار.

أمر صدام غوستاف الملك، يائساً من انتظار الرد، متجاوزاً صيغة الاحترام بين رئيسٍ ومَلِك:

«أنْزِل من مكانك، يا مَلِكَ السمورغوس، لو أطُرَّك نُصِّيْن».

زادَ صدام من تهديده لغوستاف الملك، بنبرةِ عجرفَةٍ، مترجماً جملته الأخيرة بإشارةٍ من يده، كأنها تحملُ سيفاً استلها من غِمْدٍ مُرصَّعٍ بِحلقاتٍ ذهبٍ .

لم يتأرجح غوستاف عن مكانهِ. تنهَّدَ تنهيدة استياء. استدارَ بخدَّه الأيسر، ثانيةً، إلى حيثُ يقع البناء التجاري «الفيمَّان»، غيرَ آبهٍ لنبرِ الوعيد الذي نفثهُ صدام زُعافاً من أنْفاسه. أعادَ سبَّابة يدِه اليمنى إلى موضعِ إشارتها السابقة، نحو النقطة الأرض وحيثُ ما تُحيلهُ السبابة إلى معنى الرؤيا: «هنا»، بعد تأرجحها قليلاً، بسبب هجوم صدام المباغت.

فضح نثيثُ الإنارة المنزلِقِ على الساحة ملامح العجرفة التي تثاقلت على وجه صدام، بعد الزَّجْرِ المؤدَّبِ الذي لاقاه من غوستاف؛ ملامِحَ كأنها علاماتُ خَمْشٍ لانكِسارِ تيسٍ مهزوم لا يُريد أن يعترف بنكبتهِ.

المماحكة التي بدت مساراتها قد أُغْلِقَت كسرها صدى صوتٍ من مُقترحٍ ارتطمَ في الوميضِ النعسان الذائب على أعمدة المصابيح. مُقترحٌ تموَّجت جَلَبَتُهُ حال دورانه حول مُربع الساحة، وأُخْرِسَتْ عنده ثواني الصمت، جمَّدت مشاجب الحرب الكلامية الناشبةُ بين رئيسٍ من أقصى الشرق، وملكٍ في أقصى الإسكندناف القطبي:

- صدام، لخاطر النبي، خَايِبْ شْمَالَكْ. فاوضْهُ، فاوض هذا الملك، فهو يفضل الدبلوماسية على كلام مُتعجرف.

- هلو. ماذا تفعل هُنا، يا هرميتس؟ باغتتني أليسيا، واقفة وراء ظهري.

- لا تلقِ بالاً إليه، يا هرميتس. هيَّا، إنك ترتجف.

«لننتظر قليلاً»، أجبتُ أليسيا.

التفت «صدام» التفاتة المتفاجئ من هاتفٍ نزل عليه كبرْقٍ من وحي فراغٍ يلفه ضباب الورطة التي وجد نفسه فيها بلا مَخْرجٍ. صوتٌ هاتفهُ فمَزَّق شغافَ قلبه ورَجْرَج طَبْلَتَيِّ أُذُنيْه.

نصفُ دقيقةٍ وأنصافُ ثوانٍ استغرقت التفاتات صدام من حيث انطلقَ الهاتفُ عن مصدرٍ لا معلوم. صوتٌ تماوجَ في الفراغ. تأوَّهَ تأوُّه الغارق في ورطته، بعد نفسينِ ابتلعهما دُخاناً من سيجاره الكوبي. أحسَّ أنهُ استنفد طاقته التي قعقعت لها بصيرتهُ غضباً، في هجومه المباغت بدايةً:

- حَسناً، يا سيادة ملك الرنَّة، وسليل شعب السامِر. فلنتفاوض كنِدَّينِ، أو كزعيمين، إنْ شئتَ.

فاجأ صدام غوستاف بهذا التغيير الغريب قرأهُ تراجُعاً من رئيسٍ يدهُ والسيف.

«هات مقترحاتك، وشروطك التي خبأتها لساعة حشرتك هذه، يا سيادة رئيس بلاد ميزابوتاميا»، ردَّ غوستاف على ثرثرة صدام المفاجئة غيَّرت دفَّة المماحكة الكلامية الملغَّمة بعنجهية رجل كمَنْ يحمل سيف سيرفانتس.

«هو شرطٌ واحد، لا غير»، قال صدام لغوستاف. طرحَ صدام شرطه على ملكِ الأسوجيين بطريقة الواثق المتعجرفِ قائلاً:

«أن تُنصِّبني ملكاً، ضيفاً، إلى جانبك، في مملكتُك هذه التي حقد عليها الله، وجعلها أسيرة لرحمة الشمس. مملكةٌ مثْلجَةً ترتجفُ فيها حتى خرزات الخصيتين».

«لا أفهم سببُ إصرارك هذا، أيها الحاكم لأجمل بلدان الشرق»، ردَّ غوستاف على لجاجة صدام.

نقل صدام تهديداته بتعاقب ذكي قصْدَ الإيقاع بالملك الغوتبري، بأساليب النغولة المتمرِّس عليها:

«إنك تظلم أبناء شعبي، يا سيادة الملك. أين يا تُرى يُعلِّقون قِطَعَ نذورهم عند الشدَّة؟».

«ما الذي تقصدهُ بالنذور، يا سيادة الرئيس؟».

«ألْعَلَگْ ألْعلگ»، أجابه صدام.

أبدى غوستاف امتعاضاً صامتاً، فاركاً شاربيه حيث ازداد الأمر عليه التباساً.

«حسناً، يا سيد غوستاف، سأُكثِر منهم، سأُغرقك مملكتك بهم. ستخنقكم حُسينياتهم. شعبي مُدمِن حُسينيات».

«حُسيْنيات؟! ماذا تعني هذه الكلمة، يا سيادة الرئيس؟».

- انتظر. ستختنقون بها، بلطْميَّاتها، بِقاماتها وزناجيلها. سترتعبون من شعائر التَشابِيه، وسيتخيَّلونكَ أصحابها أنكَ أنتَ «الشِّمِرْ»، سنورِّد لكم عقائد مُعتَّقة، مُعْتقلة لدينا. لم تنتهِ الحرب. رد صدام على امتعاض غوستاف العنيد.

جلجَلَت الساحة قهقهاتٌ قوية خرجت من فم غوستاف. أجْفَلت الأسديْنِ المنتصبين على قاعدتين من رُخام الأزَل أمام نهر غوتا. خلخلَ زئيرهُما جسد الرئيس الغريب، كما رجَّفت سُرُجَ الجياد الستة التي تقود عربة صدام.

فضحت قهقهات غوستاف، تلك، الفراغَ اللامعنى في عيني دِكْتاتور بغداد، فراغاً لم تُسْتِرهُ حتى أناقتهُ الصارخة.

ابتسم غوستاف، من جديد، دون أن يرد على مقترح صدام. فَرْمَلَ، ببطءٍ شديدٍ، قهقهته.

«مُصادفة غريبة. ما شأنك وهذا الغريب؟»، سألتني أليسيا.

«هي الصدفة فقط»، أجبتها.

«اقفز. هيا نقفز، يا هرميتس».

«إنه يُطالب بِي. من أخبره بمحل إقامتي؟».

عادت أرجوحة صدام فانزلقت بقوة إلى حيث يقف حميِّدْ. ارتطمت به فسقطَ أرضاً على بلاط الساحة القرْميدي.

الناس يدوسون على ظلِّه من دون ردةِ فعل على خطواتهم. إنهم يسيرون لكنهم لا يصطدمون بشيء.

أفْزَعَني تراقُصُ ديدانٍ على أرض الساحة. ديدانٌ صفراء ، مَلْساء خرجت من أُذُنيِّ صدام. ديدانٌ بحدود خمسة سنتمترات طولاً برؤوسٍ قنزعات تتمايل على أطرافها.

تركَ حميِّد المظلة تسقط من يديه محاولاً جمع الديدان دِرْءاً للفضيحةِ، فنهرهُ صدام:

«اتركها، هذه الديدان، يا حميِّدْ. دعها تتكاثرُ هنا فتغدو طاعوناً يُقلِقُ الملكَ وشعبه، وغُرَباءهُ ممَّن رفَسوا نعمتي، لعنة الله عليهم. خليهم عايشين على السمورغوس».

غصَّ بضحكته المميَّزه: «هِعْ هِعْ هِيييييعْ».

ذاب ما تراكم من ثلج على جسد صدام. تحوَّلَت، شيئاً فشيئاً، جهة بدلته البيضاء إلى لون داكن، رمادي، حتى تماهت، بشكل متماوج عجيب، مع الجهة السواء، جهة اللون على حقيقته.

لم أستغرب من لا جوابٍ لسؤال أرَّقني لحظتها: ما الذي جاء بصدام إلى هنا؟

كثيراً ما أتساءل، أو أَسْأَلُ أحداً ما. ربما أسأل نفسي، أو قد أسأل الهواءَ، أو الشكوكَ التي تَتَشَمَّمُ الحقيقة من تحت إبْطِها، غيرَ معنيٍّ بالجواب، في كل الأحوال. لا جوابَ يُترْجِمُ السؤال على بديهته. لكلِّ سؤالٍ إجابةٌ تحمِلُ مأزقَ السؤال في مكنونهِ. لا إجابةَ لسؤال يستنسخُ سؤاله على غير حجةٍ. ولكلِ جوابٍ شقاءُ سؤالٍ في ذاتهِ.

«لماذا أنت هنا، يا هرميتس؟ هل يعنيكَ شأنهُ؟»

لا جوابَ، وبماذا أُجيب أليسيا؟

حتى بعد زمنٍ يمضي بي، إلى مصادفاتٍ بشرٍ وصلوا إلى هنا يحلمون أن يعثروا على جوابٍ لسؤالٍ أبادرهم به:

«لماذا أتيتم إلى هُنا؟».

هل أعثرُ على جوابٍ لسؤالي نفْسي: «لماذا أنا هنا؟». حتى وإن عثرتُ على جوابٍ، فسيكون عارياً عن قناعته.

قد يُسأل من يسألَ سؤالاً، ولا يسأل من يُسأل: «لِمَ يَسْأل؟».

أنا أعرفُ لِمَ يُطاردنا، صدام، حتى حدود شقاءَ منفانا، فلماذا أسأل، ومن أسأل؟

ما المسافة بين مَنْ يَسْأل، ومن يُسْأل؟

لَعْنَتَهُ تُلاحقُنا. هل يخافنا؟ مِنْ حقي أن أَسْأل، مثلاً: كم ملحاحاً هذا الرئيس الذي يستغرب من أكل السمورغوس، حين يعود ليسأل رفاقه باستهزاءٍ فاضحٍ، المقصود منهُ إهانَةً من خيالهِ المريض:

«ماذا يأكل العراقيون في السويد؟»، فيجيبه رفاقه في القيادة وعلى رأسهم طارق حنَّا: «سمورغوس سيدي»، فيقهقه بخُبثٍ مُمْتزجٍ

بشماتة أحمقٍ يتلذَّذُ بكُره من لا تطاولهم يداه: «قه قه قه». قهقهة قد تُفلِتُ نطاقه العسكري المتهدِّلِ تحت كَرْشه.

جفلتُ. لم أقرأ على وجوه السائرين في ساحة الملك غوستاف أيَّة ردود أفعالٍ غريبة. حمدتُ القَدَرَ، أن الوقت شتاء، وإلاَّ لفضحنا صدام.

أفترِضُ لو كان الفصل صيفاً، حيث جمهرة العشاق المتحررين من حيائهم منتشرون حول التمثال، سيُرعبهم الطنطَل صدام، سيُرعِبُ تلك الجمهرة من ذكورٍ وأناث مُمدَّدينَ على مدرجات نُصُبِ غوستاف يحتسونَ بيرة «هينكن»، ويتمزْمزونَ قبلاتٍ معجونة بأنينِ رغوة الجعة.

توقفت الارجوحة هادئة بسلاسلها الحديد بعد زعيقٍ خفيف. لم ترتطم الارجوحة بأحد من العابرين الساحة.

هشيمٌ عظامٌ تطاير من انفلاق رأس الغريب فجاءةً.

نظرتُ من وراء شباك غرفتي. غربانٌ سودٌ مثل نافورة حُشِرَ ماؤها بارتفاعٍ غريب تطايرت من على إفريز الشباك صوب ميناء يوتبوري. أمطرت السماءُ غرباناً كُثُراً، فسقطت في البحر. سوادٌ من ريشٍ غطى الماءَ.

الفصل الثالث

هذيانُ القُبَل

اليوم هو السبت. لا دوام مدرسياً. عطلة نهاية الأسبوع في كل هذه المملكة السخية باستقبالها للبشر المضطَهدين. مملكةٌ شاسعة بمساحة تتجاوز الـ 500000 كيلو متراً مُربَّعاً، والفقيرة سكانياً.

تقلَّبتُ في سريري تقلُّباً كسولاً، متردداً بين النهوض أو البقاء في الفراش الدافئ. فركتُ عيني فركاً خفيفاً ووضعتُ عليهما نظارتي الطبية التي لا تُفارقني. نظرتُ إلى سقفِ الغرفة الأبيض بياضاً أملسَ. لا ثقوبَ عليه. لا غُبارَ، سقفٌ حر إلاَّ من الصحن الزجاجي الأصفر الذي يُغطي مصباح الغرفة المتدلي من منتصف مركزه.

فكرتُ في أليسيا: تُرى ماذا جرى لها بعد أن تركتها، أمس، مُمدَّةً تحت نُصب الملك كارل التاسع؟ ستأتي سيارة الشرطة وتحملها، كالعادة. عرفتُ هذه المعلومة لاحقاً. التقاط السُكارى من الشوارع وإيصالهم إلى بيوتهم هي إحدى مهمات رجال الشرطة هنا.

من عادتي النهوض باكراً. يومي مُنْتَظمٌ، تقريباً. أستحمُّ باكراً. أفطُرُ باكراً. أُرتِّبُ شقتي باكراً. أنا مُدخِّنٌ، لكني لستُ من الذين يُعطِّرون ريقَهُم تبغاً لحظة الاستيقاظ. لا أُشْعلُ سيگارتي الأولى قبل الإفْطار، حتى وإن احتسيتُ فنجان قهوتي باكراً التي أُهيِّئها قبل الاستحمام.

قهوتي، هنا، اختلف مزاجها وطريقة تحضيرها. قهوتي سويدية، الآن، أحضرها في الجهاز الكهربائي: «Kaffebreggare» الذي أراه، لأول مرة، هنا في مملكة أسوج.

نهضتُ بتثاقُلٍ مكسورَ المزاجِ حُزناً على السكِّيرة أليسيا. سرحتُ أنظر، من شباك شقتي، إلى حيثُ البحر القريب. هدوء أخرسُ يفرشُ الساحلَ والصخر. سطح الماء يميل إلى الانجماد.

اختفت النوارس البيضاء.

من ماذا تشتكي، هذه الطيور الخُرافية بزعيقها الخُرافي؟ ها هي تقبع، بعيدة، في الجانب الآخر من الساحل، أو تقف خرساء على الصخور السوداء العالية تتناثر حولها بيوتٌ خشبية بسقوفها القرميدية المقوسة.

مراكب، وقوارب مركونة، على الساحل، مستسلمة لصفعات الأمواج، تلوكُ صمتها الأخرسَ، تركها أصحابها القادمين من مدن أخرى.

سفينة المسافرين العملاقة التي تتوقف في الميناء المقابل لبنايتنا مُبحِرةً من سواحل الألمان لم تصل بعدُ، وهذا يعني: لم تصل البضائع المهرَّبة سراً في هذه الباخرة.

ثلاثةُ أشياءٍ تص مُهرَّبة، في السفينة، من ألمانيا، كل يوم: بشرٌ جُدُد مُهرَّبين قاصدين اللجوء. كحول مغشوش، على الأغلب، الذي يُصْنَّع ويُباع في ألمانيا، «القَاتْ» حشيشُ اليمنيين المفضل، يُحسب، في السويد مادة مُخدِّرة لذا يُمنع تداوله علناً.

انفضح أمر التهريب حين أُلقي القبض على شغيل يمني، عامل على متن هذه السفينة، مُتلبِّساً بقضايا التهريب هذه.

طالت وقفتي عبر الشباك أنظرُ إلى البحرِ نظرةً عجيبة فيها الكثير من القسوة بسبب ذكرى شخصية لي مع هذا البحر الغادر الذي كاد يبتلعني مرَّة. بحرٌ يُغوي المرء فترتدُ الغواية، أحياناً، على الساقط في كمينها مآسِيَ من ضربة البحر.

ربُّ الطوفانات هو البحر. يشفطُ أرواحاً، وينسى. يغرفُ سُفناً، ويرفعُ نخبَ مجازره العمياءِ وينسى، ثم يُنادي: هل من مَزيد، وينسى.

ها أنتَ أمامي، ثانيةً، أيها البحر. من أين لكَ كل هذا المِلْح؟ كل هذا الموجُ الطافحِ تؤرِّخُ به سِيَرَ الذين انتحروا في غفلةٍ من الريح أو في غفلةٍ من ثرثرة حُب البقاء؟ وبكل احتدامِ موجِكَ تقضُّ بعنفوانِ جسارتك مضجعَ القوارب الشفيعةً التي تأتمِنُ جرفك.

بيني وبينك الجرف. بيني وبينك أبوابي المخلَّعة الأقفال فلا تُعلِّق عليها آمالكَ.

ستمرُ الأرواح المثقلة بالهزيمة؛ المثقلة بالحروب، وشظايا الخبز المُرِّ.

ستمرُ، رغماً عنك، العوائل المدجَّجة بمخدَّات الإنقاذ الإسفنجية. أطفال الزهور بلا آباء وأمهات يمرون صوب شرفات جُرفي، فلا تقترب مني.

أخافُك. أنا ابن نهرٍ. أعرفُ أنين أمواجك بقسوةٍ تصدُّ من يقضُّ هَدْأتَك. وسيمرُّ من لم يختبرك بعدُ.

مدُّكَ هَلِعٌ تحتالُ على السابحيَن فيكَ، وتهذي. تلوي عنقَ من يمخُرُ عبابك بضجيجٍ من عواصفك الملحية، وضجيج حيتانك التي تشتهي دمَ الهاربين من مجازر الدم، ومن بطشِ حمم الفتك بسلاح جَبان.

كُنْ أعمى، ولو مرة، أيها البحر ولا تنتبه إلى صُراخ المدمنين على اليابسة ريثما يعبروك بأسمالهم المتشققة من ذعر الهروب إلى المجهول. أسمالهم الأكفان الملونة.

اخرس، أيها البحر. الأمهاتُ المرضعات وثقن بكَ فاحملهُنَّ بأمان كي لا يجُفَّ في ضرعهن الحليب الحليم. فهل أنت صادقٌ بوعدك أمام

المشرَّدين، والمشرَّدات عنوةً عبرَ ظهرك الممتد من الماء إلى الماء، بعد أن أغلقت رحمة اليابسة بوجههم؟

لا تعضَّ اليد الممتدَّة إليك بسلام كما تعُضَّ الشُّهُب.

سخيٌّ، أنت، ورحيمٌ في نقلك وحمايتك البوارج الحربية، وسفن القراصنة، وناقلات النفط ، والأغنياء الهاربين بعشيقاتهم بعيداً عن لعنة المتطفلين من مصوري «الباباراتزي».

بخيلٌ، حانِقٌ، شرسٌ، ووحشي أمام الهاربين بحثاً عن بلدان يتنفسون فيها حريتهم كبشر.

هل تعرفُ البكاء، يا بحر؟ وعندما تجوعُ تبتلِعُ، بشراهةٍ أحلام الذين يمتطونكَ عنوةً، أيها البحر الهرطوقي.

أنتَ فكرةً بلا وضوحٍ، يا بحر.

من عبثٍ قَلِق أنتَ، يا بحر.

أنت الْتِباسُ الفكرة، يا بحر، وأقداركَ باطنية.

أنت تستلذ باستيفاء الجبايات من الهاربين من جحيم الحروب. تصرخ: لن أنتشلكم كلكم. فاقذفوا من فلذات أكبادكم، وزناً زائداً، إلى جوْفي.

الكثيرُ مُجْبَرونَ أن يُبايعوك، أو يقدموا لك أجمل القرابين.

فكرتُك تُهرولُ ثم تعوي وتتناقضَ لذا أراكَ، مثلاً، تؤوي الكَواسَجَ وأسماك القرش التي تغضب وتنقض على فريستها إن تشمَّمت رائحة دمٍ بشريٍّ.

فَطَمْتُكَ من قناديلِ فناراتي، فاذهب، لوحدكَ، وهَدْهِدْ بوارجكَ

الشبحَ، فلا طاقة لي أن أصُدَّ طعناتكَ وأنتَ تبْتلِعَ المهاجرين منذُ ما قبْلَ «التايتانِك».

مَنْ سِواكَ يُرْخي عضلاتُهُ للقراصنةِ؟ يُرخي مَدَدُهُ للباحثِين عن شهوة الاحتلال منذُ عصر السديم؟.

وعلى فِكرة، أيها البحر، أنا لا أشتاقُ إليكَ كثيراً. النهرُ صاحبي، وصمتُه يشبه صلاتي التي كنت أرتلها في كنيستي.

الرب يحب الأنهار أكثر. قد نحَتَ في صدري، من طينه المجبول بالحقيقة نُدوباً مشكولةً بضمير المكان مُذْ رمى أبي إلى قعره مَشيمةَ أخي السادِسَ في الترتيب، وما زال نهري يحتفظُ بها.

النهرُ لا يغدُرُ، أيها البحر.

أنتَ أنانيٌّ، شرِسٌ، سفَّاحٌ. من يستطيع أن يشرب، ولو قطرة واحدة، من مائكَ الأجاج؟

هشٌّ جرْفُكَ. رملٌ متاهاتٍ. ولأنَّ ماءَكَ يُحاصِرُ الورد لذا فهو يُقاضيكَ بالنفور منك فحتى الصُبَّارُ لا يرتجيك.

بملوحتِكَ لن تنتصر.

هشٌّ جُرْفَك، أما نهري فجرفهُ من غِرْيَنِ أول الخليقةِ، وماؤهُ مديحُ شقائِقَ ليِّنةٌ يتهجَّى قبلةً بين عاشقين.

تلويحتي الهادئة، تلك التي أرسَلتُها، عبرك يا بحر، إلى «لافنْدَرَتي» وهي تشقُّ لهاثكَ على زُحافةِ تجرُّها سناجِب أقداري، تلويحتي تلك، خبَّأتُها في جيب بنطالي.

أنا هادئٌ الآن. قد نتصالَحُ يا بحرُ. هات رُسُلُكَ إليَّ كي نتفاوضَ على الممكن من غواية الممكن، لكن لا تختلِ بي.

ولكي لا أقسو عليك كثيراً، فأجملُ ما يُجمِّلُ قسوتكَ الأشرعة.

نهري «نهرُ الله». هو غبطتي من ملتقى القرنة حتى جزيرة الفاو:

أيها النهر،

يا ماءَ الأبْجدية.

مُذْ حفركَ،

السُّجناءُ، والعبيدُ بعرقهم ومغارفهم العضلات

ثُمَّ

بسطوا الحصى،

ليغووا احتدامَ الغَمْرَ،

فكثُرَ ماؤك.

ها المشاحيفُ عافيةُ العابرين

بين ضفتين

حتى نزيف المدِّ الأخضر.

وها

صَنَّاراتُكَ تنْتُرُ أوتارَ الأصابع،

والسمكُ يلبطُ.

تؤرقكَ فكرةُ الغرق.

لم أتعلم السباحة نِكايةً بالغرقِ.

مرَّة وضعتَ أقدامي على شفرة الماءِ،

كان الجُرْفُ يخفقُ بشهيقِ الصلْصالِ.

النهرُ يستدرجُني.

متَّزنا كان بأسئلة الحياة.

بماذا تُنبِئك الزوارق الرشيقة؟

سَلِ العرَّافة التي تنبَّأت لثلاثة شُعراء:

منهم منْ مات باكراً،

منهم من هاجرَ بعيداً،

ومنهم من اخترع عزلته فمات مطعوناً.

نهْرُكَ: نهرُ الأخطاء والغفران.

لا نذور لكَ هُناك،

لا شموعٍ تُضيءُ ساحِلَ منفاك،

ولو مرة في العام.

تهجوكَ الفنارات

ومولاكَ النهرُ. يُرقِّصُ خُصرَها.

ستُنسيكَ حريَّتكَ: أخطاؤك نهرٌ؛ أنيُن لاذِعٌ من هذيان الشفتينِ.

تفضحُكَ عيناك بكثيرٍ من خساراتِ الصِّبا.

وتنْدُب، في منفاك:

يا شهوةَ البصرة، وماءَ الأبجديَّةِ،

شراعكِ مُعْتصِمٌ بوجه الفنارات.

ستحملُ صوتكَ بعيداً.
يُرْخيكَ منفاً مفضوحاً
يُرْجئُ انتحاركَ.
البحارةُ الغرباء جوَّابو دهشة.

ما مِن دهشة بغْدكِ،
ياغصَّةَ قلبي.
وما مِن هدأةٍ لي.
أبناؤكِ: حنيُن شناشيل،
لهفةُ الياكوكتي ذات مساء،
ذاتَ عشيقاتٍ،
ذاتَ ذكرى معلقة ببندولِ الرُّوْج.
يومَ عدتُ إليكِ مكلَّلاً بنعوتِ الخوفِ.
غريبٌ على مقاس خيالك.
جئتُ أزقتَكَ بحذْوتين نحاسيتين.
سأعبركِ.
عتَبُك نزيه،
مشروخ الصوت،
كطلقة صدئة.

هل لي أن أقشُطَ غمغمات الغصة من حنجرتي الحديد؟

أفرك الصدأ العالقَ فيها
علَّ صرخةً منكِ،
تُرجِّفُ زورقَ صبري على غِرْينِ النخل.
منكفئ، كنهرٍ، على سفحكِ الأبدي.
زَهْرُ الطلِّيع يُخصِّبُ حروفي.
يا دفترَ الشِّعْرِ المخضَّبِ بالأنا،
على مِصْراعيكَ هفهفت رياحُ القصيدةِ.

لا تُدِر وجهكَ لصفعات الريحِ.
مَنْ يُهدِّئ أريكة أمي وأنا مُمدَّدٌ على ارجوحتكَ الصاخبة؟
ما أنتَ إلاَّ تخومُ الجَوْز بين ضفتين يليقُ بها رِطَبَك الذهبي.
أمواجُكِ تهدُرُ، تستثير شهوة البياض حيث لا ملْحَ لهيجانك.
طينُكَ خميرةُ المكحلة.
حمَّلوكِ المحامِلَ مُذْ لقَّنتهم الحِكمةَ طعم الحِصْرِمِ.

للحُبِّ شأنٌ، وللحَروبِ شؤونٌ.
على خدَّيْكَ، يا نهرُ، نُزِفَت قُبَلُ الجُنود القَتْلى.
هُم أحبوُّا التنَزُّهَ معك صُحْبة حبيباتهم.

ذنبُكَ، أيها النهر،
أنكِ رفضتَ الوقوفَ على الحِياد.

عُشَّاقُكَ مقمَّطون بأكفانٍ عارية وبرائحة البطولة.

عشَّاقٌ برؤوسٍ حليقة تنزفُ الحَشرات.

سيسألُكَ الأحفادُ يوماً، أيها النهرُ: لِمَ جنَّدوكَ ولَمْ يُلْبِسوكَ الخوذةَ،

وأعفوكَ من تحية العَلَم؟

قلَّدوكَ وسام الخاسرينَ.

صمتُكَ يشبهُ حيرةَ الأخرسِ في لجَّةِ السؤال.

يا نهرَ الأسى والولائم الخاسرة،

قُلْ لي: هل عطشي مُريب؟

تعنِّفكَ العاشقات. يزحفنَ متشبِّثات بهاويتك

وهنَّ يضفِرْنَ لكَ خُصَلَ القَهْرِ.

ها قد ضاقَ السوادُ في كِحْلَ العيون،

نائحاتُ الحروب مررْنَ على ضفيتكَ.

ها أنا أنوح.

سطورٌ من هذيان مُفاجئ نقشتُها بمِدادِ الحنين على بياضِ دفتر ملاحظاتي عن ذاك الشط الذي يُولولُ في عظامي.

ابتعدتُ سارحاً، وعدتُ أُلَمْلم، هذا الصباح، عتابي الأجوف للبحر. عدتُ إلى التفكير بانجاز متطلباتي الروتينية كما كل صباح الذي أبتدئُه، عادةً، بالاستحمام.

من فضائل الاستحمام صباحاً ترويضُ الجسد وشحذ الدم أن يتدفق بفرحٍ يسري أحمرَ قانياً فتخطو المتطلباتُ بسلاسة معي. طبَّعتُ جسدي على هذا الروتين. هو مُريحٌ بقْدرِ ما يُريحُني. أستحمُّ قبل القيام بأية مهمة أو واجب يومي. طبْعٌ أكرِّرهُ كل صباح بإشارةٍ من عقلي لغسل الجسد تسْكيناً لكوابيس الأحلام التي تُلازمني، بلا انفكاك، منذ سنواتٍ. الماءُ الساخنُ دائماً، هنا، نِعْمةٌ ما بعدها نِعمة. إنه يجري في الحنفيات صيفاً شتاءً.

في شقتي الصغيرة هذه، أنا اللاجئُ المدلَّل، حمَّامٌ صغير لكنهُ كبير بفضائل محتوياته المهيَّئة لفروض الاستحمام. يمكنُني الاستحمامُ مُتمدِّداً في حوض «البانيو» البيضوي المعدني الناصع البياض، بعد ملئه بماءٍ دافئ في الحوض تاركاً الصنبور يتدفقُ رشَّاشاً مُسْترخياً بجسدي في قعر المغطس. الاسترخاء تحت الماء يأخذني إلى الاستسلام لأحلامٍ يقِظة تمنحني بعض الشعور بالأمان. وإن كنت على عجلة من أمري فأستحم وقوفاً تاركاً الماء يتدفق على جسدي من رشاشه المعلق على الحائط. لا أحسبُ حساباً لكمية الماء التي أهدرها. لا أحد يُحاسبُني عن مصروف استهلاك الماء والكهرباء وإيجار الشقة.

أنا لاجئٌ «مهم». مضْطهَد قادمٌ من بلادٍ مهمة وسخيَّة في سحق المعارضين وتصفيتهم أو رميهم يتعفَّنون في المعتقلات لسنين طويلة. بلادٌ يحكمها طاغية لهُ حاسة شم المؤامرات التي تُحاك ضده. حاسة أقوى من بقية حواسه الأخرى.

اليوم عطلة. اليوم سبتُ الاستراحة، بعد جُمعةٍ حزينة أمضيتُ نهارها في تراشُق بياض الثلج بسواد الحزن الذي بلَّلتني به أليسيا السكيرة.

اليوم كل من في هذه المملكة السخيَّة يستريح، كما استراح الربُّ في آخر يوم من اسبوع خلْقه لهذا الكون.

استراح الربُ ووزع علينا نداءه: «تدبروا أمركم يا عبيدي، فقد انتهيتُ من مهمتي التي أوكلتموني بها. أتْعبتموني، يا عبيدي. حان الوقت لكي أستريح تاركاً الأمر لكم فتدبروا ما يحلو لكم على هذه الأرض».

وقتي، اليوم، مُلكي. لا التزامات لدي كي استعجل أمري في الخروج.

ملأتُ حوض الحمَّام بالماء الدافئ. مدَّدْتُ جسدي في قعْره وتركتُ رشاش الماء مفتوحاً يتساقطُ من فتحاته على جسدي العاري. رشاشاً ينخزُ مسامَّ جسدي نخْزاً خفيفاً، مُنعشاً.

أغمضتُ عينيَّ. سرحتُ بعيداً.

عادت أليسيا الأمس، السكيرة، أمامي. تذكرتُ طيبتها وأناقةَ روحها تجاهي أنا الغريب «اليوناني»، حسب تصنيفها على مقاس اسمي الإغْريقي. أنا اليوناني الغريب على مدينتها المسالمة المرحِّبة بالقادمين إليها من شتى بقاع الكون.

أحسسْتُ باسترخاء كل عظلة في جسدي. للماءُ الدافئ. لذَّةٌ ارستقراطية؛ لذَّةٌ بوهيمية؛ لذةٌ خارجةٌ في نُزهةٍ إباحية تتجول دوراناً داخل حوض السباحة؛ لذةٌ تستردُّ كرامتها بعيداً عن الفضوليين؛ لذةٌ تتنزَّهُ، بلا خجَلٍ، تحت ظلالِ الماء الرشاش؛ لذةٌ تُجاهرُ بلذتها؛ لذة الماء الدافئ استرخاءً يُبعد عني، ولو قليلاً، التفكير في المجهول القادم الذي لا أعرفُ كيف سيكون.

أنا مُخدَّرٌ، الآن. للخَدَرِ استلذاذٌ. تسليمٌ مؤقتٌ لضربات الأحلام المؤقتة.

صحوتُ، بعد خدَرٍ مشتهى في بطن الحوض الماء. فتحت عيني. توقف تدفق الماء من فتحات الرشاش. عواءٌ يشبهُ زعيق جرذانٍ محشورة في مصيدة. زعيقٌ ينتشر في محيط الحمام. نظرتُ إلى قرص الرشاش المثقَّب المعلق على الحائط. أُفْزِعْتُ. ديدانٌ تتدلى من فتحات الرشاش. ديدانٌ تتراقصُ بألم كأنها حُشِرَت عنوةً وترتجي الخلاص. قفزتُ من حوض البانيو مرتعباً. خرجتُ وأغلقتُ باب الحمَّام ورائي، سقطتُ مرتبكاً على الأرض الخشب في الممر الصغير بين الحمام وغرفة النوم. أُغمي عليَّ.

لا أعرفُ كم مضى من الوقت وأنا عارٍ من كل شيء. مُلقى على الأرض، متكوِّرٌ على جسدي. قدماي مقوَّستان تُمسك بهما يداي المرتجفتان. حَنَكي ملتصقٌ برُكبتي، وفَكايَ كأن هَرَسهُما لجامٌ حديد. عجيزتي ملتصقة بخشب الأرضية جذْباً بكل ما للأرض من جاذبية. يطحنُني الفزع الذي تراقص فوق جسدي، ورأسي فارغٌ من أية دهشةٍ إلاَّ من دهشة عَدَمٍ. صوتي عَدَمٌ كأنه في قرارِ بئرٍ جافَّة. شعري منفوشٌ مشبَّعٌ برغوة الصابون. لم تنتشلني من آثار الإغْماءة إلاَّ قشعريرةٌ باردة قوية ورجفة خوفٍ سرت في كامل أعضائي أرغمتني على النهوض بتثاقلٍ. أذْنايَ، فقط، كانتا متحفِّزتين: سمعتُ أصواتَ أبوابٍ تُفْتحُ، وتُغلَق، تارةً بسلاسة، وأخرى يأتي منها صوتُ إغْلاقٍ يرتطم بالحائط. صوتُ موسيقى يهدُرُ من إحدى الشِّقَق أعقبها صوتُ أغنية فيروزية: «وَحْدُنْ بيبئوا».

كنتُ عارٍياً من كل شيء: عارٍياً من ملابسي. عارٍياً من معرفة ما الذي جرى لي. عارٍياً من الآخرين، وحدي تماماً في شقة اللاجئ الأعزل.

كان باب الحمام مُغلقاً. فتحته بهدوءٍ مُرْتجف. كل مفصل من مفاصل جسدي الصغير يصطكُّ، والماءُ لا يزال يتدفقُ من رشاش الحمام بسلاسة. أغلقتُ الصنبور وتركتُ الماء المتجمع في الحوض الأبيض ينساب إلى حيث ينساب. نشَّفتُ جسدي من بقايا البَلَل. ارتديتُ ملابسي على عجل. جلستُ أنظرُ إلى المطبخ الذي هو جزءٌ من الصالون الصغير. ارتجيتُ شهيتي للطعام أن تنهض، لكني أحسستُها قد تجمَّدت في عروقي التي اختضت من كابوسِ الديدان الصفراء التي تخيَّلتها متدلية من فتحات رشاش الماء المعلَّق.

أشعلتُ لِفافة تبغٍ. سحبتُ الدُخان بسرعة إلى رئتي. أحرقتُ نصفها. كان الدخان مُراً في فمي. أطفأتُ السيكارة. إنها المرة الأولى أدخنُّ فيها على الريق.

قررتُ الخروج من الشقة؛ هرباً من رائحة الكوابيس التي لفت جدرانها. هيَّأتُ، على السريع، شريحتين من الخبز، دسستُ بينهما قطعة جبنٍ صفراء وشريحة لحم رقيقة. لففتُها بالسيلوفان. وضعتها في حقيبتي الجلدية الصغيرة إلى جانب رواية «الحارس في حقل الشوفان» الكتاب الوحيد الذي بحوزتي. ارتديتُ ما يُناسبُ الطقس المثلج وخرجتُ مُسرعاً.

كنتُ قد قررتُ، منذ ليلة البارحة أن أزور محطة القطار الواقعة في مركز المدينة. ركبتُ الترام المتجه إلى المحطة، بلا تردُّدٍ.

لا يكسرُ عِنادَ البرد المتسلل إلى الجسد إلاَّ سائل ساخن. دخلتُ مقهى أنيقاً، واسعاً، يُطِلُّ على محطة القطارات الرئيسية في يوتبوري. مقهى بواجهات زجاجٍ ضخمة تُبلِّلُها نُتفُ الثلجِ التي تتسابُ ماءً ما أن ترتطِمَ بها.

تأمَّلتُ، بتمهُّلٍ أنيقٍ، أنواع الساندويشات المصْفوفة بطريقة تشتهيها النفس. لم يُطفئ جوعي السمورغوس الذي جهزته قبل خروجي من الشقة، وقد التهمته قبل دخولي المقهى.

تأمَّلتْني، بودٍّ شهيٍّ، مُتقَنٍ، البائعة، الواقفة خلفَ المستطيلِ الزجاجي الذي صُفَّت في داخلهِ المأكولات السريعة الباردة، بأنواعها، إلى جانبِ المعجنات الحلوة المذاق المصفوفة أعلى الرفِّ الزجاجي.

نظرتُ إلى البائعة. قرأتُ اسمها الذي خُطَّ على قطعة معدنية بيضوية الشكل، شُكَّت بدبُّوسٍ فوق صدرها جهة اليسار:

«مُنى». اسمها منى.

انشغلت منى مع زبونٍ آخر حين قرأت على ملامحي حيرةً قلِقة في حسم أمر أن أختار ما صُفَّ من مأكولات على الرفوفِ الزجاج للفاترينا المبرَّدة حتماً.

«مُنى». اسمٌ شرقي بلا مواربة. بملامِحَها الشرقيةِ، هذه البائعة، الفائرة غنجاً لا تترُك مجالاً للشكِّ في جذورها العربية، تفضحها سُمرةُ وجنتيها، وسواد العينين الواسعتين. حاجبان كثَّان، لم تخضعهما لعمليةِ ترشيقٍ بملقط الحقيقة. نهدانِ مكوَّرانِ أناقةً يختبآنِ تحت حمَّالة دفعتهما إلى مستقرٍّ مرتفعٍ صلب وراءَ قميصٍ بَنفسجيٍّ مُتقنَ

الإغلاقِ بأزرارهِ البيض، قميصٌ تسللت نهاياتهُ تحتَ تنورةٍ، طويلة، بيضاءَ. خمَّنتُ عُمرَها في العقد الثالث، تقريباً.

عادت مُنى، بعد أن لبَّت طلبات بعض زبائنَ حددوا، ربما، مسبقاً ما يتطلبه ترويض جوعِ مَعِداَتهم.

اشتهيتُ الروبيان. لم أجرؤ أن أكلم البائعة بلغتي الأم. أشرتُ بسبابتي إلى صحن الروبيان المدوَّخ بالمايونيز، عليه ثلاث شرائح بيض مسلوق تُجمِّلهُ شُعيْرات عشبية من نبات الشومر.

أخرجت منى صحن الروبيان من فاترينة الطعام. وضعتهُ أمامي على سطح الفاترينة، ثم وضعت سكين يمين الصحن وشوكة إلى يساره. أشارت منى إلى سلة خبز مُقطَّع شرائحَ علامة أن آُخذ منها ما أشاء. طلبتُ فنجانِ قهوة أيضاً. دفعتُ الحساب.

«لكَ أن تُجدِّد قهوتك، إن شئتَ، من دون أن تدفع أكثر»، قالت مُنى وهي تُناولني الفاتورة.

«شُكراً منى»، قلت لها بسويدية واثق من نطقها.

«عفواً. تفضل». ردَّت، بسويدية نقية.

أخذتُ الصحن. وضعْتُه في صينية بلاستيكية. رميتُ البائعة بجملةٍ غلَّفها خجلي المرتجف، وبعربية فصحى: «منى، يا يومَ المنى». ابتسمت ابتسامة رضى رشَقَتْ بها خجلي بعيداً عن صخب الجالسين. عقَّبتْ، بعربيَّة واضحة المخارج حروفاً:

«ماذا قُلت؟»، سألتني بثقةٍ فهمتُ أنها عرفَتْ معنى ما نطقتُ به.

«لا شيء. اسمكِ جميل»، أجبتُها.

قطعَ الحديث السريع بيني وبين منى زبائن تقاطروا صفاً خلفي. ابتعدتُ. اخترتُ طاولةً تُشرِفُ على واجهة محطة القطار تفصلني عنها جدرانٌ زجاج ضخمة، تتسابُ عليها خيوطِ الثلج ماطرةً في الجهة الخارجية من المقهى.

قُبلةٌ بين عشيقين، جمَّدت لحظة بدئي تناولي ا|الأكل.

بمعطفه الجوخ الطويل المفتوح إلى ما تحت رُكبتيه، سوَّرَ شابٌ طويل عشيقته. كانا واقفيْنِ حدَّ رصيف القطار الذي سيغادِرُ المحطة بعد قليل.

شفاههما الذائبة بجلالِ قُبْلةٍ موفورة الطمأنينة على مشهدٍ لا عناءَ في تخيُّل تفاصيله للعامة.

تجلَّى «أنتيروس» ـ رمز الحُب المتبادلِ ـ بسلامٍ فخْلٍ من قُبلةِ وداعٍ.

خجلتُ مِنيِّ. انتبهتُ إلى أني الوحيد الذي يُركزُ على حبيبينِ يُقبِّل أحدهما الآخر. لم يُثرِ المشهد من كان في المقهى، أو من تواجدَ في المحطة. عدتُ إلى صحني. وضعتُ في فمي ببطء قطعة من محتوى الصحن.

لم تأسُرني رغبة لذةٍ مفضوحة أمام الملأ بين عاشقين. أسرني فضاءُ حرَّيةِ القبلة. فضاؤها رغبةٌ إنسانية لا مُبالية، لا تخصُّ أحداً بتمامها، دون قلقٍ أو وَجَلٍ. حرية مُتحرِّرة من التسلط والعيْب، وخدشِ الحياء العام.

ما الضير إن كانت قُبلة الوداع تُزرع على الشفتين بدلَ أن تُطبع على الوجنتين أمام العامة؟

للوداع رحيقٌ يتضور قُبلةً.

للوداع لونٌ يُنتزعُ من قضمةِ شفاهٍ لهفةٍ.

للفِراقِ طعمٌ بلونِ خفقةٍ لا يُهذبها إلا ارتواءِ الشفاه من ينبوعِ القُبلةِ.

الرحيلُ فنٌ ثمارهُ هذيان شفاهٍ ترفو نبضاتها في المدى.

الوداعُ اشتباك قصير على رصيف القُبل.

كلُّ قُبلةٍ إلْهام.

عُدتُ، بفضول الملهوف، إلى هذين العشيقين، أنظرُ بتهذيبٍ قنصٍ إلى المشهد الهاذي المتبقي منه دقائقَ معدوداتٍ، قبل الإعلان انطلاق القطار عبر رنين ناقوس المحطةِ باتجاه ستوكهولم.

نَغَزْتُ ذاتي، التي يُغلِّفُها جِلْد الخَجَل، بسكينِ الخجل:

«كوني أنيقة، وأنتِ تُحدِّقين. لا تُعرِّي فضولكِ أمام البشر الذين من حولِكِ».

حاولت أن أوزِّعَ فضولي بين العشيقين وبين اقتناص ردات فعل الآخرين، قدر المستطاع.

لم أكُن وقِحاً، بل مدهوشاً أزاء ذوبانِ شفاهِ شاب وشابة التصاقاً في مكان عام. قُبلةٌ تُصادفني لأول مرة على أرض بلد لجوئي الغامض.

ألقمَ الشابُ شفتي عشيقته بشهوةٍ مرتبكةٍ في عُجالتها. ذابا. ذابت قهقهة الشَبقِ على نَحْري شفاههما. لمحتُ، خطفاً، خيطُ برقٍ فضيٍّ رشقَ سطح رأسيهما. بُخارٌ يهذي يتسرَّبُ من باطنِ معطفيهما:

«سيحرقانِ فائِضَ القُبَلِ قبل الوداع»، همستُ لنفْسي.

التصقا التصاقاً صقيلاً، بقوة، كأنهما ارتطما عَمْداً، ضرورةً من ضرورات الرغبة المُنتظَرة.

ارتفعت الفتاةُ بكعبي حذائها البُنيِّ الجلد قليلاً عن الأرض، فتوازنت أنفاسها نع أنفاس الشاب، أكثر، قبل تبخرها في رجفة السماء المرتجفة أصلاً من عجرفةِ الثلجِ المتساقط غدراً أليفاً.

فَارَ في خدِّها اليمين، المُتجليِّ أمامي، الآن فقط، نبيذُ المصِّ العنيف. خدٌ مُستدير كَجُرنٍ خزفٍ تفورُ فيه لوعةُ اشتهاءٍ رجَّفتا ركبتيَّ.

أجزُمُ أنَّ للقُبَل نبيذها، حسب الوقتِ، أيضاً:

لنبيذِ قُبْلةُ النهارِ لونِ الغَرقِ.

لنبيذِ قُبلةِ المساء رجفُةُ ورقةُ السُّمَّاق أوانَ القطف.

وماذا عن نبيذ الفصول؟ أبعدَني شطحُ النبيذ قليلاً عن مغامرة القُبلتين لهذا الشاب الصاعد بجرأةٍ مُستطيرة درجات غُلْمتِه مُهيِّجاً لَبْوتَهُ التي تزدادُ رشاقةً، في العَراءِ المنكشف بياضاً تحت قُبَّةِ المحطة، كلَّما صعَدت شهوتهما سُلَّمَ الوقت أخذَ الوقتُ يلهثُ نزولاً مع اقتراب لحظة إنطلاق القطار.

تخيَّلْتُ، أنا البطْران، في جلستي وحيداً، أن للقُبلةِ أطواراً سبعة لكن بلا نسقٍ متطامنٍ في أطوارها. قد يسبقُ طورٌ لاحق طوراً سابقاً أو قد يلتقيان في أضعف حالةِ رغبةٍ بين قُبْلتين.

الضرورةُ قد تتحكَّم بما قبْل، وما بعْد، أو ربما هيجان المناورة يلعب دوراً في أن اللاحق يستبق السابق، لكن الأطوار السبعة هذه ربما كُرِّست، في ذهني، كرقمٍ بلاغةٍ نسجتها هلوسةُ بَطْرانٍ مثلي.

عجوزٌ، في السبعين من عُمْرِها، هكذا خمَّنتُ اعتماداً على انزلاقِ تعاريج الزمن على وجنتيها، اقتربت من الفتاة التي تُوشكُ أن تودِّعَ فَحْلَها. انحنت على الأرض ورفعت تذكرة السفر. انتبه العاشقان لحركة المرأة المزنَّرة بمعطفٍ فرْوٍ شعَّ بياضهُ على كتفيها نزولاً حتى صدرها. سلَّمت الفتاة تذكرتها المبلَّلة. انحناءة امتنانٍ بدت من رأس الفتاة. رنَّ ناقوس المحطة. اختطفت الفتاة قبلة سريعة من عشيقها. سارت باتجاه مقصورتها القطار، ثم هفهفت بيدها علامة وداعٍ أخير. ذابت في الزحام.

عاد الشاب إلى حيث دراجته الهوائية التي كان قد ركنها بالقُربِ من عمودٍ حديدٍ كان يهتز، قبل قليلٍ، من تلك القُبَل الوداعِ.

امتطى الشاب دراجته وطار في بياضِ الثلج الذي كان لا يزالُ يتساقطُ كثيفاً.

انتهى المشهدُ السوريالي. لِم تخيَّلتهُ سوريالياًّ، ألِأنه تصرفٌ فرديٌّ من شخصين، وفي مكانٍ عام؟

سرَحَ خاطري قليلاً. أزحتُ منفضدة السجائر إلى يميني. أشعلتُ سيجارتي الثالثة. يبدو أني الوحيد الذي انشغلَ بمشهد القُبلة الخشنة. فركتُ شفتي العليا بأسنان فكي الأسفل. أدرتُ وجهي أنظر إلى الجالسين في المقهى. شككتُ بنفسي. تخيلتُ أن الجميع ينظر إليَّ باستغرابٍ واندهاش، فأنا الوحيد، ربما، من الجالسين ممن استغرقهُ التفكير والنظر إلى خصوصية الحبيبين تجمعهما قُبلة وداع.

لم أرَ أياًّ من الجالسين ينظر إليَّ. أيَّة خصوصية في تصرف هذين العشيقين؟ إنهما في مكان عام. هل يحق لهما ذلك؟ صرت أحسبُ الأمر من وجهة نظر أخرى. أخذتهُ باتجاهاتٍ عدَّةٍ.

أحسبُ أن للحياة موازين، وحدوداً في التصرفات الفردية في ما يخص الأخلاق المرعية التي أفترضُها، كما عشتُها في بلدٍ مُحافظٍ على العادات والتقاليد كالعراق. مجرد تشابُك يدين، هناك، بين حبيبين، في مكانٍ عام، يُعدُّ تخطّياً لا تبريرَ لهُ للآداب العامة، فكيف بقُبلةٍ بين عشيقين. تخيَّلتُ أنهما سيُرجمان في نفس مكان ارتكاب القُبلة.

المسموح والشائع، في شرق العِفَّة الباطلة، تشابك أيدٍ بين ذكرين، فقط، في الفضاء العام.

تعرت الخطوط الحديد، إثر انطلاقة القطار في مَسار اتجاهه. تعرى الرصيفُ حيث كان يقف عليه الحبيبان.

انتبهت إلى صحني. كنتُ قد طيَّرتُ نصف وجبة الروبيان إلى جوف معدتي. بعضٌ من قِطع الروبيان انسلت من الرغيف المستطيل الأبيض، المشطور من النصف، إلى قعر الصحن.

كنتُ قد دخنت، قبل أن أضع شيئاً في معدتي، سيجارتين نوع «بْلينْد». سجائرُ سويدية بقُطْرانٍ خفيفٍ، ذات علبة صفراء، واحتسيتُ نصف الكوب من القهوة السويدية التي تُحضَّرُ تقطيراً.

بَرَدَ النصفُ المتبقي من القهوة في الكوب الأبيض الكبير. عُدتُ إلى حيث تقف مُنى استميحها أن تُجدد لي قهوتي التي أفضلها ساخنة. انتفخت وجنتاها الحنْطيتين بتجانُسٍ عبَّرت عنها ابتسامةُ امتنانٍ. شكرتُها على طريقتي:

«آه، يا يومَ المُنى»، قلتُ لها.

«وَشْراك؟»، قالت بلهجتها المغربية الأصيلة وهي تنفخُ على خُصلةٍ من شعرها تراقصت على جبينها الأسمر الواسع.

للآن لم يظهر من جسدها إلاَّ نصفه الأعلى. النصف الثاني اختفى خلف الطاولة الخشب البيضوية.

«أأنتِ مغربيَّة؟»، سألتُ البائعة.

«نعم»، أجابت مُنى.

«آه، يا مُنى. الروبيان، يا مُنى»، قلتُ وأنا أتناول القهوة من يدها.

- ما بِهِ الروبيان؟ ألَمْ يُعجبك؟

انتابتني فرحةُ سَلِسَة حين سألتْني، بغتةً، بلهجتها المغاربية المشهورة. قِرْطان فضةٍ زُخرِفا بحجرٍ فيروزي ناعم، معقوفان غُرِزا في شحمتَيْ أُذنيها الصغيرتين، صيغا كعلامتي استفهامٍ، اهتزَّا بخفَّةٍ.

«على العكس، يا مُنى. الروبيانُ شهيٌّ. أعجبني جداً».

استرسلتُ بكلامي أقتنصُ الثواني التي توفرت بيننا قبل أن يقطعها زبونٍ جديد: «إنهُ لذيذ هذا الروبيان المدلَّلِ بالمايُونيز الذي جعله أكثر اشتهاء».

لم أشأ أن أرمز لأهمية الروبيان إيروسيًّا. خجلت.

«أراكَ دخَّنْتَ قبل إكمال وجبتك. حسبت أنك لم تستغ مذاقَ الأكل هذا»، قالت منى. أضافت: «يبدو أنكَ مهموم، شارد».

فوجئتُ بكلامها الجريء، كأننا نعرف بعضنا قبل اليوم بكثير.

- لأكلة الروبيان دلالات كثيرة في حياتي، يا مُنى. لا وقت يُسعفني، الآن، كي أشرح لكِ ذلك.

هزَّت رأسها تعبيراً عن تقديرها مقصدي بعيداً عن سوء فهمٍ في ما تناولتهُ من نعمة الوجود.

عدتُ إلى حيث طاولتي. لم أجد من اللائق الإسهابَ أكثر في الحديث مع مُنى. هناك زبائنَ كُثُرٌ ينتظرون دورهم أمام الخِزانة الزجاجية البيضوية الطويلة، مُبرَّدة تبريداً خفيفاً حفظاً للأطعمة وسلطات الخُضار التي صُفَّت فيها. غطاءُ الخزانة الخشبي وُضِعتْ على سطحه البني اللون كؤوس زجاجية لملئها بالقهوة.

نظرتُ، من حيث أجلسُ، إلى فضاء المحطة الخارجي. قطارٌ آخر وصلَ واسترخى على سكة ذاك الذي غادر قبل قليل، حاملاً معه الفتاة وحيدةً بقُبلةٍ لذَّتَها طافَ ملحاً على شفتيها.

قُبلةٌ في الفضاء الطَلِق بهوائه وثلجه تصرُّفٌ، ربما، يرتابُ منه الآخرون. سائلتُ نفسي: أهو ارتيابٌ مني أنا الآتي من عالَمٍ غريبِ الفضُولِ أحسن فضائله؟ العَيب والشَّرَف والعفَّة ضرورةٌ ألْغازٌ يتغزَّل بها الجميع أمام الجميع.

الحَرامُ دناءة.

الحرامُ حيرةُ الجميع أمام الجميع لكن في الباطن لا يخشاه الجميع.

أما الحلالُ فطهارةُ الجميع أمام الجميع.

من هذا العالم أتيتُ إلى عالَم أكثرَ غرابة حيث أجهلُ تضاريسَ أرضه وهوائه وسمائه وبَشَرِهِ. وإلاَّ لماذا غرقتُ، أنا الوحيد، في فضاءِ تلك القُبلة دونَ الخَلْق المتواجدين حولي؟

انهارَ، أمامي، أول سلَّم من سلالم العَيْب.

لا إشكالَ إن طُبِعت تلك القُبلة، بلا تكلُّفٍ، على الخدينِ، مثلاً. عادي جداً. أنا قبَّلتُ أمي، على خدَّيْها، مرَّاتٍ لا تُعد، وكذلك الكثير من الفتيات والنسوة، على خدودهنَّ، في مناسباتٍ كثيرةٍ سواء في

الهواء الطلق أو بين جدران مغلقة. أما تقبيل الخدين بين الذكور، عَلَناً، فهذا أمرٌ عادي وشائع، لكن أن تكون القُبلة على الشفتين، بين عشيقين، كشفاً تحت سماء الله وأمام ألخَلقِ فتلك وجهة نظر تستحق التفكير.

افتكرتُ كلام ساندرا. أملت علينا واجباً ينبغي انجازه.

لا أحبُّ الواجبات المفروضة فرضاً. أتهرب منها. تخنقني. تسلب حريتي في التفكير. تجعلني أقلِّبُ كل مفاصل عقلي للعثور على أجوبة تُناسبُ أسئلةً غير مُناسبة. لا أحبُّ المفاجآت. تخنقُني المفاجآت. تُربكني، لا بل تُرجِّفُ عُمْقَ مفاصلي من غير أن تُرى. وغداً درسنا عن «غوستاف أدولف الملك الأكبر، أسد الشمال، جعل السويد خلال سنوات حكمه إحدى أفضل وأبرز القوى العسكرية بالقارة الأوربية. في الحرب التي يُطلق عليها «حرب الثلاثين عاماً» نجح في تحقيق التوازن العقائدي والسياسي بين الكاثوليك والبروتستانت. كان عسكرياً شجاعاً. قُتِلَ في معركة لوتزن التي حقق جيشه فيها انتصاراً رائعا. هكذا أُرِّخ، باختصارٍ شديد، في مصادر التاريخ السويدية عن هذا الملك الشامخ طويلاً، نُصْباً بهياً في مركز المدينة.

لا أحبُّ نبش الأحداث المحزَّنة في بطونُ التاريخ. أحبُّها طازجة. تُغلى مطبوخة على سعار الصراعات والمناكفات، وعلى حَلَبات الغالب والمغلوب. تُنبئَ بمفاجآتٍ. أحداثٌ روحها سلسة، وتاريخُها انتصارات وهزائم، حتى وإن كانت طقوسها عنيفة تُشوِّشُ الأعصاب والرغبات.

«آهٍ، يا لتِلكَ القُبلة». سمعتُ صدى تأوُّهٍ مبتورٍ عن صداه. صدىً رطَّبَ نَوْلَ شهْوتي إلى دردشةٍ أنثوية، فيما «مُنى» تقتربُ مني باتجاه

عربة مستطيلة، طويلة لجمع الصحون الفارغة المرجَّعة من زبائن المقهى.

حضرت بكاملِ قوامها القصيرِ المربوع قليلاً. قوامٌ فيه من الضعف جعلَ جسدها القصير يهفو رشيقاً. أمَّا حوْضَها فقد جُلِّسَ مُستطاباً باستدارةٍ بيضوية، أشْرَقَ عن رَدْفينِ يعُطِّان لهفةً من رجرجةِ نعمةً كنايةً عن أحسن الوجهين.

«هل رأيتِني، يا مُنى؟»، رميتُ سؤالي إليها قاصداً فضولي في مراقبة صاحِبَي القُبلة، كي تقتربُ مني أكثر عسى أن تتوقف قليلاً.

استدارت واقتربت من طاولتي. مسَّ مريولها الأسود حافة الطاولة اليسرى. ابتسمتْ. ألقتْ نظرةً خاطفة على الفضاء الخارجي للمقهى. استدركتْ سؤالي:

- ذلك يحدثُ كل يوم يا......

«هِرْميتس»، أجبتُ. اسمي هِرميتس».

- هذا مكانُ استقبالٍ ووداع، يا هرميتس. المحطاتُ، في كل العالم، لها قُبَلٌ يوزِّعها المودِّعون والمودِّعات كلٌّ حسبَ مزاجه وطبعه وعلاقته مع الآخر.

«لكنها ليست قُبلة عابرة»، قلتُ لمنى بعد أن فتحت باب جُرأتي عن كلامٍ جريءٍ مع امرأة جريئة: «إنها ليست لثمةُ شفاهٍ عابرة في مكانٍ عابِرْ»، أضفتُ تفصيلاً مُلْحقاً بكلامي عن عدم استغرابها من قُبلةٍ جلجلتْ فضولي.

«ستشبع عينيك من هذه المشاهد التي تتكرر في أماكن كثيرة من

المدينة»، قالت وهي تعود إلى حيث مركزُ وقوفها خلف طاولة تلبية لرغبات الزبائن.

كل شيءٍ هنا، تقريباً، ممارساتٌ وطبائع، غريبٌ وجديدٌ عليَّ. بعضٌ منها تلك التي رفعتُ عنها، بسرعة قياسية، غطاءَ السيلوفان: تقطيع الخبز بالسكين. أن أفطَرَ شوفاناً بالحليب، بدلاً عن البيض والجبن، مثلاً. شربُ شاي أخضر. بيرة خفيفة أقصى نسبة الكحول فيها (3,5). أما البيرة وبقية أنواع الكحول الذي يزيد نسبة كحولها عن هذا الحد فيُباع في محلات محتكرة من قبل الدولة تُسمى (Systembolaget). أي كحولٌ مؤمَّمٌ. أجملُ ما في هذا المحل الذي يُوفِّر كل أنواع الكحول المستورد، بما فيها العَرق من صنفٍ واحد، فقط، «الراكي» التركي، هو أن تشتري النبيذ بأنواعه بعلبة من الكرتون لها صنبور صغير تحوي ثلاثة ليترات..

الأهم من كل ذلك: أن لا تنظُر إلى الغير في الأماكن العامة. اخفض رأسك، أو سر باعتدالٍ، وقُل: «عفواً».

إن أزعجت أحداً ما بتصرُّفٍ، وإنْ بدا عفوياً. الاعتذارُ مقامةُ مُبجَّلٌ.

أن ترتدي جوارب صوف في الشتاء أمرٌ عاديٌ، لكن أن تكون بيضاء اللون، فذاك ما ليس بالغريب هنا. تشعر هنا كأن الجوارب قد أُمِّمَ لونها. الكلُ، تقريباً يرتدي جوارب بيضاء اللون وعلى الأخص الرجال.

الفصل الرابع

مُمَاحكات تحت الصفر

جلست المعلمة ساندرا أمام طاولتها الصغيرة. نادت بأسماء الحاضرين. تغيَّبَ ثلاثة من الطلبة العشرة. سبعة حضور فقط من أصل مجموع المنتظمين في دورة تعلم السويدية. بانَ بعضُ استياءٍ خجول على وجه ساندرا بسبب النقص الواضح من مجموع العدد. مجموعتنا صغيرة في الأصل.

«كما اتفقنا بالأمس، سنتكلم بعض الشيء عن رحلتنا إلى قلب المدينة وزيارة نُصب أحد ملوك السويد»، قالت ساندرا.

بقلم الماجيك ذي اللون الأحمر خطَّت على سبُّورة الصف اسم الملك: Gustav Adolf den store - (1594-1611).

لم أَنْتبِه، لكن المعلمة ساندرا انتبهتْ إلى مُربَّع الساندويش الذي وضعْتُه على مُسْتطيل طاولتي. كنت قد لففتهُ بالقصدير الفضي.

وقعت عيناي، فجاءةً، على يدها اليمنى. كانت قد نقلت خاتمها الفضي الناعم ذا الفُصِّ الفيروزي الشبيه بحَبَّة رمان من بنْصرها إلى سبابتها.

«أريدُ، اليوم، أن أختبر قوة ملاحظاتكم عن بعضٍ من جولتنا ليوم أمس في «Brunns Parken»، وعلى الأخص، تمثال «الملك غوستاف»، قالت ساندرا جملتها وهي تحاول تشغيل آلة البروجيكتور - جهاز عرْض الشرائح الشفافة، لبعض صور الملك والتفاصيل التي تحيط به في الساحة. ركَّزت على الصورة الأولى: التمثال البرونز:

«هذا هو غوستاف أودولف الثاني العظيم، كما نراه في هذه الصورة»، قالت ساندرا. أشارت بيدها. سردت سرداً مُختصراً، وبلغة مبسطة مع بعض إشارات توضيحية، مستعينة بعصا طويلة تشير بها

إلى صورة الملك، وهي تقف حذاء السبورة البيضاء المربَّعة الشكل. أضافت:

«غوستاف أدولف الثاني، من أبرز الشخصيات السويدية. حكمَ السويد من عام 1611 حتى مقتله في معركة لوتزن التاريخية مع الألْمان سنة 1632»، صمتت ساندرا قليلاً. ضغطت على زرٍّ في الجهاز فبانت صورة أخرى أكثر توضيحاً لنُصب الملك، ثم أضافت: «السويد بلدٌ في أقصى الشمال الأوربي. بلدٌ قاسٍ في طبيعته وترويضه، مقابل ذلك كان لابد من رجال يخلقون المعجزات، ومنهم الملك غوستاف، ملك المعجزات منذ ما يُقارب 400 عام. لذا لُقِّبَ بأسد الشمال بانتصاره في أكثر من حربٍ على سواحل وجبال أسوج. إنه بحصافته منع أيضاً صراعات دينية . طائفية وبقدرته وذكائه استطاع توحيد طائفتين كبيرتين هما البروتستانتية والكاثوليكية. بالمناسبة»، أضافت ساندرا: «لقد دخلت المسيحية وانتشرت في السويد منذ ما يُقارب 1000 عام، بعد أن كان الناس وثنيين»

حيَن وصفت ساندرا الملك غوستاف أدولف بـ «الأعظم»، لاحظتُ ازدياداً خفيفاً في تورد وجنتيها البرتقاليتين، كما هُما، في الأصل. بياض جسدها عُجِنَ، بعض الشيء، بخيوطِ سُمرةٍ جعلت من شقْرتها أكثر اشتهاءً. ابتسمتْ. وضعت العصا على سطح طاولتها الكبيرة. جَلَّسَتْ جسدها الرشيق، الأربعيني. على كرسيها المدور بعجلاتٍ تُنَقِّلُ جسدها أبعد عن طاولتها، بسهولة، عند الضرورة.

«أنا محظوظة»، قالت ساندرا بضحكةٍ خالطَها شفيفُ دمعةٍ على مقلتيها البنيتين.

«وِلادَتي في نفس اليوم الذي وُلِد فيه غوستاف أدولف الثاني في التاسع من ديسمبر»، نبَّهت ساندرا سبب حظِّها ذاك.

«كَمْ عُمركِ يا ساندرا؟»، سألت «كَسانْدْرا»، الطالبة الألمانية التي التحقت بمدرسة اللاجئين لتعلم السويدية فقط. لم تكن من صنفنا نحن اللاجئين. أتت بحثاً عن عملٍ ما.

«السنة الماضية أكملتُ أربعين عاماً»، أجابت ساندرا رداً على سؤال كساندرا.

«أنا وأنت في نفس العُمر، ست ساندرا»، قال «ريبَاز يَزْدو»، اللاجئ الكردي، من دون مقدمات. «لكني أبدو أكبر منكِ بكثير، ست ساندرا»، أضاف ريباز يزدو، المربوع القامة بمنكبين عريضين ورأسٍ مُدوَّر يعلوه شعرٌ كثيف غزاهُ بياضُ الشَّيْب.

ابتسمت ساندرا ابتسامة مجاملةً استطراداً على كلامِ ريباز يزدو. رفعت يديها إلى كتفيها تدفع بقميصها المُتهَدِّل خلف ظهرها تَستِر شهوةَ ذاك الزيق الذي يتوسطُ ثديين في هبوبهما الأربعيني. عُمْرٌ من نعيمِ مريَّشٍ بأنينٍ شبقيٍّ جسور.

شعرتْ ساندرا ببعض طلبتها يتلصَّصون على ثدييها الناهِديْنِ يوحِّدهما التصاقهما اندفاعاً حتى بسالَةِ الشهوة المُرتجاة. ثديانِ مكوَّران يرْتجَّان انتشاءً أنثوياً فيهما أنْ يطحَنا عجرفة الثلج المتناثر في ساحة المدرسة. قميصها القطني الثخين، من فصيلة اللباس الشتائي، لم يمنع جسارة ثدييها، المتحرّرين، من رتابة الحِمالة، نعيمِ القنصِ لِمَن يَرْغَبَ مِنَّا، نحن الجالسيَن أمامها، في كسرِ رتابة درسٍ عن حياة ملكِ وإنْ كان عظيماً. ثديا ساندرا، ذاك الصباح، أنْسياني كوابيس صدام

التي أرعبتني في منامي الليلة الماضية. حَلْمتاها المشْتهاتان، كسرتا القولَ في تَشبيه الجو البارد بحلمة ثدي الساحرة. تركيز بعضٍ منَّا، نحن الفحول القادمين من شرقٍ لم يبقَ فيه جمالٌ انثوي إلاَّ وتحجَّب. لم يبقَ إلاَّ الأتَان أن تُحجَّب.

جوع بعضنا إلى شقراوات أسوج جعل المعلمة ساندرا تتشمَّم رائحة الرغبة الذكورية من بعض طلبتها الذكور. رغبة بدأت تشُمَّها ساندرا عبر عيونٍ تتناطح فضولاً رغبةً نكاحاً في الصف المدرسي.

أعطتنا ساندرا ظهرها المشدود استقامةً؛ ظهراً مُجلَّساً على فخْذين نصف مُدوَّريْن يختبآن تحت بنطالٍ كتَّاني رصاصي اللون. أدخَلَت زِرَّ قميصها العلْوي في عرْوَته متجنِّبةً فجاجة عيون طلبتها الذكور.

نزلَ الصمتُ خجولاً على سلالِمِ وجودنا. أدركنا طَوْقَ الإرباك الذي حشرتنا به ساندرا، معلمتنا الطيبة. أغْلَقت، بهذه الحركة المتعمَّدة، عند تلاحم الزر العلوي لقميصها الزهري، وعروته، الشق اللحمي المُوارِبَ عند ملتقى زيقِ ثدييْها أعلى الرابية. أخْجَلَتنا. نثرنا تلصصنا عبرَ أسئلةٍ خارجة عن سياقِ موضوعة التمثال.

لم أُثِر انتباه ساندرا، ربما، كما البقية من الطلبة الفحول في الصف، في التركيز على ثدييها. كنتُ أختَلِسُ النظر إليها حين ترمي بعينيها إلى صورة الملك. لكن ما أثارني، فعلاً، الحَجَرة الفيروزية اللون في قلب خاتمها الفضي. حَجَرة أكثر اشتهاءً، وفضولاً، بالنسبة لي. خاتَمٌ يُطوِّقُ سبَّابتها الرفيعة بنتوءِ أظفَرٍ بلا صِباغ قد يصْلُحُ لخَمْشِ بعض ما تراكمَ، من حُلُمِ الأمس، من لغطِ بهلوانات صدام الجاثِمِ على صدري المصطبِغ بوحْمةٍ باذنْجانيَّةٍ متشظِّية جهة قلبي منذ الولادة.

دارت ساندرا، دورة حلزونية، حولَ كراسينا. عادت فتوقفت حذائي، جهة اليسار. رفعتُ رأسي إليها. قستُ المسافة بين كتفي وعظمة وركها اليمين الناتئ قليلاً من تحت بنطالها الكتاني. كانت لا تتجاوز مَتْنَ إصبَعٍ من أصابعها الرشيقات. ارتبكتُ، بعض الشيء، من فجاءة وقفتها. لماذا أنا بالذات خصَّتْني باقترابها مني؟

«يبدو أنك لم تفطر هذا الصباح، يا هرْميتس؟»، سألتني وعينها تُبصبِصُ على مربَّع السمورغوس الموضوع على طاولتي.

ضيَّقتُ، قليلاً، بين أجفاني. ضيَّقْتُ شفتي السُفلى مقضومةً تحت شفتي العليا. حركتي تلك حملت جواباً خَجِلاً عن تعبيرٍ غير واثقٍ من فجاءَةِ سؤال ساندرا. لم أستطِعْ الإتْيان بجوابٍ، آنَها، ولو همْساً.

استوعبت ساندرا ارتباكي فأكملت خطواتها إلى حيث اللوحة الخشبية المربعة في مُقدِّمة الصف.

«ما الذي أثار انتباهكَ، يا ريباز يزدو، في نُصب الملك غوستاف أدولف الثاني؟»، سألت ساندرا، الكردي الذي يُصِرُّ على الإجابة إنْ سُئِلَ:

«من أيِّ بلدٍ أنت يا ريباز يزدو؟»

«أنا من كُردستان»، بلا تحديد من أيِّ جهة هو، من جهات كردستان المنشطرة إلى أربعة كردستانات.

«الذروق المتعفِّنة على جسد الملك، هي ما أثارت انتباهي، يا ست ساندرا»، أجابها ريباز يزدو، رداً على سؤالها. «ذكَّرتني رائحتها برائحة ذروق قَبَج كُرْدستان التي تملأ الأرض هناك»، أضافَ ريباز يزدو.

ضحك زملاء ريباز يزدو على ملاحظته الغريبة تلك.

«ملاحظتك مُثيرة، يا ريباز يزدو. ربما نحتاج إلى إزالة ما علِقَ بجسده من ذروق. أليس كذلك؟»، أجابته ساندرا، ثم أضافت إضافةً تهكُّميَّة رقيقة، بلا استصغارٍ صاحبتها ابتسامةٍ رقيقة منها: «هو بحاجة إلى حمَّام بُخارٍ وتدليكٍ. سأرفعُ مقترحك هذا إلى إدارة المدرسة ليرفعوه إلى إدارة بلدية المدينة، كي يُزيلوا فضلات النوارس والغربان عن النُصب»، ردت ساندرا رداً جاداً مُستلطفاً على ملاحظة ريباز يزدو، للتقليل من بعض انفعال بدا على وجهه وزَّعه نظراتٍ استياءً على سخرية من بعض زملائه.

«الحمَّام والتدليك هو حلٌّ مؤقت، ست ساندرا»، أجابها ريباز يزدو، إجابة سريعة، رداً على مقترحها. ثم أضاف:

«كل المشكلة في هذه النوارس الكبيرة كأنها نِعاج وخرفان تطيرُ في سماء يوتبوري، وتزعق زعيقاً يَرِجُّ العظام. أنا أقترح، صوناً لمقام الملك أدولف وعدم إزعاجه وإزْعاجنا أيضاً، أن تُعْدَم كل النوارس للتخلُّص من ذروقها».

«إعْدام؟»، صُعِقت المعلمة ساندرا. نطقت الكلمة بتجهُّمٍ: «آهٍ، يا يسوع يا ابنَ مريم»، قالت مرتجفة. تطايرَ من عينيها الواسعتين باخضرار خفيفٍ، دَمْعٌ شررٌ رجَّفَ حاجبيْها الرشيقين. دمْعٌ صدَّعت به قلوبنا.

صمتت ساندرا. سادَ الصفَّ سكونٌ هبطَ ثقيلاً على كاك ريباز يزدو، صاحب المقترح القاسي، وربما كان أكثر ثُقلاً على أنفاس غوستاف أدولف الثاني أيضاً.

شعرتُ بحاجة إلى تغيير دفة السجال العفوي، الجاد، الذي دار بين كاك ريباز يزدو، وساندرا معلمتنا اللطيفة:

«عذراً أستاذة»، قلتُ لساندرا. «هل لي أن أعرف اسم أعلى قمة جبل في السويد؟».

«نادوني باسمي فقط. لا تُسْبِقوا اسمي بصِفةً. في السويد لا صفة لمهنة الشخص، لا ألقاب لأحد بدءاً من ملكنا كارل غوستاف، وزوجته الملكة سيلفيا، وحتى أصغر موظف في الدولة»، قالت ساندرا.

انتبه كاك ريباز يزدو إلى سؤالي المباغت، حيثُ سَبَقَ وأن سألَني، قبل يومين، إنْ كنتُ على علمٍ باسم أعلى جبلٍ في هذه المملكة. كان سؤالي مباغتاً، فعلاً، بالنسبة لساندرا ولبقية الطلبة الحاضرين. سؤال خارج عن سياق موضوعة درسنا.

من دون أن تبدي استغراباً لاستفساري المباغت، توجهت ساندرا إلى خارطة السويد المعلقة على الجدار الأمامي بالقرب من لوحة الكتابة «السبورة». هُما خارطتان، بالحقيقة: خارطة لسائر دول العالم، وأخرى تخص مملكة السويد. همَّت برفع العصا الرفيعة التي تستخدمها حين حاجتها في الاستدلال على شيء بعيدٍ عن متناول يدها.

باغتها «صدِّيق» اللاجئ الأفغاني بسؤال جعل ساندرا تحمَرُّ خجلاً من مشاغبات طلبتها التي تبدو مفتعلة، أو مُحْرِجة:

- هل كان الملك غوستاف أدولف شيوعياً؟

ضحكتْ ساندرا من بلاهة سؤال صدِّيق. وضعت العصا الخيزران على طاولتها. استغربتُ من أنها لم تؤجل ردها على سؤال

صدِّيق، ريثما تُجيبُ على استفساري المُباغتُ أيضاً. ردت على سؤال صدِّيق الضعيف البُنية، المتوسط الطول، بلحيةٍ شقراء خفيفة تتوزع على وجهه، بلا شاربين. لم يكن قد تجاوز الثلاثين عُمراً، حسب ما كشفه عن مواليده يوم تم التعارف بين طلبة الصف:

«هل كانت هناك أفكارٌ شيوعية في زمن الملك غوستاف؟»، قالت ساندرا. أضافت: «هذا الملك وُلِد، وعاش، وحكم السويد، وبنى يوتبوري، من نفس المكان الذي يقف فيه الآن. طارد الثعالب التي كانت تعيث فساداً يوم كانت يوتبوري عبارة عن غابة موحشة مظلمة من كثافة أشجار التنوب المنتشرة فيها، ثم ارتقى عرش المملكة حتى مماته، قبل أن يولد ماركس منظِّر الشيوعية، يا صديق. ثُمَّ، ما الذي أوحى لك بأن هذا الملك كان شيوعيا؟»، بادلت ساندرا صدِّيق سؤاله بسؤالٍ مُباغت.

«لأن الشيوعيين زرعوا كل شوارع بلدانهم بتماثيل لينين وماركس. والسويد مكتظة أيضاً بتماثيل ملوكها وقادتها، لذا خطر لي أن الشيوعية لا تستقيم إلا بإقامة نُصُبٌ لعظمائها ومنهم ملككم غوستاف أدولف الثاني»، ردَّ صديِّق.

التقطتُ من خلال إجابة ساندرا على سؤال صديِّق شيئاً مهماً عن دور وأهمية الملك غوستاف، له علاقة بالواجب الذي كلفتنا به عن هذا الملك.

ساد صمتٌ خجول بيننا. تبادلنا نظرات استغرابٍ من سؤال زميلنا الأفغاني. كسرت ساندرا نظرات استغرابنا ما أن عادت إلى سؤالي الذي ترتسم إجابته على تضاريس الخارطة:

«هنا أعلى قمة جبلية في السويد»، أشارت ساندرا بالعصا الرفيعة إلى حيث تضاريسُ جبلٍ شاهق:

«هذا جبل «Skanderna»، الذي يفصل السويد عن النرويج، ويقع في محيط مدنٍ قارسة البرودة شتاءً».

باغت كاك ريباز يزدو ساندرا بسؤالٍ غلّفه ابتهاجٍ فاضح على وجهه:

- كم المسافة من يوتبوري إلى هذا الجبل، يا ساندرا؟

«لا أعرف، بالضبط، المسافة، لكن يحتاج المرء للوصول إليه أربع عشرة ساعة بالقطار وساعتين بالطائرة».

صُدِمَ ريباز يزدو من هذه المعلومة.

«هل تُفكِّر في زيارة هذا الجبل، يا ريباز يزدو؟»، سألت ساندرا ريباز سؤالاً أربكه.

نظرَ إليَّ ريباز، نظرةَ استفسار إن كنتُ قد أسررتُ للمعلمة عن رغبته، وخططه، وأسباب تنقيبه عن مواقع الجبال في السويد. رفعتُ حاجبيَّ كناية عن عدم معرفة ساندرا برغبته التي تعتمل في داخله:

«ريباز يزدو»، كردي بسيط، تجاوز الأربعين بعامين. كان نصيراً في صفوف المقاتلين في جبال كردستان العراق ضد جيوش صدام والجحوش الكُرد. «بيشمرگه» شرس، ومُدمنُ تدخينٍ شرس. يحتدم، بصِدقٍ نقي، حين يتحدث عن فترة مشاركته القتال في صفوف الأنصار. يحفظُ تضاريس كردستان بجبالها وسهولها ومغاراتها وينابيعها عن خبرة قتال عشرين عاماً، كمقاتل ودليلٍ لرفاقه الأنصار. يتشمم عن بعد عشرات الأمتار منعطفات أدغالها وغاباتها وأحراشها.

يُسمي، بلا توعكٍ في ذاكرته، أسماء الأشجار المثمرة والحرجية وأنواع الزهور. يُعدِّد أسماءها بدهشةِ المتعطش إلى حنينها كأنه في صومعة اعترافٍ إلهية. ابنُ فلاحٍ كردي خبيرٍ في زراعة أشجار التبغِ في سهول تآلفت أرضها مع عشق الكردي للتدخين.

الأوامرُ صارمةً بوجه المدخنين في أروقة المدرسة، وداخل الصفوف. ذلك ما تُشير إليه علامة (X) على أصبع سيجارة رُسم على لوحاتٍ كارتونية مُدوَّرة وزِّعت في الأماكن الممنوع التدخين فيها. خُصصت غرفةٌ في الطبقة السفلى، للمدرسة، للمدخنين.

هزَّ رنيُن الجرس المدرسي جدران البناية إيذاناً لاستراحة أمدها عشرون دقيقة.

«نُكمل موضوعنا، عن تمثال الملك أدولف، بعد الإستراحة»، قالت ساندرا.

هرع بعضٌ من الطلبة المدخنين، إلى غرفة التدخين المجاورة لغرفة أخرى فيها مطعم صغير للمأكولات الباردة، والمشروبات الغازية، تتوزع فيها طاولات وكراسٍ في مساحة تستوعب أكثر من ثلاثين طالباً.

جلس كاك ريباز يزدو إلى جانبي. هو يعرف أني عراقي. في العادة يتم التعارف منذ اليوم الأول لانضمام الطلبة لمدرسة «SFI». الاسم المختصر لعنوان مدرسة «اللغة السويدية للاجئين»، المبتدئين في تعلم اللغة السويدية.

«أعرفُ أن لكردستان أربعة أرْداف متباعدة الاتجاهات، كل ردْفٍ بِصوبٍ، يا ريباز يزدو، فمن أي فخذ منهم أنت؟»، سأل زميلنا «رضا»

الإيراني اللاجئ، الخمسيني، الخفيف الشعر أقربُ إلى الصلع، كاك ريباز يزدو.

«نادوني «ريباز»، فقط، من فضلكم»، قال ريباز يزدو بانفعالٍ خفيف صاحبه نفثاً دُخاناً مما أحرقه من لِفافة التبغ التي ضيَّفتُها له. اختلط دُخانه بدُخان أنفاس الطلبة الآخرين الجالسين في الغرفة. «اتركوا أبي «يزدو» يرتاح في قبْره. هو يقْلَق كلما سمع صدى اسمه من بعيد»، أضافَ ريباز قبل أن يُجيب على استفسار زميله رضا. نقرَ نقراً خفيفاً على سيجارته قاذفاً رمادها في المنفضة الموضوعة في منتصف منضدتنا المدورة، التي سورناها بجلوسنا نحن الأربعة: أنا، رضا الايراني، كاك ريباز، والأفغاني صدِّيق.

«كردستان هي كردستان كلها»، أجاب ريباز رداً على سؤال رضا. حدَّق بانفعالٍ واضحٍ بوجهه. أضافَ:

«أرْدافُ كردستان تُخبئ غزالات أمي. جِجْلان أبي لا تأكلُ إلاَّ من شعيره وسمْسِمه. ترقُص كردستان على أرداف جبالها العصية على تنكيس رؤوسها. سنوات كثيرة من عمري «بيشمرگه»، بين جبالها ووديانها، لم أحس ولا لحظة أن لكردستان هواء غير هواء جميلاتها. رب الكرد خبأ مفاتيحَ أقفال كردستان في جيبه كيلا يسمح لأحد، كانَ مَنْ كان، أن يغلق أبوابها. الله يقلقُ إن سُجِن الكردي».

أخرج ريباز من جيب سترته السوداء السميكة الجلد عتلة يدوية مستطيلة تنتهي برأس مخروطي يُدخل المدخن فيه رأس ورقة اللفافة الفارغة من التبغ، ثم يضع نُثارة التبغ في مجرى محفور أعلى العتلة يعلوها غطاء يُسحب كما تُسحب عتلة المسدس فتمتلئ اللفافة بالتبغ

الذي يبتاعه المدخن معبأ بأكياس صغيرة. معظم اللاجئين يستخدمون هذه الأداة، العتلة، توفيراً للمال، فذلك أرخص لهم قياساً لسعر علب السگائر الجاهزة.

أشعلَ ريباز اللفافة. سحب نفساً عميقاً، نَفَساً نفثه دُخاناً حسرةً خارجاً من منخريه؛ نفساً نَفَسين أحْرَقَ بثوانٍ نصفَ سيجارته؛ نَفَساً وصَلَ أخْمَصيِّ قدميه. ألْصقَ ظهره بظهر الكرسي. نفثَ دُخاناً باعتدالٍ مكوناً دوائر دخانية خرجت من بين شفتيه الحنطيتي اللون. ضحك ضحكة غريبة. اعتدلَ في جلسته كَمَن يتهيأ لضبط إيقاع نسبه لكردستان الكبرى أمامنا. انطلقَ بثقة المقاتل الشرس. لم يقوَ على ضبط إيقاعِ الحجر الذي في فمه:

«لكردستان طيز واحدة، وضراطها يخرج من ثُقبٍ واحد»، ردَّ ريباز بامتعاضٍ غير مُبرِّرٍ، مصحوبٍ بانفعالٍ أحسستُهُ اعتداداً لانتماءٍ جغرافي شخصي مُفتعل. أكملَ حديثه بنبرة أقل حدَّة، حين قرأ ارتياحنا فيما نحن نُصْغي إليه بودٍّ وقبولٍ لا جِدال فيه بالنسبة لنا:

«كردستان مُعْجِزة إلهية. قد تبدو أردافها، الآن، متباعدة. لكن سيأتي اليوم الذي تتعانق وتتَّحِد، هذه الأرداف المعجزة، بقوة، بعد طول شقاءٍ خُضِّبَ بدمِ شهدائنا الكرد الأبطال. ستذوبُ كل الأجزاء النابضة التي تعلو هذه الأطراف، وما تشتت من أرض الكرد المجزَّأة، استعْماراً، متاهةً طويلة بين عراق صدام وعلي كيماوي، والأتراك العثمانيين، والفُرس الزرادشتيين، وما ضُمَّ منها عنوة لأصغر بقعة من كردستاننا الحبيبة إلى مستعمرة آل الأسدِ»، قال ريباز قوْلاً هتافاً فيه من الحماسةِ هزَّت جدران غرفة التدخين.

انتبهتُ إلى زميلنا «صدِّيق» الذي يتوسط جلستنا حول الطاولة الخشبية المستديرة يدخِّنُ بضجرٍ، ترتسم على وجهه امتقاعة حزينة مُكدِّرة.

«ما بكَ، ياصديِّق؟ هل أزعجتْك حماسة كاك ريباز عن (بلاد الكُرْد أوطاني)؟»، سألتُ صديق سؤالاً مغلَّفاً باستفزازٍ بريء أحكُّ به جِلْدَ كاك ريباز، ابتغاء أن يزيد من حماسته وهو في بلاد الاسكندناف فيما آلاف الكُرْد المساكين أمثاله ما زالت تُشرِّهُم وتقتلهم حروب كردستان الطويلة، بسبب من الصراعات المدمِّرة بين الأباطرة الأغوات زعماء العشائر الكُردية.

من يستمع إلى النصير ريباز، المقاتل الشرس، كما يدَّعي، من خلال ما سرده، سابقاً، والآن، سرْداً مُحْتَدِماً عاطفةً؛ سرداً ينزلِقُ حسرةً على ثلجِ يوتبوري من حنجرةٍ شرخها التدخيُن الشرهُ شرْخاً ملسوعاً بجمرِ الخيبة المرة فتَّقها حنينُهُ إلى «هولير»؛ سرداً خيبةً؛ إهانة، لا تسامُحَ فيها، أن يُسلِّمَ الكُردي المُعْتَدَّ بلباسه الشعبي: «السُتْرَةَ والشُروال، وحزام الخصر (البَشْتين)، وغطاء الرأس (الجمداني) إلى دائرة الهجرة في السويد.

«شعرتُ بقلبي ينمرد، يا جماعة، وأنا أسلِّمُ بندقيتي إلى أمي عندما أتوا بي إليها مُصاباً، ملغوماً بالحِقْدِ مهتزاً، مرتعشاً على ظهر بغلٍ نزل بي منحدراً من قمة جبل قنديل، أنزفُ مُصاباً بقدميَّ بأربعة رصاصات. نُقلت بعد أيام إلى مشفى في اسطنبول. عُولجتُ علاجاً سريعاً. أخرجوا الرصاصات اللعينات تلك. لم أستطع بعدها العودة إلى بيتنا. بعد أشهرٍ أضعتُ عددها هُرِّبتُ إلى السويد أعرجُ من قدميَّ ولساني. أعرجُ من قلبي الذي تقوَّست نبضاته وغدت ندوباً تتراقصُ في صدري».

نزلت دمعتان فضيتان من عيني ريباز. ارتعب من صمتنا و نحنُ ننصتُ إلى خلجاته التي غطاها دُخاننا غيوماً نفثاه بدقائق.

«ما بكُم يا جماعة مخترْعين»، قال ريباز. أضافَ «أنا ريباز. سأعود حتماً. سأعود إلى عشيقاتي فهن يتقبلنني أعرجَ كما أنا». أغلق ريباز، شقَّ الفجاءة التي ارتسمت على وجوهنا، وفتح شقَّ اليقظة حين صرخ: «ما بِكُم، ياجماعة؟».

صمت ريباز قليلاً. رقَّصَ بخفة كيس الشاي «الليبتون» في ماء كأسه الساخن. أشعلَ لُفافة جديدة من رأس جمرة لفافته التي انتهى حريق تبغها للتو.

أصبح حديث ريباز أكثرُ حميمية، حين أكمل كلامه، موصولاً بما سبقه، وأكثر هيبةَ، هيبةَ العاشق، سرداً يخرجُ مُجلجَلاً من حنجرته أنْسانا، نحن جلاَّسَهُ، شراسة وعنفوان المعارك التي شارك فيها؛ عاشقاً مُتغزِّلاً كأي رومانسي عذب مُترفٌ بخياله الطري؛ لاهِثاً يتغزلُ، بانسيابٍ عسليٍّ، بأرض كردستانه. يرتعشُ المنصتُ إليه من حفيفِ حرارة عاطفته الجيَّاشة لكأنه، الآن، يجلسُ، تحت عرائش أمه يُدخِّنُ لفافة الصباح مع «استكانة شاي». حيَن يصفُ، بذهولٍ مُفرطٍ بالفرح، شهامة أبيه وتحدياته للَّذين استهزأوا به في إصْراره على مهنة زراعة التَّبْغ أن يملأ سهول قريتهم، التي يُسوِّرُها جبلُ قنديل، هذه النبتة التي يصطادُ الكرد رائحتها الخضراء عن بُعد أميال.

ينقلبُ ريباز إلى رومانسيٍّ فحْلٍ حين يشطحُ مُتغزِّلاً بجَمالِ الكُرديَّات، بثيابهُن المزركشةِ، وهُنَّ يتمطَّيْنَ بفتح سيقانهن للريح كما

أيديهُنَّ، فتصطبِغُ سيقانهنَّ برغبةٍ فحلٍ تفضحها قهقهاتٍ يذرونها للريح بعيداً.

يعرفُ ريباز مواعيد استحمامهن عند النبع النازف من شرايين الحجر، فيقفزُ كالمذهولِ من مخبئه، إلى حيث مصدر القهقهات، يتلصَّصُ من وراء صخرةٍ أو عند خصرِ من قدم الجبل:

- هُنَّ أربعُ نجماتٍ، (گلاويشات)، يا جماعة، يأتيَن من قرية أخرى مشياً. أُقرفِصُ مرتجفاً في جحرٍ بين صخرتين. أنْزِعهُنّ، بعينيَّ المتعطِّشتيْنِ، الأوشحة أولاً، وأُبارِكُ عسلَ رِقابهن، ثم المآزر الرفيعة حول الخواصر، فأبارِكُ الحوضَ، ثُم (الفِقْيانة) ـ الثوب الطويل الذي يُغطي الجسد حتى أخمص القدمين، ثم يأتي دور القمصان الداخلية الطويلة، وأخيراً السراويل. خلاص.

نساؤنا القرويات لا يعرفْنَ اللبسان الداخلية، ولا يتعرَّفنَ على السوتيانات. كنتُ أرى كبْتهُنَّ يخرجُ حُمْلاناً تحبو على نجيلِ السَّفْح، فتبدأ طقطقة أعشاب الروح بنارِها تحت جُرنُ اللَّذة فوَّارة، مُنكَّهة برغبة الذكورة مُندلقة من جُرن الآهات.

فركَ ريباز كفيه بسطح بنطاله. استمر يدلقُ من روحه ذكرياتٍ يجلخُها بمِبْردٍ، لكن كمَن يُكابِدُ في أن يُقنِعَنا بصِدق حديثه حيثُ لاحظ التعجُّب على وجوه صدِّيق الأفغاني، ورضا الإيراني:

«نهودُ عارية إلا من حليبها، مطمئنة إلى ظلال أشجار الجوز والبُطم. نهودٌ بضَّةٌ مدورة كرؤوس البصل الأصفر الكبير المقطوف تواً. نهود تلسعها الشمس فيتقلَّبُ لونها لوعةً كزهر أصفرٍ، تارةً، وزغْفرانيٍّ،

تارة أخرى. نهودٌ تلبطُ مُشاكسةً خيوط الشمس المتسلِّلة عبر أغصان شجر البلوط. نهودٌ تُمرِّغُ نهوداً وقوفاً: «آآآآآخ»، صرخَ ريباز:

«لو تشوف، كاك هرميتس، كيف يهتز الجبل وسفحه من صدى تأوهات سُحاقيات الجبل ومن صدى صراخهُنَّ المعجون بالقهقهات. صدىً يشق الصخور فتنقلب على عجيزتها. تأوهاتهن تتشقَّق عن دِيْن الرغبة المكظومة. فتيات لم يتجاوزن السادسة عشرة من أعمارهن، أعمارٌ أسندها بخاصرتي وأقولُ: إليَّ أيتها الريحُ الكردية، وأُطيلَ النظرَ، كالأهْبَل، أخرسَ.

«وَيْ وَيْ وَيْ»، يتقلَّبُ صوتُ ريباز حماسةً: «أما حَلَماتهن، فيسيلُ منها حليبُ اللوز الأخضر مُقشَّراً بلُهاثِ ألسنتَهُنَّ فتنتصبُ كحبات الكرز، تنتعظُ ارتعاشاً لا تخذلها النشوة حتى السطوع المستثار بفعل الآه يخرجُ طويلاً صُراخاً؛ آهاً بليغاً فتُولوِلُ اللَّذةُ «وَلْ وَلْ وَلْ».

نطقَ ريباز الولْولةَ نطقاً محترقاً، عاصراً ما بين فخذيه: واااااه. ناثراً حِممهِ كأنه ينثرُ أمامنا صوراً يُقلِّبُها صفحاتٍ من مجلات البورنو التي يبتاعها من مكتبات المدينة في يوتبوري:

«آآآآآخ، كاك هيرميتس»، فأضحكُ مستغرباً لِمَ يخصُّني أنا بحكاية تغزله بصباياه الكرديات: «لو تشوفُ»، يُضيف ريباز، شنو يعني كردية تجدل عانة صاحبتها حين تُبلِّل أصابعها بلعابها وتفرك به شعر عانة رفيقتها ثم تبْرُمهُ جدائل بين قهقهات وتأوّهات. شلون تريدني أصْبر. كنتُ أُصَفِّرُ، لهنَّ، صفيراً خفيفاً فيتقافزنَ كالقطط، ويقعْن على قهقهات بعضهُنَّ ويخْتَفيْنَ خلف أجمات البلوط».

دخلت، فجأةً، ساندرا غرفة التدخين. ارتبك ريباز. رمى حقيبته الجلد السوداء الصغيرة على مجلات البورنو الموضوعه قُبالته على

الطاولة يُخفيها عن عيون المعلمة. انتبهت ساندرا إلى حركة ريباز. لم تُعِر بالاً، ولا فضولاً، لمعرفة ما انطَمَرَ تحت حقيبة كاك ريباز.

«يبدو أنكم منسجمون في الحديث في جلستكم هذه، يا رِجال». وقفنا بارتباك سعيا منا أن نرتقي الدرج إلى الطبقة الثانية من المدرسة حيث صفنا. فاجأتنا ساندرا:

- اجلسوا. أو انصرفوا، كما تشاؤون. لن نُكمل درسنا لهذا اليوم. سأخرج في مهمة طارئة إلى خارج المدرسة. أراكم في الغد. لا تنسوا التفكير في الواجب الذي لم نُكمل حديثنا عنه. مع السلامة.

خرجت ساندرا من غرفة التدخين، وخرجنا نحن من الإحراج الذي كاد كاك ريباز أن يُوقعنا فيه.

«يا ريباز، يا أخي العزيز، لقد حرقت روحك وأنت تُحدثنا عن مراهقاتك وأنت تتلصَّص عليهن، أي كُنت تسرُق حريَّتهن، أنا متأكد لو أنك نكحت إحداهُن فلن تتكلم بنفس الحماسة البادية عليك الآن التي جعلتك تحرق سبع لِفافاتٍ من تبغك الثقيل، الغريب الرائحة، ويبدو عليك أنك لم تقْرِب امرأة منذ زمن طويل»، قال رضا ببعضِ عتابٍ مدبوغٍ بإحراج ارتسم على وجهه خجلاً من أن تكون المعلمة ساندرا قد رأت مجلات البورنو على الطاولة.

«ها إني أنكح الصور الملونة الجميلة التي أراها للمرة الأولى في حياتي، شقراوات أوروبا ألْحسهُنَّ مثلما ألْحسُ «الآيس كريم». ردَّ ريباز رداً منْفعِلاً على كلام رضا.

مدَّ صدِّيق يده محاولاً سحب إحدى المجلات من أمام ريباز. مسك ريباز يد صدِّيق قابضاً عليها بقوة:

«لن أسمح لكَ، يا صدِّيق أن تُبصبص على عشيقاتي، يا سليل طالَبانْ»، قالها ريباز يُناكِف صديِّق بشيء من المزاح الرقيق جعلنا نغصُّ ضحكاً. مسَّد ريباز شاربيه الكثَّيْن المصفرَّيْنِ بفعل دُخان سجائره، اللذين يُغطيان شفته العليا.

«هل المدرسة، يا ريباز، مكانٌ لمجلاتك الخلاعية. كيف تحملها معك إلى هنا؟ أتُريد أن تستمني في المدرسة أيضاً؟»، عاد رضا، الإيراني، الخمسيني الوقور يؤنِّبُ ريباز تأنيباً أخوياً فرضهُ وقار الفارق بين عمره وأعمار زملائه.

رمى ريباز إحدى المجلات على صدِّيق:

«خُذْ، يا ناكِحَ الأُتُنُ الفرعونية في جبال كابول. خُذ تصفَّح وتفرَّج، لكن انتبه لخصيتكيك من أن ينفجرا».

قهقهاتٌ عالية وزَّعها ريباز غَمامات دُخانٍ في الغرفة، استكملها صديِّق بضحكة متقطعة كأنه يُقطِّعُ بالسكين المنشار قالبَ خبزٍ سويدي. عاد ريباز معتذِراً عن تصرُّفٍ لم يقصده:

«نسواني، يا جماعة. نسوان الجبل أنسوني أن أُعيد المجلات إلى حقيبتي. الحمدلله لم ترَهُم ساندرا». سحب مجلاته. فتح الحقيبة ورماها فيها.

الفصل الخامس

مواجع السبَّابة وهذيانها

غبارُ كابوس صدَّام سمَّمَ فاكهة منامي - الحلم - نزلَ ثقيلاً، مُضرَّجاً بشرودي الثقيل من أصْله. كبسَ على ذِهني فأحسسْتُهُ مُفَرْمَلاً، معصوباً، بشريط ماضٍ مرعب، ذاك الماضي الذي يضطجع على سكَّةِ أعوامٍ، منذ لحظة ركبتُ فيها قطار المعقَلِ. قطار اللاعودة. باتجاه بغداد في رحلةٍ أبدية إلى خارج العراق.

كابوس أُفلِتَ من عرينه فأغرقني بعرقٍ لزجٍ، مُرجِّفاً جسدي الصغير النحيل. صحوتُ على تشنُّج أصابعي وهي تخْمُشُ ملاءَتي خمْشاً ودعْكاً.

صحوتي مزَّقت كابوسَ المنام الذي تطشَّرَ لهاته شظايا بسلاح الفزَع المتراكم في داخلي منذ سنين، قرعاً على صنوج الحِقد سارَ نهراً دماً مذ قرَّر صدام أن يقتلع من أمامه كلَّ من يقرأ في عينيه إشارةَ اعتراضٍ أو عدمِ رِضىً.

صحوت عند النقطة الأشد قرعاً بسلاح المماحكة اللسانية بين غوستاف وصدام.

رواية «سالْنجر» كانت قد انزلقت من يدي على الأرضِ فيما سبابتي اليُمنى تُشير إلى غلافها. جسدي ممدَّد بالعَرْض على السرير. رقَبَتي متدلِّية ومتأرجِحة في الفراغ ما بيَن الأرض والسرير.

سحبتُ جسدي، بتثاقُلٍ أَصَم، من تحت غطاء السرير. حاولتُ تهدئةِ دقات قلبي المتسارعة ارتجافاً. عواءُ باخرة المسافرين القادمة من «Kiell»، أيقظَ حواسِّي المشتَّتة.

تناولتُ ورقة الملاحظات المرمية على الطاولة، بعد استحمامٍ سريع، وارتداء ما يتناسبُ وشتاء يوتيبوري.

كابوسُ حُلُمَ الليلة الماضية الذي بطشَ بمزاجي عند صحوتي، أول الفجر، أخذَ يتراجع وراء خُطى الناس العابرين الطُرُقات، ووراءَ الذين يُرافقونني إلى الحافلة الترام التي ستُوصِلُني إلى «ساحة البئر». أن نلتقي ببشر نُحِتوا نعمةً من لحمٍ، ودمٍ، وأخلاقٍ من خصالِ طِيبةٍ وهدوء يشاركوننا هذا العالم، يُنسينا بعضَ كوابيسَ تشرَّبت آدميتنا من عالمٍ آخر، تركتهُ ورائي هرباً قبل سنوات طويلة بدأتُ أنسى عدَّها.

كان صباحي صباحاً ضبابيًّا معجوناً بالرماد، شبه معتم، من أيام كانون الأول، الشهر الذي تنخفض الحرارة فيه بسرعة ويزداد تساقط الثلوج . تجمعنا، عشرة طلبة من لاجئين جُدُد في مملكة «آسوج»، من بلدان مختلفة، على بُعْدِ مترين ، تحت ظلِّ تمثال الملك غوستاف أدولف الثاني البرونزي. لوقفته العسكرية الشامخة جلال وشموخ: جسدٌ ضخم. ملكٌ متيُن القامةِ برأس يعتمِرُ قبعة وبدلةً تتناسقُ مع إطلالة وقفته، لا رهبة في عينيه، بل اقتدارُ القائدِ الواثق من رفاه البرونز الذي صُبَّ منه. ملكٌ ينظرُ إلى البعيد مطمئنًّا. قبعته بقنزعةٍ ريشٍ ترميزٌ لكون هذا الرجل من سلالةٍ عائلةٍ ذات مقامات. يدهُ اليسرى تتكئُ على الخصر، أما اليمنى فراحت تمتدُّ على هيئة شبه عمودية بسبابةٍ متحفِّزة تشيرُ إلى الأرض، كأنها تفصحُ عن سِرٍّ. ربما إشارة رؤيا لي تهجسُ: «خاتمةُ مشيئتي هنا».

ما السرُّ في فِعْلة هذا الأصبَعِ - السبَّابة - دون سائر الأصابع؟

إنَّهُ الأصبع المفكِّر عندما ينتصِبُ على الصَّدْغِ.

إنه الأصبع الإبْهام عندما يرتخي تحت الفَكِّ.

إنه أداةُ تعبيرٍ عن القلق عندما يُدوَّرُ في الأنف.

إنه أصبَع التهديد والوعيد عند الشدَّة. رفعةُ صدام كثيراً بوجوه من شم منهم رائحة مكائد مُضمرة. كانت سبابته تهزُّ شاشة التلفاز في مناسبات كثيرة. هي سوطٌ يضرب به مَن يقلقون راحته، ويُرجِّفُ أولئك الذين ينظرون إلى عرشه بحسد. عنفوانه الذي تَسْتِره ستارة الشر يختبئ وراء سبابته قبل أي لقاءٍ مع حاشيته. يُجلِّسُ سبابته أمامهم ويدعوها إلى محاورتهم منسجمة مع نظراتٍ تتقلَّب يُمْنةً ويُسرة، يصقلها ويجعلها متوتِّرة وجاهزة للإنقضاض قبل البدء في أيِّ أجتماعٍ، أو لقاء مع الآخرين. يجس نبضها أهي مترددة، مرتجفة؟ يُمرر عقدتها في أنفه في خلوته، قبل أي لقاء مفتوح. يشمها. يتنشق بقايا رائحة السيگار الكوبي العالق بها مروراً بين شفته العليا وأنفه.

سبابة الملك غوستاف لم تُثِرني. كان يُشيرُ بها إلى الأرض، ووحدها كان لها قيمة في ذاتها. بدت سطوتها أكبر من حجمها. هنا يكمُن المأزق، حين أتخيل حركة السبابة حالما يصمت اللسان فتُبادله مهمته في الإفصاح عمَّا يبغي أن ينطق به.

إشارة من السبابة قد تحل إشكالاً عصياً على الفهم في ما يدور على اسطوانة اللسان.

إشارات الوعيد التي كان صدام يُرسلُها من سبابته، بين مناسبة وأخرى، مُجسِّداً فيها نزْوتَه تعبيراً عن نقصٍ يوقظ وحشيته تسلُّطاً، مستمتعاً بفرادته التي كلَّما تميَّز بها كلما ازداد خطورة وهشاشة. تلويحه، عبر سبابته، هي تلويحة العاجز في أن يُرضي الآخرين، مستميتاً كي يورِّثهم عذاباته التي عاشها منذ طفولته كنوع من الاقتصاص، غسلاً للآثام التي ارتكبها أو، ربما، ليتساوى الجميع في حمل الآثام.

أحدثت جرحاً عميقاً، سبابة الدكتاتور الغليظة، في شغاف قلبي لمدة طويلة، ولم يلتئم هذا الجُرح، لكن الأنكى من ذلك، تحول إلى نُدبةٍ صغيرة مدوَّرة خرجت لتستقر فوق الضلع الأيسر القريب من ترْقوتي.

أفزعتني، هذه النُدْبة، فحرَّضَتْ سبابتي اليسرى على حكِّها. أحسستُ بصلابتها. كانت بتدويرٍ تتحرك تحت الجلد بلا ألمٍ. بلا نتوءٍ خارجي. تركتها على أن استشيرَ طبيباً لاحقاً.

الأورامُ نارها صمَّاء. حيرتها كحيرة الموت الذي يعبثُ بالجسدِ بهذيانٍ صامت.

في صباحٍ زمهريري، من صباحات تعلم السويدية، حيث الثلج يُغطي نصف مساحات زجاج شبابيك الصف بتراشقٍ همجي عبر هواءٍ ثلجي جعل معظمنا يقرفصُ جلوساً على الرغم من الجو الدافئ في الصف. مِناً من وضع يديه في جيوبه ومناً من أخذ يفركها، والبعض الآخر يضعها تحت فخذيه، باغتتْنا المعلمة ساندرا بطلبٍ غريب:

«لو سمحتم، يا طيبين، أن يرفع كلٌ منكم سبابته اليُمنى عالياً». انتشرت في القاعة نظرات استغرابٍ منا. نظراتٌ تبادلناها، تطحنها ابتسامات، تطايرت لتستقرَّ على سبابة كل واحد من العشرة الجالسين خلف كراسيهم.

ارتفعت سباباتنا، بعد تهجٍّ خليطٍ اقتنصتهُ ساندرا من دهشتنا المفاجئة ارتسم على وجنتيها، راقبته حركات من عينيها يميناً وشمالاً تَعُدُّ السبابات التي نطَّت في الهواء من أيدِ تلاميذها.

سبابةٌ واحدة شذَّت عن البقية. سبابة صديِّق الأفغاني. الوحيد الذي رفع سبابة يدهُ الشمال.

قرأت ساندرا، بتعجبٍ الاختلال الغريب، الوحيد، الذي قام به صدِّيق. انتبهت إلى أنه يُخبئ يده اليمنى تحت فخذه.

- ماذا، ياصدِّيق، لِمَ تلعبُ معنا مُحدِثاً ثُغرةً شاذة في رفع سبابتك اليسرى؟

نطقَ، كاك ريباز، بلا مقدماتٍ، أو اعتذارٍ:

«صديق محسوبٌ على المعارضة. هو يَساري من جماعة «نجيب الله»، أليس كذلك يا صدِّيق؟»، أنهى ريباز تعليقه رامياً سؤاله رمياً مباغتاً على زميله صدِّيق الأفغاني.

لم تُعلِّق ساندرا على فضول ريباز، حين أقحم نفسه مُفسراً من دون دليل منطقي لتصرف صديق.

«سبابتي اليمنى انتحرت»، ردَّ صديق، توضيحاً، على الاستغراب والإثارة اللتين نشرهما في قاعة الصف مُبقياً سبابته اليسرى مرفوعة في الهواء.

«انتحرت؟»، سألته ساندرا متلعثمة اللسان من هول الصدمة التي فرقعها صديق ببرودٍ مَهول.

«كيف انتحرتْ سبابتك، يا صديق؟»، رمت ساندرا سؤالها استكمالاً للمفاجئة التي دحرجها صدِّيق أمام الجميع.

«سبابتي اليُمنى انتحرت». نعم انتحرت. هكذا ببساطة انتحرت كبَساطة كلمة انتحار التي أنطقُها الآن. انتحرت ندَماً على المهمات التي أُجبِرَت عليها ونفذَّتها. انتحرت عندما ارتأت أن عليها أن تتوقف عن ارتكاب المزيد من الجنون». أكملَ صدِّيق توضيحهُ بصوتٍ منكسرٍ

حزناً جعلَ عيني ساندرا تحتشدان بدمعٍ كاد يطفرُ أسى. أضاف: «أما كيف ولماذا فهذه حكاية طويلة».

لم أستغرب أنا من كلام صديق. لاحظت فقدان سبابته اليمنى منذ تعارفنا للمرة الأولى، قبل أسابيع حين تصافحنا فغرِقت أصابعه الثلاثة الباقية في يدي اليمنى لم يُسْعفها إبهامه الذي ضغط به على ظاهر كفي. أعرفُ قصصاً مثيلاتٍ لها، لذا لم أستغرب ولم أسأله عن مصير سبابته اليمنى.

لم تشأ ساندرا، معلمتنا الممتلئة رقَّة تُحسد عليها، أن تُحرِجَ صدِّيق، ولم تطلب إيضاحاً أكثر مما قاله بصدد انتحار سبابته اليُمْنى. لا شك أنها تُقدر عُذر صدِّيق بقناعة كاملة.

ماذا تنتظر ساندرا من لاجئ قادمٍ من أعنف حربٍ دارت وتدور في طول أفغانستان وعرضها.

«لا بأس، أخفضوا أيديكم»، أشارت ساندرا إلينا إشارةٍ رقيقة من يدها. «طلبتُ منكم رفع سباباتكم تذكيراً بسبابة الملك غوستاف أدولف التي يُشير بها إلى الأرض، فماذا يقصُد بإشارته هذه، يا أعزائي؟».

رفع «سَمْعان»، الشاب اللبناني ذو الثلاثين عاماً الذي التحق مؤخراً بدروس تعلم السويدية، يده باتجاه ساندرا مستفسراً مقاطعاً إشارتها إلينا عن رمزية سبابة الملك.

«سمعان» شابٌ متوسط الطول، خشن العظم، مستدير الوجه بشدْقين طافحين سمنة بياضاً، بعينين عسليتين. مبالغٌ في أناقته، يبذلُ جُهداً في أن تكون تصفيفة شعره الأشقر متناسقة ومتلاصقة بفضل معجونَ الجِلْ الذي يُغرق به شعره. عرَّف نفسه أنه ماروني من

لبنان. وزيادةً على تأكيد مارونيته ترك الصليب المربوط بسلسلة ذهبٍ تُطوِّقُ عُنُقه واضحاً للعيان، حيث عروة قميصه العليا منفلتة عن زرِّها، فيُظهِرُ الصليبُ متأرجماً عمْداً على شُعيرات صدره الشقراء النافرة.

«لِمَ الملك غوستاف أدولف يُديرُ خده إلى اليسار صاغراً. أهو كاثوليكي؟ أيُطبِّق مقولة ربنا يسوع: «من صفعك على خدك اليمين أدِر لهُ الثاني؟»».

رمى سمعان سؤاله كمَدْحٍ يُدغْدِغُ مارونيَّتَه على مسامعِ ساندرا التي فاجأها سؤاله.

عادت ساندرا تجلس خلف طاولتها الخشب مُبديةً استغراباً من محاولة بعض طلبتها الابتعاد عن صُلب أسئلتها، تود أن تسمع إجابة لها بخصوص سبابة الملك غوستاف أدولف:

«لا أعتقدُ أن جلالته، الذي يُنبئُنا بهذه الحركة، أنه يرمي إلى تطبيق مقولة يسوع. هي استدارة ربما تقصَّدها النحَّات أن يجعل رأس الملك مُهيباً في وقفته، مُقتدراً على حُكم مملكته»، ردت ساندرا على استفسار سمعان. أضافت:

«ليس لتمثال الملك في الساحة الرئيسية للمدينة إيَّ بُعدٍ دينيٍّ، فمنذ تأسيس مملكة السويد، وتعاقب الملوك على حكمها، كان هناك ولا يزال فصلٌ تام للدين عن الحكم المدني الديمقراطي لمملكة أسوج».

ضغطت ساندرا بكلتا يديها على حافة الطاولة. رفعت جسدها وقوفاً ممعنةً تحديقاً بجميع طلبتها. رفعت عصاتها الرفيعة إلى صورة تمثال الملك غوستاف. ثبَّتت رأس العصا المدبَّب على السبابة اليمنى من يد الملك. قالت:

- والآن، يا أعزائي، من منكم يوضح لي، من دون أي سؤال خارج عن سياقِ سؤالي هذا: ما الفكرة من وراء سبابة الملك غوستاف وهو يُشير بها إلى الأرض؟

ساد صمتٌ غريب بين الطلبة. نظرت ساندرا نظرة استجلاءٍ على الجالسين. لم ترَ أحد يرفع يده للإجابة على سؤالها.

«ربما القصد من ذلك أن الملك يُريد أن يقول لكل من يطأ أرض يوتبوري، التي ساهم في بنائها بعد أن كانت غابة، والتي يقفُ عليها، هي أرض، وموطن كل قادمٍ جديد إليها»، أجَبْتُ ساندرا، إجابة، غير واثقٍ من أن تكون صحيحة، مستنبطاً هذا الرأي من العدد الهائل للاجئين الذين يفدون يومياً طلباً للجوء.

«إجابتُك، يا هرميتس، فيها بعض من الصواب»، قالت ساندرا بصوتٍ مرتفع النَّبر فخْراً. «نعم»، أضافت ساندرا، «هي أرضُ لكل البشر المضْطَهدين في العالم، لكن زمن غوستاف أدولف لم يكُن زمن لاجئين يفدون إلينا. المعنى الرمزي لإشارة سبابته أن هذا الملك العظيم وقف قبل مئات السنين في نفس المكان الذي ينتصب تمثاله اليوم، وأشار بسبابته قائلاً: «هنا سنبني يوتبوري».

الفصل السادس

وَحْدُنْ

انتابني فضولٌ مُفاجئ. فضولٌ يرتعشُ في رأسي، وينهشُ مزاجي، مُدغدِغاً فهرنهايت كآبتي يطلع سُلَّمَ درجاته شحطة تُزيحُ التي قبْله ، خَدْشاً، أو تقْشيراً، عَتَبة بعد أخرى.

تماوجت عتَباتُ المزاج تدحرُجاً خفياًّ كتماوجِ سُلَّم اللحن الموسيقي الخفيف لتلك الأغنية الفارضة فضولها على مَسامِعَ الراغب أو المعْتَرض.

العِنادُ السقيم، المفروض فرْضاً، دون الأخذ بالاعتبار رغبات البشر الساكنين في عِمارتنا الهادئة، سَحَنَ غيْضاً مُسْتطاراً، رغْبي الدفين مُرجِّفاً عزلتي وحنيني.

فُزعتُ، أنا المعروفُ بطبعي الرائق، غير المتعجِّلِ، عموماً، في الزحفِ وراء أيَّة أفكار أو تصرُّفٍ غريب. لستُ عجولاً في الحسم، أحذرُ المطبَّات.

تحولٌ أخذتُ أحسه على جسدي، وأنا أتشمَّمُ طقس، وهواء، وكآبة الوجود الجديد، الآخِذ بحَكِّ لون جلدي، ذي السُّمْرةَ، تَقْشيراً، ببطءٍ أخرس دونَ أن أوليه انتباهاً، ميْلاً إلى البياضِ الخجولِ. التحول في سحْنة الوجه أكثر احتمالاً في اكتشاف تحولاته الجديدة. كلما حلقتُ ذقني يأخذ وجهي في الميْل إلى البياض أكثر. كنتُ أتحسَّسَه بأنامل أصابعي، لكن ذلك لم يكن ذا بالٍ عندي، أو حَماسة، هو طَبْعٌ من طِباع الطقس والمكان البارد حيثُ تشحُّ الشمس.

أكثر ما كان يُشغلُني، التفكير بما سيؤول إليه مصيري، مصير الغريب اليوناني الحلو، كما وصفتْني أليسيا السكيرة مرة. لابُد لي من فتحِ أبوابٍ جديدة مجهولة المصير في بلاد الـ (Sami) .

فضولٌ من نداءِ الغريب إلى الغريب نعمتهُ أقربُ إلى روحي أخذ يحوِّمُ فوق رأسي كعقعقٍ منفوش الريش. فضول اكتشاف الشخص المغرم بأغنية فيروز: «وحدُن». فضولٌ بدا رائقاً لي، في الأيام الأوَل من دوران اسطوانة أغنية وحيدة، في طبقات العِمارة.

الأيام تطحَنُ دقيقَ الوقت، بمطحنة الضجر والكآبة. أصبح الأمرُ ينتقلُ من إحساسٍ بارد إلى دخول مرحلة الغليان.

خفتُ من تبخُّرِ بقايا ماء صَبْري، فأنفجرُ. قلتُ لنفسي: فَلْأَعْتبرها نزوة من نزواتي الوقحة لكشف السر، أو نعمة من نِعَم كسر الضجر المطحونِ في غَمامِ سماء يوتبوري الكابوسي الذي يلهثُ كلسانِ كلبٍ هائجٍ بوجه الضَّجر.

فضولٌ سوَّر مزاجي، فلِمَ أنا مُجبرٌ، وبالقوة المخفية وراء إصرار شخص ما أن يُسمعني ما لا أرغبُ سماعه طيلة الوقت؟

ليس من طَبْعي أن أضْجَر بسرعة، فأنا أميلُ إلى الوحدة حتى في وسط الجماعة. مُتمرِّنٌ، منذ الصِّبا، على الالتجاء إلى قراءة الكُتب، لذا لا أملُّ. لكل كتابٍ عندي عالمه المدهش، حتى الكُتب المضجِرة لها متعة تُخفِّفُ من وطأة مَلَلي. ليس من السهل على كاتبٍ ما أن يؤلف كتاباً مُضْجِراً حتى وإنْ نحتَهُ، عمْداً، بضجرٍ مُملٍّ من خياله المملّ.

ولكلِّ حالةٍ من حالات ضجرِي سلَّمٌ طويلٌ لا ينتهي إلاَّ بأسئلةٍ تُحيِّرُني، فأحاول أن أتسلقه للظفَرَ بجوابٍ قد يكونُ موجوداً في ظرفٍ مغلقٍ دُسَّ في شقٍّ، بلا تعيين، بين العتبة الأخيرة ونهاية رأس سُلَّم الوجود.

من لي كي يُساعدُني للإمساك بمصدر هذه الأغنية التي تُناطِحُ مزاجي، ورقَّاصَ قلبي، من وراء جُدران إحدى الشقق؟

كلَّما أجرؤ على تتبُّعِ المسارِ إلى حيث شقة «وحْدُن»، أرْتطِمُ بخيطٍ سميكٍ من خيوطِ خجلي، فأصرِفُ النظر علَّ سبباً ما يُنهي هذا الإصْرار العجيب.

خجلي من خيال البِلَّوْرِ المتشظي لا يُمسَكُ لهُ فكرة.

الآن، هنا، في يوتبوري، أخذ خجلي يخِفُّ، يتعرى ببطء، لوحده، بلا فلسفةِ أو حِكَمٍ، أو نبوءاتٍ تُثيرُ مطامحي. أهجسُ، أحياناً، أن خجلي خياليٌّ، مُبالغٌ في تسامُحه. لمعُ سيوف خيالاتي المغْمودة في عقل المتعة ترمي بأنين شظاياها حُرَّةً بلا رقيبٍ أهوج. الجريء مَنْ يستلَّ سيوف خياله الخشنة الهاجعة في أغْمادها فيَسنَّها بمبردِه الوحشي قارعاً طواحينه سيفاً بسيف. أأكونُ، فعْلاً، أنا ذاك الجريء؟

«تحتاجُ إلى وقتٍ، وعَوْنٍ. اسكُبْ لي قليلاً من حيائك في كأسِ نبيذي، أيها الغريب الحلو. الخجلُ خُسرانٌ. الخجلُ فضيلة الصعاليك والمنبوذين، يا هرميتس. اشرب أكسير الكحول كي يجنَّ خجلك ويخلع ثيابَ الغُربة»، قالت أليسيا توشوشني، في واحدة من نصائحها تحت تمثال الملك.

حاولتُ، في معارجَ لغْوِي الداخلي الذي لا يستكين، أن أتسلى. قلتُ: فلأتسلَّقْ سُلَّمَ فكرةٍ واحدة، على الأقل، من أفكاري المتطاحنة في جُرنِ وحْدَتي وأقرع جدرانها وأوْقِظَها من عزلتِها، فقد تُفيِّقُ البقية من أخواتها الأفكارُ قبل أن أتبلَّد.

لابُدَّ من سرٍّ إذاً. أيُعْقَل؟ أيُغرم الإنسان بأغنية واحدة فقط؟ فضولي يحثُّني إلى معرفة عاشق إغنية فيروز بأسرع وقت. لِمَ يُردِّدها، بطبقاتٍ صوتٍ يعلو وينخفض حسب مزاجه نهاراً، وحتى آخر المساء حين تصمت فيروز، ويذهب الذين هُم «وحدُن» ليخلدوا إلى النوم؟

أخذتُ أشفقُ على ذلك العاشق الأهوج، فلابُد من سرٍّ يجعلهُ يتعمدُ تكرار الأغنية.

استطعْتُ تحْديدَ، وأنا أوجه رادار أذُنيَّ إلى مصدر الصوت. إنه يهدرُ من الطبقة العليا، وتقريباً جهة الشقق التي تطلُ على الشارع الرئيس من بنايتنا الخضراء بطبقاتها الثلاث، حيث تتقلَّبُ أرْضاً أصوات عربات الترام، المُسيَّرة بالطاقة الكهربية، على السكك الفولاذية.

فكرتُ أن أتسلل إلى الطبقة العليا مُتتَّبِعاً مصدر الأغنية، من أية شقة يأتي.

قطعت تردُّدي، وارتقيتُ السُلَّم. مشيتُ في الممر الطويل المضاء طيلة الوقت بمصابيح بيضاء، مدوَّرة، مزروعة في السقف الأصفر الصقيل، تصطفُّ على جنباته شقق بأبوابٍ خشبٍ بُنِّية مغلقة، أربع شقق من الجانب الأيمن تُقابلُها مثيلاتها على الجانب الأيسر.

يقتربُ الصوت مني كلما زحفت خطواتي أكثر إلى الأمام. وصلتُ إلى حيث مصدر الأغنية هادرة من الشقة الأخيرة الواقعة إلى الجانب الأيسر.

رجَّفني الخجل خوف أن يُفتح باب الشقة، فجأة، وأنا أُقرِّبُ أُذني إلى حيث الباب الموصد.

أسمع هدير صوت فيروز، الآن، أقوى. مددتُ يدي محاولاً كبسَ زر جرس الباب. لم أجرؤ، فتسمَّرتُ في مكاني.

طرأت، بغتةً، فِكْرة في رأسي : لِمَ لا أخرج إلى الشارع حيثُ يُطلُ شُباك الشقة؟

عدتُ إلى شقتي. تناولتُ المظلة، شممْتُها أتأكد إن كانت رائحة أليسيا ما زالت عالقة فيها. قلتُ أستعين بالمظلة، أستظلُّ تحتها، خوف أن ينكشف فضولي، وأنا أنظر إلى حيث شباك صاحب الشقة.

لم أصل إلى أيَّة إشارة تُرضي فضولي. الشُباكُ مُسدلٌ مُغطىً بسِتارة من القُماش المخمَل أزرق اللون. كرَّرتُ الأمر لإسبوع والنتيجة ذاتها.

تطبَّعت أُذنيَّ على هدير «وحدن». نسيتُ الأمرَ، تقريباً وأنْستني انشغالاتي اليومية، حيث أقضي معظم نهاري، بين المدرسة والتردد على المكتبة المركزية للمدينة، أُقلِّبُ الصحف العربية القليلة، وأُراجِعُ متطلبات الواجبات التي تخص اللغة السويدية.

أخبرتني، في إحدى زياراتي لمكتبة المدينة المركزية، الموظفة المشرفة على إعارة الكُتب أن باستطاعتي تجديد إعارة الكُتب شهراً إضافياًّ بعد انقضاء الشهر الأول لإعارة كل كتاب.

أصبحتُ زائراً شبه دائم إلى المكتبة المحاذية لبناية المسرح الوطني، ولمتحف الفن التشكيلي الذي تقع خلفه معظم كليات جامعة يوتبوري، بما فيها معهد اللغة العربية الذي يُشرف عليه أساتذة من المستشرقين السويديين.

نظرتُ بدهشةٍ غريبة، وأنا أقف في الباحة الخارجية للمكتبة، إلى النُّصْب البرونزي الضخم لسيد البحار السبعة «بوسيدون»، يتوسط الفضاء المفتوح ما بين المكتبة والمتحف وبناية المسرح، بجذعيه: العلوي والسفلي متكاملاً رجولةً، عارياً بتمامه كاشفاً عن أعضاءه الذكورية بطريقة لا تدعُ المتوجِّه إليه يختلِسُ النظرَ اختلاساً سريعاً. ينتهي جسدهُ بقدمين من ذيل سمكة. حضرت الهذَّاءة أليسيا متوارية خلف التمثال، على بُعد متر من وجودي. صرخت:

«أجْمَل ما لديكُم في اليونان، يا هرميتس، أنكم لا تكْسونَ تماثيل آلهَتَكُم الإغْريق، تتركونهُم عُراةً يتجولون في أوروبا. لقد ورثْنا هذا التقليد منكم. انظر إلى جسد جدِّك «بوسيدون» الواقف وقفة خجولة، بعضلاته المفتولة. ماذا كنتم تُطعمونه؟»

ضحكتُ، فعلاً، وأنا أسمع انفعالها، حين قالت لي:

«كلما أقتربُ من نُصب بوسيدون الشَهَيِّ خصوبةً أحسُّني أرتطِمُ بصدى ذكَره المدوَّخ فوق خصيتيه المنتفختين. أما إلاهاتكُم، فيا إلهي، هُن محْترَّات طيلة الفصول، لا غِطاءَ يُسترهُنَّ. بوسيدون يُربِكُني، يا هرميتس، كلما أمرُّ من جنبه، مُجبرة، في طريقي إلى المكتبة أو المتحف».

لم أُعلِّق على كلام أليسيا. بقيتُ صامتاً. هي المرة الأولى التي التقي بها تمثال «بوسيدون»، هذا، الذي يُربكُ شهوتها.

لا تخضعُ التماثيل، في يوتبوري، إلى فتوى من أحد، أو قرار في شكل تصميمها، فهي حُرَّةٌ بخيال فكرتها التي يُبدعُها النحَّاتُ مُخْتَزَلةً شكلاً برونزاً أو نُحاساً أو خشباً.

قليلةٌ، هي التماثيل، هُنا، التي يذهبُ بها الخيالِ شطْحاً، بعيداً عن ضرورة نشأتها وفضاء إقامتها ومقامها. لكن لكلِ تمثالٍ قيمة فنية ومعنوية.

أخذ الشتاءُ اللعين يسحب أذيال ظلامهِ الجالب للكآبة والرطوبة، علاوة على صقيع الثلج، والمطر. لعنتُهُ تتقضُّ على نعمة الشمس فتركلها بعيداً لما يُقارب أشهراً خمسة.

العشبُ الغائب تحت قسوة الصقيع، وأغصان الشجر دغْدغَها، بصمتٍ مرئيٍّ، طقْطقة ربيع الهواء القادمِ من الشرق الأوربي الرحيم.

خفَّت وطئة الملابس الشتوية عن الأجساد. كنزةٌ صوفٍ خفيفة تكفي اتقاء بقايا لعنة البرد الذي يهب، فجاءةً، بعض الربيع والصيف، في الأماسي والليالي، على الأخص.

قاربَ الفصل الأول من دروس تعلم السويدية على الانتهاء. لم أشعر بحاجتي إلى الالتحاق بالفصل الثاني، سيما أني قد جاوزتُ الكثير من عقبات اللغة بإتقان جزء لا بأس به منها، من خلال اشتغالي ببعض الأعمال المؤقتة قبل الالتحاق بالمدرسة. لكني مُجْبرُ الحصول على وثيقة تُثبت إكمالي دورة الـ (SFI). دَعْماً لمتطلبات البحث عن عمل ثابت في أية مؤسسة، أو الالتحاق بالجامعات. اجتزتُ الأشهر الأربعة الأولى للدورة بنجاح.

يموجُ ساحلُ البحرِ الطويل، قُبالة العِمارة بصخورهِ البازلتية السود، ترْطُمهُ مويجات خجولة، رمت ثُقلَ الجليد بعيداً ذائباً في محنته الذائبة. النوارسَ تستعرض نعيقها، بأنواعها الخُطَّافي الأبيض والرمادي الفاتح. ولطبطبة الإوز إشارة إلى صعود الأسماك من

الطبقات السُفلى إلى حيثُ الدفء في الطبقات العليا لمويجات الماء على سطح البحر. طيورٌ متنوعة يزدادُ عددهم يوماً بعد يوم كمبشّرينَ بالصيف حلُّوا ضيوفاً من أديرة الشرق البعيدة.

هوايتي القديمة في صيد السمك تُخشخشُ أضلاع مزاجي. ابتعتُ عُدَّة صيد: قصبة فولاذية طويلة، بقبضةٍ ترتبط بها بكرة تُدوِّرُ بعتلةٍ بارزة، يلتفُ عليها خيطُ النايلون المتين تُربط به السنَّارة ربطاً مُحكماً، ثم بعض أصناف الطُعُم الصناعي الذي يخدعُ الأسماك السابحة في عُمق البحر.

اعتدتُ، كل يومٍ تقريباً، بين الظهيرة والمساء، الجلوس بين صخرتين، أو على دكَّةٍ إسْمنتية عالية أقذف بخيط الشص، ضاغطاً على عتلة البكَرَة فينسابُ خيط النايلون الرفيع رشيقاً لتغرق السنَّارة تحت الماء على بُعد 50 متراً تقريباً، منتظراً دغدغة نقر الأسماك فيأتي خفيفاً، ليتصاعدُ كلما راوغتُها بسحبٍ خفيفٍ للخيط حتى تقعُ مُستسلمةً كما تستسلمُ المويجات الهائجة إثر مرورٍ سُفنٍ، وقواربَ، حيث تلجمُها الصخور الممتدة على طول الشاطئ فتعودُ خائبةً.

صمتٌ رائقٌ، مُدجَّنٌ بريحٍ شبه دافئة، تحت شمسٍ شبه خجلى في إشراقها تميل فتسندها غيومٌ عابرة فوق أسرابٍ من نوارسَ تعبرُ عجولة.

لدي تناغُم عجيب مع نقر السمك. المُمتِعُ في النَّقر أنه يأتيك فجأة كدغدغةِ غزلٍ من أنثى. شغفٌ يُستطابُ وأنت تُناورُ غريمك الذي لا تراه منتظراً اقتناصه من تحت الماء.

ستلعنُ البخْتَ إنِ انتفضت موجةٌ فيتخبَّط الخيط، عندها تبتعدُ سمكتُك المنتظَرة. ما مِن نقرة ولو كاذبة. ما مِن بُرهان على إن السمك

قد طاف من سُباته الطويل بين الصخور والأشْنات في القاع العميق. أسحبُ الخيط أطمئنُ على الطُعم. لا شيء قد تغير. أكرِّرُ الرمية وأجلس حيث مكاني. هو هو. صمتٌ قاتلٌ. هدوءٌ قاتلٌ يقطعه مرور قوارب سريعة تستفزُّ الموج من جديد.

ثمة وشيجة رومانسية بين العُزلة وهواية صيد السمك، وهذا ما يُطاوِعُ مِزاجي. حتى الصيادين الذين يتجمعون في محيط صغير أراهم لا يُكلمون بعضهم، كلٌّ منشدٌّ إلى صنَّارته انشداداً ينتظرُ نَتْرةً على يده من نقرة مُفاجئة إشارة إلى أن ثمة غنيمة تُراوغُه. أختلسُ، بلا انتباهٍ، انفعال الصيادين القريبين مني. ثمة من اصطاد بعض سمكاتٍ فمنحني أملٌ أن أُطيلَ البقاءَ عساني أفلحُ في صيد واحدة ولو صغيرة، فمن المؤكد أني سأعيدها إلى الماء، لكن لا بأس، فاصطيادها متعة تتلوى مع سحب الخيط وهو يلتف حول البكَرَة. المتعة في المراوغة خوفاً من محاولة السمكة الإفلات من قبضة السنَّارة.

زادني الفضول لمعرفة سر الطُّعم الذي يستخدمه «جاري» الصياد القريب مني، عند حافة الجُرف. خجلتُ، كعادتي، أن اقترب منه لأسأله عن نوع الطُّعْم الذي يُغري به غنائمه من السمك. تعلمتُ أن السويدي لا يُحب الفضوليين، لذا تجنبتُ مغامرة إقحام نفسي في مزاجه وهو مستمتع بوقته. وكعادة الإنسان الذي يبتكرُ لحظة الغفلة لاقتناص ما استعصى عليه، بقيتُ مصراً على معرفة ما الذي تحويه تلك العلبة البلاستيكية التي يفتحها جاري الصياد، الذي يبعد عني بحدود خمسة أمتار، كلما أراد إلْقام سنارته الطُعم. حشرتُ مقبض سنارتي واقفة بين صخرتين.

سحبتُ لفافة من علبة سجائري، أوْريْتُها من قدحة الزناد. سحبتُ

نفساً وسرتُ باتجاه جاري الصياد. لم يُثِرْه اقتراب خطواتي منه. نطرتُ، بتحفظ، من غير أن أُثيرَهُ بفضولي، وأنا على بُعد نصف متر منه إلى العلبة البلاستيكية المرمية على الأرض، المفتوحة بالقرب من عُدةِ الصيد. خطفتُ نظرة إليها وتجاوزته بمسافة أمتار قليلة. يا لدهشتي. إلهي. علبةٌ مليئة بدود الأرض.

سحبتُ نفساً عميقاً أنهيتُ ما تبقى من لِفافتي. رميتها وسحقت الرأس الفلتر بكعب قدمي بغضب مكتوم. عدتُ ولململمتُ عُدة الصيد عائداً، خائباً، بلا غنيمة من غنائم خيرات البحر. خائباً خيبة أهبل كمن اكتشف سراً لا سرَّ فيه عنده، لكن النسْيان أعْمى ذاكرتي.

استنجدتُ بصديقي كاك ريباز مستفسراً عن أنواع الطُعْم المفضل في صيد السمك الاسكندنافي:

«أنتَ البصْراوي، ابن النهر، وتسألني أن أُفيدك بهذا؟ أنا خبير بصيد القبج والزرازير يا كاك هرميتس»، أجابني ريباز.

«جرَّبت الطُعم المصنَّع. جرَّبتُ لُبَّ الخبز، بصنفيه الشرقي والغربي، معجوناً بيدي ومطعَّماً بالكاري الأصفر. رائحة الكاري بصفاره تحت الماء، عن خبرةٍ منقولة من أحد البحارة الهنود، يتحول إلى قوة ممغْنطة تُدوِّخُ رائحته غلاصيم السمك فينجذبُ إليها. جرَّبت الجبنة الصفراء، والجبنة البيضاء المخمَّرة بالثوم. جرَّبتُ عجينة الرز المنكَّهة بالكُركُم. جرَّبتُ مصارين الدجاج. كل ذلك لم ينفع في اصطياد ولو سمكة واحدة، يا ريباز. مالعمل؟».

«مصارين الدجاج؟ أتنفع المصارين في إغراء السمك، يا هرميتس؟ من أين لك هذا الاختراع؟»، سألني ريباز.

«مصارين الدجاج أفضل طعام في صيد سمك الجريِّ، يا ريباز. بمجرد أن تُلْقِمَ قطع صغيرة من المصارين السنارة، وترميها في النهر، تتلقفها الجريَّة فتجري إليك مهرولة مُناديةً: «خُذني بسنارتك خُذني».

«أعرفُ أن السمك يُفضِّلُ ديدان الأرض التي تختبأ تحت الطين الرطب عند جرف النهر، لكني في كل مرة أنبش الطين بين صخور الجُرف لا أعثر على دودة واحدة. من أين يأتي الصيادون بالدود هنا، يا ريباز؟».

«موجود، ويُباع بكَثرة»، أجابني ريباز بسرعة، ومن دون إبطاء.

- أين، يا ريباز؟ أريد أن استدل على مكان بيعه، لو سمحت.

«اعذرني، يا كاك هرميتس، لا أعرف أين يُباع. اسأل أي سويدي قد يُفيدك»، بالمناسبة، أضاف ريباز: «أيمكننا أن نلتقي. أنا بحاجة لمن أُدرْدِش معه لقد ضاقت الدنيا، هنا، بعيني»، سألني ريباز.

- ربما في بحر الاسبوع القادم، يا ريباز. سأتصل بك في كل الأحوال لأُخبرك. سنذهب للصيد إن عثرتُ على ديدان.

في ظهيرة يوم أحد من آحاد نهاية الأسبوع الذي تنام فيه المدينةً، يوم رائق بشمس مقبلة على الصيف، كان هواء ساحل الخليج، الأكبر سعةً من خلجان بحر الشمال الكثيرة، مُكتنِزا بأنفاسٍ أكثرَ خفَّة عن أنفاسِ شتاءٍ مودَّعاً بصلواتٍ لا تشفع له.

ماءُ البحر المملَّح يمتصُّ الدفءَ الخجول من شمس خجولة كأي ضيفٍ خجول. المتسكعون حول الساحل ومحيط البحر يزدادون عدداً.

صادفت المترجمة الروسية «سفيتلانا» ذات الأصول الاوكرانية، والتي أعانتني كثيراً، قبل سنوات، في الترجمة وإنجاز بعض المهمات الصعبة في الأيام الأولى من وصولي يوتبوري.

رأيتُها جالسة لوحدها على مسطبة من مساطب البحر الخشبية تتلذَّذ بتدوير رأس لسانها على قطعة بيضوية من البوظة بطعم الشوكولاة، مُجلَّسة على رأس قمْعٍ من البسكوت. رميتُ عليهاً تحية سريعة وأنا أتدرَّج بمشيي متجنِّباً التوقف خوْفَ أن أُنَغِّصُ عليها وحدتَها.

«هرميتس»، نادتني «سفيتلانا» ذات الوجه المتوهجُ بياضاً شلافياً، بجسدها المتين ذي العظم الخشن، وبشعرها القصير بولِغ صِباغه بلونٍ أحمر ناري لم يكسرهُ طلاءُ شفاهها البرقوقي، الداكن بمبالغةِ من إمرأة في خريف العُمر.

استدرتُ عائداً. وقفتْ حيثُ سارعتْ هي في الوقوف. تصافحنا.

- مضى زمان، يا سفيتلانا. أين اختفيتِ؟

«اجلسْ»، قالت. أخباري لا تُسَر، يا هرميتس. كيف السويد معك، يا ابن ميزوبوتاميا؟». سألتْني مع قهقهة خفيفة خرجت من فمٍ بانَ عن سنٍّ ذهبي وسط أسنان فكها العلوي.

«لا بأس. أسعى أنْ أستوعب وجودي هُنا بما يُلائِم مِزاجي الذي يُحقنُ، إجْباراً، بالتباسات المنفى الجديد، الذي يبدو لي كأنه آخرَ مرسىً تتطامنُ فيه روحي على يقين رصيفه، بعد تنقلات لا أُحسدُ عليها في بعض بلدان العالم»، أجبتُها.

«خبِّرْني، قبل كل شيء، هل عُدِلتْ شهادتُك الماجستير الروسية؟»، سألتْني سفيتلانا بلهفةٍ عجولة.

- لا جديد على صعيد تعديل شهادتي. أهجسُ أن ست سنواتٍ ضاعت من عُمري وأنا أجتهد في الحصول على ماجستير الصحافة، يا سفيتلانا عزيزتي. يتطلب مني أن أُدْرُس في جامعة سويدية ثلاث سنوات أُخَر كي يتم الاعتراف بشهادتي، وأنا لا صَبْر ولا جَلَدَ لدي في القيام بذلك، لذا أهْملتُ الموضوع.

- يبدو أنك نسيت اللغة الروسية، يا هرميتس؟ أراك تخلط بينها وبين السويدية.

«أبداً، ياسفيتلانا، لكن مع من أهذر بها؟ ربما في مصادفات ما مع أُناس أمثالكِ. لكني لا أُحب أن أتذكرها. ستُعيدني إلى ذكريات رائعة عشتها في بلاد السوفييت الرائعين».

«لم يَعد هناك بلادٌ إسمها «بلاد السوفييت»، ياهرميتس. لقد تشظى الاتحاد إلى دول وجمهوريات منفصلة.

نظرتُ إليها أقرأُ حُزناً استفاق للتو على عهدٍ عاشت فيه سفيتلانا جُلَّ طفولتها وشبابها. أحسسْتُ أن لا بُد من تغيير الحديث:

- لقد جرَّبتُ العمل في أكثر من مكان، وأكثر من مهنة. عملتُ، لفترة طويلة، في مصنعٍ لإنتاج الملفَّات تلك التي تُصنَّع من الورق المقوىَّ، وتُسندُ قفاها بدعامتين خشبتين، وبكبستين من الحديد بين دفَّتي الملف، يا سفيتلانا.

«لكنك، حسب ما أعرف، تكتبُ الشِّعْر ولك اهتمام واسع بأمور الأدب وشؤون الصحافة. ألم تطبع لكَ كتاباً لحد الآن؟».

- قصائدي أحفظها في الملفات التي صنعتُها بيدي في المعمل، يا سفيتلانا. لا أملكُ من المالَ ما يكفي لطباعة ديوان.

- توقفت عن الذهاب إلى المعمل. أنا الآن في إجازة مرضية طويلة. سنوات وأنا أمارسُ عملاً ميكانيكياً مُجهداً تيبستْ بسببه عضلات كتفيَّ، وازدادت الأورام والألام في قدمي اليُمنى المعاقة أصلاً منذ الصِّغَر. أنجزتُ، لحد الآن، ديواني الثالث بانتظار توفير بعض المال لما تفرضه دور النشر العربية من أسعارٍ باهظة مُقابل طبع أيَّ كتاب، بلا أيَّ حقوق يحصل عليها المؤلف سوى بضع نسخٍ من كتابه، حتى أجور البريد يجب على المؤلف تحمُّلها.

- هذا استغلالٌ بشع وجَشَع فاحش. لا يمكنني تصوُّر ذلك، يا هرميتس.

- حاولت، هنا، القيام ببعض الأنشطة الصحفية. قابلتُ شخصيات أدبية وأكاديمية. بالمناسبة، لقد أجريتُ لقاءً مطوَّلاً مع المستشرق البروفيسور «يان ريتسو»، عميد معهد اللغة العربية في يوتبوري. إنه يتكلم العربية بطلاقة. أتعرفينه، يا سفيتلانا؟

«سمعتُ به، لكني لم ألتقِه، للأسف»، قالت سفيتلانا.

- أنجزتُ عدداً لا بأس به من الريبورتاجات وأرسلْتُها إلى صُحفٍ عربية تصدر في لندن، حيثُ لا صُحف عربية في السويد، كما تعرفين، يا سفيتلانا. تخيلي إنهم ينشرون ما أرسله لهم، لكنهم لا يتفضلون حتى في إرسال نسخة من العَدَد. كنتُ أشتري نسختي من حانوت الصحف في المحطة المركزية. هل تتخيلين مساحة الاستغلال والجشع؟ لذا توقفت عن القيام بأي عمل صحفي.

«إرادتُك حديدية. أعرِفكُ، يا رفيق»، أجابتني سفيتلانا ضاحكةً. نطقت كلمتها الأخيرة بالروسية. أبهجتني روحها الملهِمة.

هبَّت، فجاءةً، نسمةُ هواءٍ باردة آتية من أقاصي بحر الشمال. رفعت سفيتلانا يدها اليُسرى إلى قحف رأسها ضاغطة على شعرها خوفاً من أن يتطاير. فتحت حقيبتها القُماش ذات التعاريق الألوان الطواويس الروسية المشهورة. أخرجت منديلاً أبْيَضَ، وضعتْهُ على شعرها وعقَدت نهاية طرفيه ربطاً مُحْكماً تحت حَنْكيْها. نظرتْ إليَّ نظرةَ المتحسِّرِ على عُمرٍ أحترق أكثر من نصفه في الغُربة. سفيتلانا، مُدرِّسةُ الأدب الروسي هرَبت بعد تهديداتٍ تلقتها من السلطات الروسية يومَ كانت تُمْلي، بلا إذنٍ، على طلبتها، خروجاً عن المنهج الرسمي المقرر، حفظ أشعار الشاعرة الروسية المعارضة «مارينا تسفيتاييفا» التي قضت انتحاراً.

«ما زلتُ أتذكر آخر لقاء بيننا، يا سفيتلانا. ما زلتُ أحتفظ بهديتكِ الثمينة: ديوان شعر لمارينا تسفيتاييفا»، قلتُ «لسفيتلانا» أُذكِّرها مدْفوعاً بذاك الشغف الذي أكنُّه لشاعرة انتحرت تخلُّصاً من انكسارٍ لاحَقَ كرامتها.

شرارةُ دمعٍ مسَّتها كهربةُ حنينٍ بعيد تطايرَت بأنينٍ سَمِحٍ من عيني سفيتلانا الخضراوين. دمْعٌ رشيقٌ سالَ على وَجنتيها المنْتفختيْن من حُمَّى الخسارات. أخْجَلَني ورجَّ ما قلَّبْتُه، في تلك اللحظة، من ذِكرى ظنًّا مني أنها كانت مُناسبةً لتذكير سفيتلانا بهديتها الثمينة.

سادَ بيننا صمتٌ ، لثوانٍ. صمتٌ ناطِقٌ بصمته. تبادَلْنا عبْره نظراتٍ جوهرها التباسات العُمر الذاهبِ إلى حتفه. فاجأتْني

سفيتلانا، بلا مُقدماتٍ، بإلْقائِها، بروسيَّةٍ سلسة نظيفة، قصيدة لشاعرتها المفضَّلة تسفيتاييفا. غرقتْ، مغمضةُ العينين، بسحرٍ أخذها إلى حيث دروسها إلى طلبتها بنفحٍ محتشدٍ بمجدِ الشعراء المنبوذين أمثال مارينا تسفيتاييفا. طاشت الكلمات أمام روحي عن لسان سفيتلانا. صمتتْ. قرأتُ الصمت الذي تنزَّل دمْعاً من عينيها البلورتين:

«فهمتُ، يا سفيتلانا، مهرجان الحُبِّ في هذه القصيدة. كم تعذبت مارينا من أجلِ حُبٍّ منغمرٍ بأسراره. كم أحبت تلك الخمور المشبَّعة بتعتُّقها، والعروش القديمة، وحتى الكلاب التي تلقاها بالصدفة. كيف تصف حبها، والردود على أسئلةٍ بنصف ابتسامةٍ. واسمها، مارينا، الذي عدَّتْهُ فريداً، والعطور والشموع، والخطابات الكاذبة رغم أنها كاذبة، ثم تغزلت بذكاءٍ برائحة معاطف الفرو، وخيم البدو. يا لها من شاعرة ساحرة».

مسحَتْ سفيتلانا، بمنديلٍ ورقي، ما انساب على وجنتيها من دمْعٍ بَرَقَ غاصاً بهيَجانهِ. احتضنتْ يداي. أخجلتْني. أخفضتُ رأسي أنظرُ إلى يديها الرَّجِفتين بأوردتها المُزْرقَّة المتورِّمة تحت سطح جلد يديْها.

حرَّرتُ، برقَّةٍ، يديَّ. احتضنتُها بدفءٍ. شهقَتْ سفيتلانا فرجَّفت سبعيَن عاماً من عُمرها. رفعت يدها كاشفة عن مَقْدَم رأسها الذي لمعَهُ المرض الخبيث.

- إنه ليس شَعْري الحقيقي. إنها باروكة، يا هرميتس.

«لا عليكِ، يا مُعلمة، يا رفيقة»، قلتُها نطقاً بروسية سليمة. حاولتُ مُداراة هيجان حُزنها مُستديراً بلحظة العاطفة التي قذفت بريشِ وسائدها على نار الكَيْد المخزَّن لسنواتٍ عجافٍ في روح سفيتلانا:

«قرأتُ، في مقدمة ديوان تسفيتاييفا، الذي اهديتيني إياه منذ سنوات، أنها انتحرت بسبب عارٍ لاحقها لاتهام السلطات السوفيتية لزوجها كونه كان عميلاً مزدوجاً. ما صحة ذلك؟»، سألتُ سفيتلانا.

- هذا أحد الأسباب وليس السبب الرئيس في إقدامها على الانتحار. في مُناسبة ما طلبوا منها أن تُوقع على رسالة شُكرٍ مُعنونة: «إلى ستالين العظيم». رفضتْ بإصرار: «لن أُوقع لأني لستُ أنا من وصفَهُ بالعظيم، وحتى لو كان فعلاً فهو ليس من العَظَمة التي أفهمها». أجابتْهُم تسفيتاييفا. بعد ذلك حُوصِرتْ واتُّهِمَتْ أنها جاسوسة للألمان. وعانت من التشرد والجوع والنميمة، تسفيتاييفا، طفلةُ اللغة العظيمة. اللعنة على ذلك الحبل الذي أعطاهُ إياها «بوريس باسترناك».

«لم أفهم، يا سفيتلانا، أتعنين أن باسترناك الشاعر الروسي كان سبباً في انتحارها؟»، سألتُها.

- الصُدْفةُ. العِلَّةُ. اللوعةُ الأخيرة في غَصَّة حياتها. اللُّغْزُ غير المُحيَّر في قصيدتها الأخيرة. وقتها الذي أذِن للمغادرة الأبدية. جوقةُ السَّفلة الذين هدَّدوها. كلُّ هذه الأسباب أو بعضٌ منها، ربما، يا هرميتس كان السبب في أن تتسلَّق سُلَّم خاتمة حياتها بجُرأة.

أعطاها «باسترناك»، يوم قررت أن تَتْرُكَ موسكو إلى «تتارستان»، حبلاً كي تربط به حقائبها. ظلت تحتفظ بالحبل إلى أن حانت الساعة التي قررت فيها الانتحار. كتبت آخر كلماتها على ورقة وعلَّقتْها على بابها:

«آنَ الأوان كي أنْزَعَ قلادة العنبر،

وأغيِّر كلماتي،

أن أُطفئَ المصباح المعلق فوق بابي».

«مسكتْ تسفيتاييفا حبلَ باسترناك. تمتمت: «السِّرُّ يكمنُ في هذا الحَبْل» فشنقت نفسها به في العام 1941».

- ما زلتَ مستأنِساً، كما يبدو، يا هرميتس، بمحافظتك على لغة روح أجدادي. شكراً لكَ، يا وَفِي، وشكراً لأنك ما زلْتَ محتفظاً بديوان شاعرتي المفضَّلة «مارينا تسفيتاييفا».

«لقد حاولتُ ترجمة بعض من قصائدها إلى العربية، لكن»، قاطعتْني سفيتلانا:

- أعرِفُ. أعرفُ أن ليس بالسهل ترجمة أشعار تسفيتاييفا، لكن يكفيك أنك تقرأها بالروسية وهذا مكسبٌ عظيم لشخص مثلك يهتم بالشِّعْر».

صمتٌ أخرسَ لفَّ الحنين، والشغف، والحسرة حديثنا.

«اكتب لي، يا هرميتس، رقم هاتفك، وعنوانك. سأرحل قريباً. سأعود إلى وطني ووطن تسفيتاييفا لأقضي ما تبقى من هذه الرحلة المجنونة على هذه الأرض. أنا متقاعدة الآن ولا شيء يُرغمني على البقاء هنا. ذهب كل الذين أرغموني على ترك روسيا قبل أربعين عاماً. كُن قوياًّ، يا رفيق. سوف لن أنساك».

شدَّتني سفيتلانا إليها بقوة. قبَّلت وجنتيَّ بقوة. ابتسمت ابتسامةً شعَّ منها نورٌ رحيم هيَّجَ نوارس، وعقاعق، وسرباً صغيراً من زُمُّج الماء مرَّ يتهافتُ مرتفعاً مقدارَ مترٍ فوق الماء.

لا يبعُدُ الساحلُ الطويل، حيث التقيتُ سفيتلانا، عن عِمارة سَكَني سوى نصف كيلو متر. ساحلٌ خُصِّص للمُشاة ولمحبي التسكُع على

رصيف البحر العريض، بمصاطبه الخشبية الكثيرة المنتشرة قُبالة جُرف البحر العريض الطويل، يُسمح فيه أن يتجمع هواة صيد السمك، أو إيقاد مِنقلٍ لشواء ما يحلو للمرء من سجقٍ ودجاج مُتبَّلٍ، أو شرائح لحمٍ بأصنافها الحمراء.

افترقت عن سفيتلانا بعد ذلك اللقاء الحميم عائداً إلى شقتي، مُتأبِّطاً شرخاً هيَّجَ انكسارات بعض سنواتي الزانية. لقاء هيَّجَ ذكرياتٍ كانت هاجعة في قبوٍ عميقٍ مُغلقٍ في عُلبةِ نردٍ تركته تحت آخر سريرٍ من أسرَّة تقلَّبتُ عليها، هُناك، وهُنا، يتلاعبُ بها الغُبارُ من دون أن يستفرد أحد في فتحها عنوةً . علبةٌ كنتُ مدمناً على إزالة الغُبار من على سطحها قبل فتح غطائها كي أضيف إلى ما قبلها صفحاتٍ جديدة سُوَّدت سطورها بذكرياتٍ سِيرٌ جديدة. ذكريات سنواتٍ ذهبت إلى حتفِها، مأسوفٌ عليها أسفاً لا يُعوِّضهُ إلاَّ الغرق، من جديد، في عالمِ الكتُب والتأليف.

التصقت كلمة «حَبْل» على لساني. أمشي وألوكُ الكلمة بضغينة وحِقد وأسألُ «باسترْناك»:

«لولا حَبْلك، يا «باسترناك»، أكانتْ انتحرتْ تسفيتاييفا؟ ألم يكُن لديك شيء آخر تُهديها غير الحبل؟ أكنْتَ تدفع بها، قصْداً، إلى أسوَء خاتمة؟ أينقصها حبلك كي تحزم به حقائبها؟ لِمَ دفعتها إلى هذا المصير، يا «بوريس»، أيها الشاعر؟ أحسُ، الآن، أن حبلي الشوكي يهتاج بسبب توتري على فِعلتِك القاسية، يا بوريس الشاعر. لا تُنْكُر، أيها الشاعر، فعلتَك الشنيعة هذه، ولا تُكذِّب فحبلُ الكذب قصير. لماذا تدفعني، الآن، دفْعاً كي أسترجِعَ تداعيات أقفل عليها الزمنُ بابه؟ أنت، الآن، تستفزني».

هديرُ ذكرى من جهة بعيدة جداً عن سيرة طفولةٍ شرسة هبَّت فجاءةً ارتباطاً بحبل الشاعرة المنتحرة:

«تفضل. خُذ المِقص واقطع حبل أخيك السري عن مشيمته». سنوات طويلة كثيراة مضت على هذه الفِعلة يوم طلبت القابلة مني، أنا الطفلُ، قبل أربعيَن عاماً، أن أقُصَّ حبل أخي المولود حديثاً.

اغْبرَّ الطقسُ، فجاءةً. تحول إلى سحنةٍ رمادية. غلَّفت بضع غيماتٍ قرصَ الشمس ساحبة إيَّاه إلى كهفٍ عميق في ثُغرات السماء.

تطاحنت غيمتان سوداوان طحْناً لاذِعاً بفعلِ هبوبِ رياحٍ مغبرَّة عجْفاء، جعلت الغيمتين اللتين أراهُما فوق رأسي كأنما تتقصدانني يفورُ فيهما مطرٌ حُشِر عنوةً في أخاديدها العريقة.

رشَّاشٌ سريعٌ من زوبعة مطرٍ تساقطَ بلا استئذانٍ. ركضتُ أتحامى بالأشجار والبنايات أُخاتِلُ هذا الرشاش السريع المندفع هياجاً أهوج مصحوباً بريحٍ صيفية دافئة.

وصلتُ مدخل بناية سُكْناي. وقفتُ على بُعدِ مترين من بابها الزجاجي الضخم. ثمة امرأةٌ ترتجفُ بَلَلاً حيث لم ترحمْها زخَّاتُ المطر المفاجئة، تُمسِكُ بمقبض الباب المغلق، متوسطة الطول بشعرٍ فاحمٍ وبعضُ خُصُلاتٍ منه تسلَّقها سُلَّم الشَّيْب قبل أوانه. خمَّنتُ، تقريباً، أنها في الأربعين عُمْراً: وجهٌ أسْمر بسُحنةِ قهوة شقراء. ترتدي سُترةٌ بيضاء، خفيفة، متناسقة بتواضعٍ، مع زُرقة قميصها الحريري، مُبلَّلاً، مُلْتصقاً بثدييها الناهدين يستدْرِجان، بلا مُواربةٍ، الفضول الشهي للتحديق فيهما. تُغطي رقبتها بشالٍ حريري، طويل ينْسابُ هادئاً على ياقة القميص نزولاً إلى سُرَّتها. ترافقها صبية صغيرة

قدَّرتُ عمرها بسنواتٍ سبعٍ تقريباً. الطفلةُ شقراء بشعرٍ طويل خليط بين البُنيِّ والأسود لم تسْلَم، هي الأخرى، من فجاءة المطر.

حَيْرةٌ، ارتباكٌ، وخوفٌ تجمَّعت، كلها، بتورُّدٍ فاضحٍ على وجه المرأة الغريبة، السمراء، عبر حركة يديها، وهي تنهشُ باطنَ حقيبتها اليدوية بحثاً عن شيءٍ فقدته.

مدَّت يدها إلى جيبَيْ بنطالِها الجينز الأسود الأماميين، ثم إلى جيبيها الخلفيين. بنطالٌ ضيِّقٌ مشدود قسَّم كل حدود جسدها بإتقانٍ عجيب. ضربت بكفِّها ضربة خفيفة على جبينها، ثم ضربتين قويتين على فخذها اليمنى:

«أُفْ، ماذا أعمل يا ربي؟»، قالت للطفلة التي بدت أقل ارتباكاً من المرأة.

سُرعان ما استنتجتُ أنها ضيَّعت مفاتيحها. التقطتُ بعض كلماتٍ من حوارٍ بينها وبين الطفلة بلهجة أهل الشام:

«اشتَي، يا بنت. بدنا نفكر كيف نتدبَّر الأمر، مين بدو يساعدنا بها المصيبة؟».

وجدتُّني واقفاً غير بعيد عن الأم وابنتها بارتباكٍ لا أُحْسَدُ عليه.

اقتربتُ، بهدوءٍ حذرٍ، منهما، محاولاً عدم إقحام نفسي بطريقة فضولية.

تبادلنا نَظرات مُحمَّلة بخجلٍ شرقي. تقدمتُ من الباب. ألقمتُ القفل بمفتاحي. فانساب البابُ منفتحا باندفاعة آلية إلى مدْخَل البناية:

- تفضلا. قلتُ موجِّهاً كلامي للمرأة والطفلة.

دخلتا البناية مصحوبة بكلماتِ شُكرٍ خجولةٍ نطقت بها المرأة حيث أصبحنا وجهاً لوجه.

التقطتُ، بعجلٍ فضولي، خطْفاً، تفاصيل وجهها. تقدمتُ إلى حيث المصعد ساحباً دفة الباب. استدرتُ بلُطفٍ زائدٍ إليهما:

«تفضلا»، قلت لهما.

«لا شُكراً»، ردت الأُم. «علينا الانتظار هُنا ريثما نجد حلاً للمصيبة التي نحن فيها».

تركتُ مقبض باب المصعد:

- أتسمحين لي بمساعدتكما، إن أستطعت؟

«لقد أضعتُ جميع مفاتيحي، بما فيها مفتاح الشقة»، أجابتني المرأة بارتباكٍ رجَّفَ خدَّيها المكوَّرين بتساوٍ مُلفت.

«خلينا نرجع على الكنيسة، بيجوز نلاقيهم هناك، يا ماما»، قالت الصغيرة لأمها، بتوسُلٍ واضح، وهي تشدُّ على يديها ذاتَيِّ الأصابع الرشيقة بأظافرَ نقية من أي طلاءٍ. خاتَمٌ ذهبي ناعم بخرزةٍ بحجمِ بِزرة عنب سحبتهُ من خنصرها الأيسر، ووضعتهُ في مقدَّمة بنصرها اليمين. رفعت كفها بالتواءٍ تصفع المأزق الذي نزل عليها، مترافقاً مع هزٍّ تعنيفٍ تطردُ غَماماً تشكلَّ كبُخارٍ هيَّجَ قَحْفَ رأسها.

لم تُجب الأم صغيرتها. نظرت إليَّ نظرةً ملؤها الإحراج والارتباك.

«آسف». قلتُ لهما. «ربما لن تتقبلا مني حلاً آنياً، الآن، لكني لا أمتلكُ سواه أُساعدكما به».

تماوجَ صمتٌ مدهوش انزلقَ توسُّلاً خجولاً من عيني الأم وابنتها لم أتردد بكسره مطلقاً. سحبتُ مُفتاح شقتي من جيب بنطالي:

«تفضلي»، مددْتُ يدي بالمفتاح إلى الأم. «هذا مفتاح شقتي، يمكنكما أن تستريحا بها، إن شأتما، ريثما نفكر بحلٍ لهذه المشكلة».

«لا. شكراً»، ردت المرأة بخجلٍ نزلَ مُمتقِعاً بماءِ ارتباكها، وصعد شهيقاً مُرتجفاً، ساحبةً ابنتها إلى حضنها كأن تراءى لها أن مكروها سيحصلْ لهما:

«سننتظر هنا ريثما تأتي مسؤولة مكتب الاستعلامات في السَكَن»، أضافت.

- لكن اليوم هو عطلة الأحد ولا من مسؤول سيأتي.

توسَّلت الطفلة أمها أن تقبل اقتراحي. نهرتها بعنف:

«عيب، يا بنت. اسكتي»، أجابتْ الأمُ ابنتها.

«أنا من ساكني العِمارة منذ سنين. لم ألْتقِكما من قبل. أأنتما من نُزُلِ العمارة الجُدُد؟»، وجهتُ سؤالي للأم.

- مضى على وجودنا هنا أشهر، أشهر قليلة فقط.

ازداد الأمر تعقيداً. وشْوشت الطفلة أمها بكلماتٍ التقطتُ فحواها بلمحة طائرة. تريد التواليت.

كرَّرتُ اقتراحي:

«إن يَطِبْ لكِ، يا عزيزتي. فهذه مفاتيح شقتي. تفضلي بكل رحابة صدر. أنا سأتدبرُ أمري. لدي أصدقاء يمكنني أن أقضي الليلة عندهم إلى الغد».

امتقع وجه الأم احمراراً حيثُ لا مخرج لهما، كما بدا، إلاَّ اقتراحي.

فركت المرأة السمراء يديها. نظرت بحزنٍ عميق إلى الطفلة. قرأت الألم والحاجة في عينيها.

مسكتُ يد الطفلة. سألتُها:

- ما اسمك، يا حلوة؟

«بيروت. إسمي بيروت»، قالت.

وضعتُ مفاتيح شقتي في يدها وأغْلَقتُها. ابتعدتُ ثلاث خطوات:

«الطابق الثاني، شقة رقم 3»، قلت لهما. أغلِقا الباب وراءكُما، حتى لو أتيتُ أنا لا تفتحوا لي. سأعود غداً بحدود الثانية عشرة صباحاً».

الفصل السابع

عزيف الجبل

تطاحَن قَلَقي تطاحُناً رجَّف دماً صعد إلى يأفوخي. صفعَةٌ شهيقٌ مُختنقٍ من لِفافةٍ تسرَّب دُخانُها إلى رئتيَّ أشعلتُها فور خروجي من عِمارة سُكْناي.

نظرتُ من حولي في الشارع شبه الخالي من البشر. نخزاتُ حَيرَةٍ استطارت من عيني مُدوَّخ في طريق لا مرئي.

حَيْرةٌ مُرجَّفة نزلت توبيخاً: «أينَ ستأخذني، أيها الفوضوي المتسرِّع في التنازل بسخاءٍ عن شقتك، بلا تأنٍ، أو دراية، لترتمي في حضن شارعٍ كئيب؟».

لم أجد إجابة سريعة أُهدِّئ بها لوعة حيرتي التي تناطَحَت مُمَرَّغةً بالرطوبة الباردة، الهابة من جهة الساحل. قادتْني خطواتي، في ذلك المساء المتعطِّش إلى صخب البشر، إلى اللّاَّتعيين.

ما الذي أرغمَني على أن أُسلِّمَ مفاتيح شقتي إلى المرأة الغريبة، التي أراها للمرة الأولى في عمارة سُكناي؟ ترجرجَ سؤالي صمتاً، شفرةً من قلقٍ باغتني.

تفتَّقت صدْمتي عن حلٍّ سريع، لا يقيَن في مرتجاه وهو يُرجِّفُ سبَّابتي مُديراً بها قِرْصَ الهاتف العمومي، المنتصب في كابينة من كابينات الهواتف العمومية المنتشرة في المدينة:

- ألو. كاك ريباز، هل أنت في الدار؟

«طبعاً. مابِكَ، أسمع صوتك يرتجف. أحدَثَ مكروه معك؟»، سألني ريباز.

- ربع ساعة وأكون عندك. انتظرني، لا تخرج.

انكمشَ القلقُ مستكيناً لحظةَ صعودي الترام. أرخيتُ جسدي على أحد كراسيه في طريقي إلى بيت ريباز، صديقي الحميم.

تعثَّرتُ، لحظة دخولي شقة كاك ريباز، بعدة صناديق كرتونية مُغلقة ومُهيَّئة للانتقال بها إلى مكان آخر، كما بدا لي بمجرد أن فتح ريباز باب شقته. بعضُ حقائب سفرٍ أخرى حُزِمت ورُكِنَت، في الممَرّ الفسيحِ، بين غرفة النوم وصالة الاستقبال. نظرتُ دَهِشاً. جلتُ بعيني، وبسرعة قصوى، على أنحاء الشقة. كلُ شيء فيها، من الأمتعة، سيُرَحَّل. الشبابيك المنزوعة الستائر كئيبة وباردة. هواء غرفة الاستقبال مُثْقَلٌ بضباب دُخان السگائر.

ترحيبٌ دافئ استقبلَني به ريباز وهو يردُّ الباب، مُشيراً أن أجلس على إحدى الأريكتين الجلد الوحيدتين في غرفة الضيوف:

- أهلاً، كاك هرميتس. تفضل، قال ريباز مُرحِّباً.

نظرتُ وأنا أقفُ في وسط فوضى عمَّت شقة ريباز. جلستُ على الأريكة مندهشاً من الجو الكئيب. دارت عيناي، فجاءةً، كمن يحسب عدد الصناديق الكرتونية المحكمة الإغلاق بأشرطة لاصقة شفافة، موزَّعة عشواءَ في محيط غرفة الاستقبال. صندوقٌ واحدٌ، فقط، لُفَّ بحبلٍ من القنَّب البنيِّ رُكِنَ إلى زاوية بالقرب من غرفة النوم، خمَّنْتُ أنه يحتوي على أشياءَ ثمينة مُميَّزة.

ارتعبتُ. تذكرتُ سفيتلانا، والشاعرة المنتحرة، وحبل باسترناك. لفَّقتُ لقَلَقي، وارتعابي، مخرجاً يُناسبُ المنجذب من أجواء شقة ريباز:

- أسترَحَلْ، يا ريباز؟

سحب ريباز، من علبة سجائره، لِفافةً يُضيِّفني إياها:

- دخِّن، يا صديقي، ربما هذا هو اللقاء الأخير الذي يجمعنا في يوتبوري التي سَحرتْكَ، كما أعرف.

- لم أفهم شيئاً من جو الفوضى الذي يسود بيتك؟. أسَترْحَل، يا ريباز؟ أستعود إلى كردستانِكَ؟ ألَم تتأقلم، طيلة هذه السنين، على أجواء يوتبوري، المدينة الوادعة التي يتمنى الكثير العيش فيها؟

سحب ريباز نفساً عميقاً من سيجارته الغريبة الرائحة. جلس على الأريكة الجلد قُبالَتي، هي توأم لتلك التي جلَستُ عليها، مُرْخياً نصفَ جذعه الأيْسر بإسناد ساعده على مسندها ناظراً إلى حلقات الدُخان، المتماوجة سباحةً، في سماء الغرفة كمَن يؤشر لي أن أقرأ حيْرتي تخميناً سطَّره ريباز بأنفاسه الهادئة وثوقاً في رسم حياته المستقبلية.

تنحنحَ ريباز:

- سأنْتقل إلى «كِيْرونا»، إلى المدينة الأقرب إلى جبال «سكانديرنا». إني أختنق هنا، يا صديقي. لقد نبشْتُ يوتبوري سهْلاً سهْلاً، جبلاً جبلاً. أعلى جبل فيها لا يزيد ارتفاعهُ عن فخذ من أفخاذ أصغر جبل في كردستان.

«آه. الآن تذكَّرتُ لِمَ كنتَ تستفسر من مُعلمتنا ساندرا عن أعلى جبل في السويد، أليس كذلك، يا ريباز؟».

«هو كذلك، يا هرميتس. منذ سؤالي ذاك، قبل سنوات، وأنا أرسمُ الخُططَ بحبْرٍ من شحْمِ حدقتي عيني على شغاف قلبي متمنياً الوصول إلى جبلٍ من جبال سكندنافيا. جبلٌ أشكُّ أنهُ هُرِّبَ عنوةً، حين كانت جبالُنا هي البوصلة الوحيدة الدليل إلى الغرباء من أقاصي

سكندنافيا، من إحدى بقاع كردستان سحْباً بسفينة من سُفن الفايكينغ الأشاوس، واستقر به المقام في بقعةٍ تبيضُ ثلْجاً دافئاً في أقسى الفصول. أهْجُسُ أن من واجبي أستعادة روح هذا الجبل المنفي قَبْلي بمئات السنين. لقد تعفَّنت هُنا حيث كل شيء رتيب. حياةٌ جوفاء وكئيبة لم أعُد اسْتطعمها. ملابسي الكردية في خزانتي. لم أرتدِها منذ وصولي أرض السويد».

«ما المانع إنِ ارتديْتَها، هنا، يا ريباز؟ ألا تلاحظ الأفغان في الشوارع يتجولون بزيهم التقليدي؟ حتى السلفيون العرب يسيرون في شوارع يوتبوري بدشاديشهم القصيرة، ولحاهُم المصبوغة بالحنَّاء، لا يُعيرون أهمية لأحد. المحجبات، والمنقَّبات، أصبحْنَ بالمئات يتجولْن مرتاحاتٍ، يا ريباز».

«تختلُّ المعادلة، إنْ ارتديتُ الشروال والجمَداني وحزام الخّصْر، في أرضٍ ليس فيها جبل. ستتشاجرُ ملابسي مع ملابس الآخرين التي لا تشْبهها»، أجابني ريباز.

«لكنك، يا ريباز، ستنتقل إلى مدينة سويدية أخرى لا تختلف أزياء ناسها عن أزياء شعب يوتبوري؟».

«في كيرونا يعيش شعب «السامي». هُم يرتدون ملابس مُميَّزة تختلف عن بقية ملابس شعب السويد. ملابس ورثوها من أجداد أجدادهم. ثم لا تنسَ، يا هرميتس، هناك، في كيرونا، جبال. ملابسُ الكردي تتماهى مع الجبال فيزهو التنوُّع بين ملابس البشر».

أشْعلَ ريباز لِفافة جديدة من جمْرِ لِفافته الأولى لتُكمِلَ لوعتها من الثانية تبغاً منعشاً إلى حيث رئتاه المتفحمتان:

«سأُملِّحُ جبال سكانْديرنا بهذيانِ صوتي، حتى يفترشُ الثلج عليه بخفَّة، كي أتسلَّقها بخفَّة بحثاً عن عظام أسلافي النائمة بين شقوقُ أحجارها. لدي هاجسٌ أن عظام أجدادي الكُرد، من أوائلِ الأزل، ما زالت تُطَقْطِق مستورةً بشحمِها الذي لن يذوبَ مطْلقاً، ياصديقي. ألم تسمع المثل الذي يُردِّده الكُرد: «ليس للكردي من صديقٍ إلاَّ الجبل».

«منذ أن سَلَّتني أمي من بطنها، ورمتني تحت جبل قنديل عارياً تماماً، وأرضعتني على صخرةٍ فوق جبل؛ منذُ وعيتُ لم أجد أمامي أحداً يُلاعِبُني غير الجبل. منذُ نطقتُ أول حرفٍ حفرتُه على قدم جبل. أول لفافة تبغٍ دخَّنتُها كانت من التبغ الذي زرعه أبي تحت سفح جبل. أول نبعٍ سبحتُ فيه كانَ يهدرُ من رحْمِ جبل، يا صديقي هرميتس».

أطفأ ريباز لفافته الثانية. سحبَ نفساً عميقاً. دار بعينيه نصف دورة حول أرجاء شقته. سمعتُ حشرجةً مشروخةً خرجت من حنجرته كأنهُ رجُلٌ في التسعين عُمراً. لم أشأ أن أُقاطعهُ. ثمة مُبرِّراتٌ كثيرة يتماوجُ صداها بين صوته ونظراته الحزينة، لم يبُح بها للآن.

قرأ ريباز حيْرتي عبر صمتي الذي انقضَّ عليه استرسالاً لم يتوقف من لسانه، فما كان منه إلاَّ أن يُكمل ما لدية من مُبرراتٍ يراها مُقنعة:

- آسف. اعذرني. هذا قَدَري. كلُ ليلةٍ، بلا انقطاعٍ، أفزُّ على ثُغاء ماعز، ونِعاج أبي، وهو يسرح بهما في السهول. ثُغاءٌ كما بُكاء إنسان، يتْبعني. أسمعُ حشرجات حبيبتي«گلاويش» وهي تسحبُ البساط الذي حاكته لي من تحت قدميَّ. سآتي بها قريباً يا صاحبي، لا تخَفْ. رتَّبتُ

كلَّ شيء. ماذا أقولُ لها وقد اشترطتْ على لحاقها بي أن يكون بيتنا تحت جبل؟

- إذن، يا ريباز، حبيبتك هي سبب اتخاذك أمر الرحيل عن يوتبوري، أليس كذلك؟

- شيء من هذا، وشيء من ذاك. بالمُخْتَصَر، أضاف ريباز:

«أنا لا يحلو لي النكاح إلاَّ على سرير تحت جبل». قهقه ريباز، بعُمقٍ، قهقهةً اهتز لها كَرْشَه الكبير تعبيراً عن سرورٍ غريب اختصره بهزَّتين من كتفيه.

لم يدعني ريباز أن أدخل أكثر في تفاصيل قراره الغريب هذا. استغربتُ أمر رجلٍ من سُلالات الشرق العجيب يتمنى العيش في بلاد تُحوِّل شمسها من خرافات التخمينِ في طلسْماتها إلى حقائق، أن يرحل إلى أقصى بقعة في الشمال الاسكندنافي، شمال الكون القارس من أجلِ جبل.

استكمل ريباز ترجمة مغزى قراره الصعود إلى حيث المسافة بين الأرض وعرش الله كالمسافة بين «كيرونا» وسفوح جبل قنديل:

- لقد تعقَّمتُ هُنا، يا هرميتس. منذُ مجيئي إلى السويد لم أستوعب أني وصلتُ برَّ الأمان. كان قلبي برقَّة ورقة تبغ خضراء في مزرعة أبي، أهجسُ، الآن، أن قلبي بدأ ينكمِشُ مُتيبِّساً على مرارةِ أضلاعي كأنها اخْشوشَبَتْ. أنا روبوت مُعقَّم.

نزلت دمعات خفية من عيني ريباز. حاول مُداراة انكساره بوضعُ كأس الشاي أمامي وجرة صغيرة تحتوي سُكَّراً تنتهي بقَمعٍ:

- ضع قدر ماتُحب من السُكَّر في كأسك»، يا عزيزي هرميتس.

- شُكراً. لقد أوقفتُ شربَ الشاي بالسُكَّر. السكَّر مُضرٌّ بالصحة.

«أتشربُ الشايَ من دونِ سُكَّر، يا صديقي؟»، سألني ريباز باستغرابٍ ذوَّب معهُ أربعة ملاعق من السكر في كأسه: «أرأيتَ، أضاف ريباز: «هذه علامة من علامات التعقيم الاسكندنافي في احتساء شاي خالٍ من السكر، أليس كذلك، يا هرميتس؟»».

«وما الضير إن كان هذا التعقيم مُفيدٌ لصحة الإنسان؟»، أجبتهُ. «المهم، أنا اليوم ضيفُكَ. أتسمح لي في المبيت عندك هذه الليلة؟ شقتي محجوزة. لدي ضيوف طارئون».

- طبعاً، أهلاً بك. سنسهر، بلا شك سهرة بحاجة أن نُدوِّخ بها الجُمجمة.

«هيا نلحق مخزن الكحول قبل إغلاقه»، قلت لريباز.

«لا تقلق. أخوك لا يخلو عش زنابيره من كحول، وإلا فالزنابير ستنهشُ ما تبقى لي من هيبة العقل». هههههه. ضحك ريباز ضحكةً طويلة أخذها معه وعاد بها مصطحباً زُجاجة فودكا، وأُخْرى من عرق «أوزو» مُهرَّب، صناعة الأتراك في عُقر دار الألمان.

أطمئنُّ جداً لإنسانٍ يتعاملُ معي بنقاءِ روحٍ لا خُبْثَ فيها، بلا مُواربة، أمامي؛:

- أفكَّرْت أن تزن روحكَ، يا ريباز؟

- كيف؟ أنا أعرف أن الروح مطحونة في الجسد لحماً، عظماً، ودماً. ثم إنَّ روحي بوزنِ جبل، أجابني ريباز.

- لا. الروحُ لا تُطْحَن. الروحُ تُشحَن. أنا أقصد إن كنتَ جرَّبتَ وزنَ روحكَ دونَ جسدَك، يا ريباز؟

«شَكْلَكَ «مُقندِلٌ» قبل أن تأتي إليَّ، يا هرميتس».

- لم أتناول الكحول منذُ ما يُقارب الشهر. مشكلة الديدان لم أجد من يدلني على مصدرها. الأسماك تُفضِّلُ ديدان الأرض فهي أكثرُ عافيةً وكبيرة، يا ريباز.

حاولتُ تغيير مسار حديثنا والابتعاد عن هموم اصطياد السمك. نظرتُ إلى زجاجتي الكحول، اللتين وضعهما ريباز على الطاولة الخشب، المستطيلة، العارية من أيِّ غطاء، وأنا متَّكئ يَسْنِدُني ظهر المقعد الجِلد الأسود، وأمامي ريباز يتصفح ألبومَ صورٍ استله من إحدى الحقائب المليئة بحاجياته المتنوعة استعداداً للرحيل.

ركَّزتُ نظري إلى زجاجة الـ «أوزو». شعَّت مأساة صديقي الشيوعي «مْحِيْسن»، وميضاً، قَدَحَتْ، فجاءةً، من نصلِ سكين على الطاولة. تراءت أليسيا واقفة تُقشِّرُ، بذات السكين، ليمونة، وتختلِسُ النظر إليَّ. تراءى لي غوستاف ظِلاًّ أزرقَ وهو يعبُّ من الكحول الأبيض المطعَّم يانَسوناً إغريقياً.

أللأقدار تشابهاتها؟ ربما. خمَّنتُ ذلك اعتماداً على المصادفة المحض، لحظة وضع ريباز زجاجتي الكحول على الطاولة. ارتسمت أمام وجهي صور مصائِر تطحنُ خيالها طحناً في مطحنة الاغتراب الفاجع. مصائر مُهشَّمة تتمزَّق أقدارها دون سابق قصد.

الهشيمُ الملموسُ، المرئيّ، يكتمِلُ معناه طحْناً خافتاً في الهشيم اللاَّمرئي. هشيمٌ هشٌّ كخوفٍ، كعُزلةٍ، كاغتصابٍ، كَهَرَبٍ، كَنَفْيٍ، كندَمٍ، كأرقٍ، كَفَقْدٍ، كإثْمٍ، كسَفالَةٍ، كحسْرةٍ، كمَتاهٍ، كهَباءٍ، كعَماءٍ، كضَياعٍ، كغَرَقٍ، كانتحارٍ، كعَواءٍ، كشَرٍّ، كعُنْفٍ موعودٍ بنكاحِ أخيه العُنْف. ما الفارقُ بين أن تتهشَّمُ روحٌ وتُطْحن، أو يتهشّم زجاجٌ ويُطْحَن؟

ماذا، يا تُرى، سيكون رد فعلِ أليسيا إنْ رأتْني أحتسي الأوزو . الكحول المفضل لدي عن سائر الأنواع الأخرى؟

شريطٌ طويل من خيالات. محطات ومهابِطَ مؤقتة أحياناً، وضِفافَ لا يَسْتِرُ وعْدَها الإطالة في المكوث.

ذكريات كثيرة موجَزة وأخرى تشهقُ بتفاصيلها السطور إنْ مسَّتها الكلمات.

مُجابهاتٌ مُعترك الحيلة تُسوِّغُها الحيلةُ كتبريرٍ لسوء فهم الحيلةِ نفسها خضْتُها في بعض سنوات منفاي.

حبلٌ ذكريات يسحبني وأسحبَهُ، يلتفُّ حول رقبتي كلما استعرضت مِلفَّات ماضٍ عنيف مُرعب، وقسوةٌ لا واقعية في قسوتها كتلك التي لا تبتعد كثيراً عن الخيال، مثل شرطٍ مُعاكس للواقع في أفلام الرُّعْب.

سيرةُ ماضٍ يهربُ بقدَرِه المشؤوم من بلدٍ يتلذَّذُ حاكمه بقنص مُعارضيه. يتجسَّدُ كوابيس أمامي، هنا، بتفصيل أكثر وضوحاً، لم أنْجُ منه محواً، ولم تستطع الذاكرة لَجْمَه أو إزالته. أما الماضي الأنيس بطبعه فنادراً ما يحلو له زيارتي أملاً في التخفيف من غلواء ماضٍ مُرعب. ماضٍ أنيس يبتعد لا أنتظرُ منهُ مُعجزة تفكُّ ألغاز كوابيسَ ما فتئت تُلاحقني. والأنكى أني أتعرفُ على أشخاصٍ ذوي ماضٍ أكثر قسوةٍ من عيِّنات بعضٍ من ماضيَّ المفرط في قسوته. لكني، قد أعترفُ، أن ماضياً مُرعباً، ماضياً مُلْتبِساً ذا مُعجزاتٍ ألفٍ، يتقن الجلادون ابتكارَ ألوان وأساليب التعذيب المنحط سيتركُ، شرخاً يئنُّ، لا يندمل، يعصفُ بجذوره كرامة الإنسان.

علَّمتني ذاكرة الماضي المجبول بطاعون الرُّعب الجسارة، والتحمُّل. لكنْ، ثمت الحَيْرة في البحث عن أسباب ما حصل؛ حيرة لا ترغب أن تُغادر فضولها المقيت. إنها سلطانٌ يتجوَّلُ في أعْماقنا يوزِّع علينا خذلانه انتقاماً من حقائق الخُذْلان التي لم نستوعب وجودها، هائمة، تائهة؛ حيرة تقطع شهيقها تعاقُباً يتعثَّرُ برصيف الخُذلان. هل ينتهي الخُذلان بالنسيان؟

تكرَّر، من جديد، الظهور الخفي لصديقي «مْحيسَن، الشاعر، والفنان التشكيلي. تجلَّى شبحاً باهِتاً مقوَّس الظهر قليلاً، بشعْرٍ أشْعثٍ مقذوفٍ في الهواء، وبعينين قلقتين من احْمِرارهما. كان عارياً إلاَّ من قميص كالحٍ فضفاضٍ، بلا أزرارٍ، يصلُ ركبتيه. ارتجفتُ. تجلَّت صور الذكريات السوداء البشعة داعسةً على سِيَرِ محطات جميلة عشتُها. قشعريرة سرت في جسدي. استذْكرْتُ «محيسن»، في لقائنا الأخير. ها هو أمامي، الآن، أكثر وضوحاً.

«لماذا تُلاحِقُني؟».

باغتني محيسن بسؤالٍ مسَّتْهُ شرارةُ حِقدٍ جافَّة. رفع يديه شاقاً بهما الهواء الثقيل كمن يعترض على ظهوري المفاجئ. تجاهلني، وتجاهلَ سؤالهُ إليَّ، الذي رماهُ بغْتةً، تاركاً باب دارهم تصفقهُ ريحٍ هوجاء آنَ فتحه لي.

استدار طائراً في الهواء يصفِّقُ لراقصات الباليه الروسيات اللائي تسللْنَ عبر صورهن التي وزَّعها محيسن لصْقاً على حيطان غرفته الطينية.

رمَقْتُ أليسيا قادمة صُحبة كلبٍ أشْقرٍ صغير رعتْه في جولةٍ طويلة بين درابين وأسْوار بيوت خمسميل الطينية.

دخلَت أليسيا دار محيسن. حرَّرت رقبة الكلب عن الحلقة الحديد المتصلة بحبل جلدٍ أسود رفيع علَّقتهُ على كَربةِ نخلة الدار الوحيدة. سبقتني، صُحبة الكلب، إلى حيث غرفة محيسن. لم أعِرِ الأمرَ أهتماماً. أغلقتُ ورائي باب غرفة صديقي الشاعر النزق بهدوءٍ أخْرَسَ هياجَ صريره.

جو الغرفة خانقٌ برطوبةٍ تَشقِّقُ الأنفاس لم يُسعفها هواء مروحة السقف. جلست أليسيا على طبْلةٍ خشبية صغيرة ترتفع 30 سم عن سطح الأرض، لا يسعها إلا هي، التي ترتدي بنطالَ جينز أسود مع قميصٍ حريري كثير الفراشات، ومعطفاً خفيفاً، طويلاً، كُحْلي اللون، مشقوق الصدر بلا أزرار، سوَّرَ جسدها والطبلة . الكرسي انسلالاً حتى الأرض. أمامها «تَنَكة» . صفيحة معدنية فارغة ، من تلك الصفائح التي يُكبس فيها التمر الذي أُدْرَك نضوجه فيُخلطُ بسُمْسُمٍ متحرِّرٍ من قشْره.

قفزت أليسيا تنزع عن الحائط إحدى ورقات الصحف التي أُلْصَقها محيسن بطريقة عبثية على معظم جدران غرفته.

غلَّفت أليسيا التنكة بالصحيفة شبه السوداء، صحيفة مسحوقة الحروف. ثمة صحن صغير أمامها فيه خمس بلْحاتٍ نصف ناضجات.

بوغِتت أليسيا حين رأتْني في غرفة محيسن. احتضنتني بحنوٍّ دافء. لمحتُ مظلَّتي مُغلقة مركونةً إلى الحائط يقطرُ منها بقايا مطرٍ علِقَ في قُماشتها السوداء.

«تفضل، يا هرميتس. هذا من بلح نخْلة هذه الدار»، قالت أليسيا. شكرتُها: «عليكِ أن تتذوقيه أنتِ، يا أليِسْ. لا بَلَح في السويد، يا عزيزتي».

لم تُعِر أليسيا بالاً لردِّي. أمسكتْ بجرو محيسن. أخرجتْ من حقيبتها زجاجة حليب ينتهي عنقها بمصاصة بلاستيكية ذات ثقبٍ كثُقب إبْرة. دسَّت المصاصة بفم الجرو تُرضعه. أغمَض الجرو عينيه مستسلماً بامتنانٍ لرعاية أليسيا له وهي تُمسِّدُ، بحنوٍّ مُبالغٍ فيه، فروة رأسه السوداء يُخالطُها بعضُ بياضٍ ينسجمُ مع شَقارِ شعر بقية أعضائه.

- لم تُعرِّفُني على جروِ صاحبك، ما اسمه، ياهرميتس؟

«بوبي. اسمُهُ بوبي»، أجبتُ أليسيا.

«بوبي؟ إسْمٌ لطيف، وغريب، فعلاً. أتطلقونَ على كلابكم أسماء أوروبية، يا هرميتس؟»، سألتني أليسيا بنبرةِ استغرابٍ وهي تُداعِبُ الجرو بعد أن فرغَت من إرضاعه.

نبح الجرو نباحاً مُهذَّباً علامةَ امتنانٍ لأليسيا لوجبة الحليب الدسمة التي رضعها.

«تلك ليست مُعضلة البتَّة، يا أليس. نحنُ نُطلقُ اسم «بوبي» على كل الكلاب في بلدنا. ما الضير في ذلك؟»، أجبْتُها مُختنِقاً بفضولها البَطْران لحظتَها.

- لاحظْتُ، يا هِرميتس، الكثير من الكلاب السائبة، بلا مأوى منتشرة في الطرقات، كأنها في غابة من غابات السويد. لقد لاحقتني أسرابٌ منها وأنا عائدة طوال الطريق من حوافِ سكَّة الحديد البعيدة لغاية بيت صديقك.

- لا تصنيف للكلاب في هذه البِلاد. هذه البلاد ليست كالسويد، يا أليس. الكلاب هُنا كلها بلا مأوى، إلاَّ ما ندَر. كلها متوحشة، سائبة،

لا بيوتَ تؤويها، ولا دورَ حضانة. هي لا تُباع ولا تُشْترى. هكذا هي كلابُ هذه البلاد مقذوفة تسرح منذُ تفتَّقَ النورُ صاخِباً من عَماءِ هذه البلاد غاسلاً مضائِق قَدَرها المجنون. منذ أن بدأت السماءُ تلفظُ لُجَّ أعاصيرها حين كانت، هذه البلاد، في لُجِّ سوادِها، لذا أُطلِق عليها «أرضُ السواد». تُداهِمُ بلدية المدينة، بين آونة وأخرى، مجاميع الكلاب السائبة التي تجوب الأحياء والشوارع للتخلص منها خوفاً من انتشار «داء الكلب» الخطير.

- غريب ما تقوله، ياهرميتس. كيف يتم التخلص منها؟

- هنالك طريقتان: إمَّا بتسميمها بخلط قطع من اللحم بمادة سامة ورميها للكلاب، أو بإطلاق النار عليها. لقد توقفت هاتان الطريقتان، الآن. البلاد في حالة حصار. لا لحم فائضاً عن حاجته لرميه للكلاب، ولا طلقات فائضة عن الحاجة، فالبلاد في حالة حَرب.

«أيُطْلِقون النار على الكلاب بعيون مفتوحة؟، سألتْني أليسيا بحركةٍ من يديها كمن يحملُ مُسدساً.

- نعم، وعلى وِسْعِ حدقاتهم الدموية، وبمتعةٍ على بهائِمَ تنظرُ إلى مُطلقي النار بعيونٍ مُرتجفة في دهْشَتَها. من ينصبُ مِصْيدة عليه أن يكْمُن لها متحفِّزاً، يا صديقتي.

- هنالك أخبار غير مؤكدة، أيضاً، تقول إنَّ بعض الأهالي يذبحون الكلاب ويأكلون لحمها، وربما القطط أيضاً. الجوعُ كافرٌ، يا أليسيا.

- لكن ذلك تُحرِّمه الأديان، يا صديقي الشاعر.

- لا حَرام في زمن النَكبات. لا حرام طالما نُذْبَحُ حَلالاً.

امتعضت أليسيا من تبريراتٍ عدَّتْها قمة الوحْشَية.

كوَّرت أليسيا يدها اليُمنى، دوَّرتْها في الهواء:

«يبدو أنكَ تُهلوِس. ما المبدأ الذي يُسوِّغ الحَلال والمبدأ الذي يُحرِّمُ الحَرام، ها، قُل لي، يا سليل الإغريق؟»، سألتْني أليسيا وهي ترتجفُ هلعاً من إجاباتٍ على استفساراتها القلقة.

- دِيْنُ الأكْثرية، في هذه البلاد، يُبرِّرُ ذلك، يا أليس. ذبْحُ البهائِمَ، بالذات النِعاج والأبقار والأكباش، لا يُكلِّفُ شيئاً: نصلُ سكينٍ مُهذَّب حدُّهُ. تمتمةُ البَسْمَلة، ويُفضَّلُ أن لا تُسْمَع. ويُفضَّلُ أن تُشيرُ بوْصَلةُ الذَّبْحُ إلى القِبْلة، ثم حزُّ الرقبة، فيفورُ دمُ الضحيَّة رشَّاشاً يُعلي الروحَ ويُطفئها. إنها حفلةُ حلالٍ لا تستغرقُ إلاَّ دقائق كي يذهبُ لحم الضحيةِ طازجاً، مُهذَّباً إلى حتفه، مُملَّحاً، إلى مُعْجِزات النار .

لم تستوعب أليسيا ما ذهبتُ به شرْحاً لها عن نكبةً ذبح البهائم. عدَّتْ ذلك هذَراً وأسلوباً شريراً في نحرِ الحيوانات.

انتفضتْ أليسيا واقفةً. نزعت معطفها ورمت به صوبَ محيسن الذي لم يُحرِّك ساكناً. هي لم ترَه. هو لم يرَها احتضنت جرو محيسن. شهقتْ تبكي بحرقة.

«هؤلاء مجانين، وقَتَلة، وبلا رحمة»، ردت أليسيا. أضافت: «ما شأنُ ذبحهم الحلال، لبهائم يأكلونها، بمقْتَلة الكلاب البلا مأوى، وطريقة التخلص منها؟ لا بُد من حملةِ إنقاذ كلاب هذه البلاد. سأقومُ بحملةِ تبِّن لكل كلابكم. سأُطالب بفتح باب اللجوء لها، يا هرميتس».

مسَّني، فجاءةً، طيفٌ غريب طلَّ برأسه بعنْفٍ مستطيرٍ، يحْملُ سكيناً برأسٍ مُدبَّبٍ وخزَ بها بعض دَمامِلَ مُملَّحةً بأسرارها نزَّت بَوْحاً

على لِسانِ صديقي محيسن. طيفٌ فتح خِزانةَ السرِّ الذي باح لِيَ به محيسن قبل أعوام بعيدة:

حين التقيتُ محيسن، بعد أيامٍ قليلة من إطلاق سراحه من مديرية أمن البصرة، مهزوزَ الجسد، منكسر الروح فاقداً طعم الحياة، معطوباً، مشروخَ الصوتِ، أخْرَس. خجله الذي جُبِلَ عليه مقضوم الأُفول.

لم يكُن محيسن، وأنا ألتقيه في خضمِّ حُلم تيهٍ غير مُرتَّبٍ، البتَّة، كما عهدتهُ، عند آخر لقاءٍ بعيد، لحظة كَشْفِه لي سرَّهُ المخبَّأ تحت شغاف قلبه. ارتجاني الأمانة عدم البوح به لأي مخلوق. كان سرُّهُ طرياً وذعرهُ أطْرى، يستعرضهُ كالمكْلوم ببصر أعماقه.

بكى شبحُ «مْحِيسِن» وهو يقتحمُ غفلةَ قيلولتي التي استجاب لها جسدي مُتحرِّراً من الحَيْرة بعد أن تنازلتُ عن شقتي للمرأة التي فقدت مفاتيحها .

لم يعِر محيسن انتباهاً لوجود أليسيا، ولا هي. كانت مُندمجةً تُلاعِبُ جرو محيسن تارةً، وأخرى تُدوِّنُ ما لم أكُن أراه من ترديدات الصدى لكلمات صديقي الفنان منجذبةً بكاملِ مشاعرها إلى يأسه المخذول عَبْرَ حركة شفتيه، وانفعالات أعضاء جسده اللامتوازنة، كأنها ترسمُ موديلاً مستسلماً أمامها على قُماشة من نسْجِ خيالها.

أعاد شبح محيسن، بلسانٍ أخرسَ، بلا مُقدِّمات، ما كان قد حصل له قبل ثلاثيَن عاماً. نزَّ دمْعاً كرِياً من عينين غشاهُما جرحٌ مكتوم.

لا لم يكن يبكي، كان ينشُج. نُشْجهُ يعلو فيقضم شهيقه المشروخ زفيراً بشفرات الحرْقة المغلية في جوفه. كان مُنكسِراً مكلوماً يُقلِّبُ

سراً مدفوناً في جحيمِ قلبه المنفطر ألماً. اهْتزَّ مرتجِفاً كسعفات النخلة الوحيدة في بيتهم الطيني المتواضع في حَيْ «خَمْسَميلْ».

من خطَّطَ وسمىَّ هذا الحي ورسم حدود أرضه البور؟ لماذا أميالٌ خمسة، فقط، لم تتجاوز شِبْراً، أو تتقُصُ فِتْراً؟

تناقلَ الناسُ حكايات كثيرة عن مرجِع اسمِ هذا الحي، منها أن الانكليز هُم من منحوا تلك البُقعة، المنطوية على طعنات الأسى، هذا العنوان ومهروا الإسمَ على الجزءِ المُخصَّص من طوبوغرافية المدينة المحفوظة ضمن سجلات طابو البصرة.

لم يُعِر المهاجرون إلى خمسميل، من فلاحي أهوار العِمارة، والناصرية، الذين ابتنوا بيوتاً صرائفَ من قصبٍ لبخوهاً طيناً مفخوراً من أسى قلوبهم، اهتماماً لهذا الاسم. كل ما في الأمر أنهم فقراء هبطوا على أرضٍ مَشاع اسمها خمسميل.

طوَّفَ الشَّبحُ ثقيلاً مُشتعلَ الرأس حول قُطب الاسكندناف. طوَّفَ كشيخٍ لم يعُد عمره صالحاً أن يتنفس طزاجةَ ربيعه المنهوب.

ما زالَ محيسن، حتى وهو يزورني كشبحٍ، يتشاجرُ ويشْتُم الأقدار، منذُ الانعطافة الزَّنِخة التي قُسِرَ عليها، شأنه شأن الكثير من الشباب الذين اعتقلوا وعُذِّبوا وأُسْقطوا سياسياً.

أغلقَ محيسن باب غرفته، بعد أن ناولتْه أخته صينية فيها كأسان من الشاي. جلسنا أرضاً نفترشُ حصيرة نُسِجَت من ضفائِرَ سعْفٍ. قرفص محيسن مُرتَجِفاً، طاوياً ساقيه إلى صدره. نظرَ إليَّ:

«أينَ مُسدس «راشان»، الذي وعَدْتني به؟»، سألني محيسن، الشبح، مُزمْجِراً بغضب لم أعتَد عليه.

نظرتُ إلى محيسن بتعجُّبٍ من المفاجأة الغريبة التي فجَّرها، من جديد. نظرتُ إلى «أليسيا» إن كانت انتبهت إلى طلب محيسن. لم تكُن معنا. بوبي مسَّ عقلها مساً مؤلماً.

أشارَ إلى صفّ الكُتب التي اقتناها تفضيلاً عن ضروراتٍ أخرى يحتاجها. كُتُبٌ مُنسَّقةٌ في رفوفٍ متواضعة يسندها حائط طيني. سها قليلاً، تمتمَ كافراً بدِين كل أشكالِ الولاء في معاني الولاء المظلِّل:

«أنظر، ياصديقي، إلى كُتُبي هذه التي ظننْتُها أنها تسندُ حائطنا الطيني، كتبٌ ردَّدنا مقولاتها وبَصَمْنا بعض نصوصها ظناً منا أننا سنسْحل كل القِيَم المشاكسة لقيمِنا إلى حتْفها. كتبٌ بمعارِفَ أوهمتني أنني سيد نفسي، معتقداً أنها سلاحي أمام الجلادين. أنا هشٌّ، يا صاحبي، بقدرِ ما تتصوَّر وما لا تتصوَّر. هشاشتي مثل حائط غرفتي الطيني الذي ربما سيسقط مع أول عاصفة مطر. ما فائدتي بعد اليوم أنا المدنَّس بالعار. لا قُدرةَ لي في الاستناد على هذا الحائط الطينِي الذي اعتقدتُ وآمنتُ بصلابته، كأفكاري المقدَّسة. من يجرؤ على أن يُترجمَ المسلَّمات على هواه؟ كل شيء ارتجَّ فيَّ، يا صاحبي. أنا كومة ارتجاجات ونكبةٌ من نكبات العَدَم. ما الجدير بحياتي، بعد اليوم؟ ليس أمامي غير تقويض القِيَم التي شربتُها بكأسِ ماء اليقين».

«الحَمْلة شرسة، يا عزيزي. هُم أقوى منا. رُبما خُدِعْنا، ولم نحتط للأمرَ. الانهيار جماعي، ولست أنت الوحيد في هذه الأزمة»، قلتُ لمحيسن عساني أُخفِّفُ من غلواء انكساره وإحباطه.

«هُم أقوى، يا صاحبي، لم أقوَ على التحمَّل. لقد هتكوا عرْضي».

احتضنني محيسن، هزَّني.

اهتزت المكتبة وحائط الطين، والأرض التي نجلس عليها، والبساط من تحتنا، وأكواب الشاي البارد، والجرو الصغير الذي يُحبه محيسن ويعتني به.

ابتعد قليلاً عني. جال ببصره أنحاء الغرفة. نظر إلى جروه الأشْقَر يراهُ منتحياً زاوية قريبة منا:

«أنظر، ياصاحبي»، قال وهو يُشيرُ إلى كلبه كأنهما يتبادلان لغةَ الإنكسار «هذا الكلب أشرفُ من الكثير مِن بَشرٍ يعيشون بيننا. أتعلَم، أن هذا الجرو هو الذي استدل عليَّ يوم رمتني قطعان الأمن المتوحشة في ليلةٍ غاب فيها كل تفصيل من تفاصيل سماء الله ليلاً: لا قمرَ، لا نجوم. رموا بي بعيداً عن دارنا بحدود 100 متر. ظل هذا الكلب الصغير ينبح، تلك الليلة، لساعات، هائجاً بين الحوش وباب الدار. الأنين الذي استعَرَ في نباح جَرْوي، تلك الليلة، جعل كل كلاب خمسميل تستنفر نباحاً دامياً حتى اضطر أخي الصغير أن يفتح له الباب فانطلق يركض وأخي يلاحقة حتى عثرا عليَّ هامداً، وقد عُجِنَ جسدي بوحلٍ تشبَّع بمطرٍ أخرس، تُرجِّفُني أنفاسٌ مُتقطِّعة، ووجهي مُلَطَّخ بوحلٍ مجبولٍ بالحصى والتراب يحرقُ شهيقي المتحشرجَ بزفيري».

«حملني أخي إلى الدار والجرو وراءنا يموء. كان يبكي هريراً ساخناً، وللآن يبكي بصمت. أُنظر إليه ما زال منزوياً منذُ تلك الليلة في غرفتي يرفض الخروج. منذُ شهر لم أبرحُ غرفتي هذه، ياصديقي. أرى كلبي الصغير يذبُل أكثر مني كمن يؤنبه ضميره».

صمتَ محيسن. لم أستطع النُّطْق. أُخْرِسْتُ. نظَراتي كانت كافية تعبيراً عن الشعور بالجُرح الذي شرخَ به الأنذال روح محيسن النقية.

- صعبٌ عليهم أن يخطؤننا. إنهم سُوس لا دواء لهُ، لا بل هُم الدود المشؤوم. أنا لا أحب التفاح، يا محيسن.

«ما هذا المثَل التي يُردده رفاقنا، يا محسين، كلما تراكمت أخطائنا؟ «مرگتْنَه على زياگنه» أهذه مقولة من مقولات ماركس؟».

«لو سمعها ماركس لمزَّق زِيْگه»، علَّق محيسن.

استلّ محيسن، من بين مجموعة كُتبٍ، دفتراً صغيراً. فتحه وأخرج ورقةً: «خُذ اقرأ»، قال لي.

«ما هذا يا مْحيسن؟ هذه قصيدة»، قلتُ.

«اقرأها بصوتٍ عالٍ. دَعْني أسْمعها بصوتِكَ. أنتَ تُجيد قراءة الشِّعْر أكثر مني»، أجابني محيسن.

أمسكتُ ورقة القصيدة التي لا تتعدى أسطُراً قليلة. قرأْتُها بصمت. نظرتُ إلى محيسن. استنطقِ استغرابي من نظراتٍ تبادلْناها، على عجلٍ. تماوجتْ القصيدة. أسْندتُ مرفق يدي اليسرى على فخذي اليسرى والقصيدة ترتجف في يدي:

- ما هذا، يا محيسن؟

«أرجوك، يا صديقي»، قال كالمتوسِّلُ رغبةً، بصوتٍ مُضرَّجٍ باليأسِ. «اقرأها بصوتٍ عالٍ. أريدُ أن أسمع لَعْلَعَةً. رغبتي جامحة في أن أشْتمَّ رائحة الذُّعْر وهي تتطايرُ صُراخاً من رأس ذاك المحقِّق القوَّاد».

نزلتُ عند رغبة محيسن. قرأتُ القصيدة بصوتٍ مسموعٍ مُحاولاً أن لا يخترِقَ جدران غرفته إلى مسامع الآخرين:

طَلْقَة

مَنْ يُهديني طلقَتَهُ الأخيرة؟

أشْتَهي العَدَم.

عُمري تَرْجمْتُهُ متزلجاً،

على لذائِذَ السكك المحتشدةِ بالأنبياء الساذجين.

رجفتي ذليلةٌ،

وما تبقى منها ينزفُ معاتباتٍ،

وأنا،

لا صبْرَ لي.

أبعدوا عني الموت المفاجئ،

لا مُتَّسَعَ بَعْدُ،

لِمزاجٍ بَطِرٍ يُحب التسليةَ.

لم يبقَ ما لم يتقشَّرُ من جلد العُمْرِ،

العُمْرُ أُضْحوكة الخديعة

لذا، من يُهديني طلقةً،

كي أُصَفِّرَ ميزان أنفاسي؟

سأمتُ الحياة.

طويتُ الورقة وأعدتُها إليه.

«جِدْ أحداً يتدبَّر لي مسدساً وهذه الطلقة، يا صاحبي»، قال لي محيسن برجاءٍ منفعل، وحقيقي. أضافَ مُكْملاً الرجاءَ بخجلٍ لم استغربهُ: «اجْعلهما طلقتين، واحدة سأُفرغها في رأس ذاك الوغد الذي انتزع مني شرفي، والأخرى لي. هناك فراغٌ في روحي، فراغٌ هشٌّ حصل، ولا يملأ هذا الفراغ غير رصاصة، وإنْ انْحَرَفَتْ، ولم تُصِبْني، فلعلها تُصيبُ المسلَّمات وتُخدِّشها، أو تُشوِّش المسارات، وبغير ذلك، فأنا لن أَصل أبداً».

- منذ متى نؤمن بالانتحار، يا محيسن، أو الانتقام من الأوغاد بإسلوب الاغتيال؟. ما رأيُك أن تخرج من هذه الكوابيس. لنلتقي غداً في بارنا المفضَّل. لي فترة لم أحتسِ العرق.

زاغت عينا محيسن. اضطرب فجاءة. ضربَ صدغَهُ العريض بكفه، ركض خارجاً من الغرفة. سمعتُ صوت استفراغٍ وضربات على الحائط. عاد، بعد دقائق مصفرَّ الوجه:

- لا تذكُر أمامي اسم هذا الكحول من الآن فصاعداً.

استغربتُ ردَّة فعله. «ما دَخْلُ العَرَق؟»، سألتهُ.

- لن تُصدِّق، يا عزيزي. والله هؤلاء الأنذال خُبراء في إذلالنا.

وقف محيسن مرتجِفاً، مولياً ظهره إليَّ كي لا أرى رجفة وجهه التي زلزلت حتى السماء السابعة. مرَّر أصابع يده اليمنى بين خصلات شعره يشدُّها. خدشَ بأظافره الجزء العلوي من صدره. صريرُ أسنانهِ طحنَ فرضية الانتقام المجهول اسلوباً وتوقيتاً. استدار محيسن مُكتِّفاً يديه تحت صدره. غَمغمَ، حكى. استفاضَ :

«طلبني المحقِّق، بعد أسبوعٍ من حفلات التعذيب والإهانات التي تحمَّلتُها بجَلَد. لم أنطق بكلمة. في ليلةٍ هوجاء، استدعاني المحقق إلى غرفته. أغلق الباب. «ارتاحْ» قال لي المحقق، وهو يُشير إلى كُرسي خيزران أحْمر اللون أنْ أجْلُس: «أعرفُ أنكَ مُثقف وأديب وأنا شخصياً مُعجب بقصائدك أكثر من اللوحات التي ترسمَها».

- لم أُجبه. وضع زجاجة عرقِ «المسيَّح» على الطاولة. صبَّ لي كأساً وله كأساً. افترَّت رائحة اليانسون في رأسي بعد أن خلط الكحول بالماء. ناولني سيجارة: «خُذ دخِّن، قال. الدُخان يُريح أعصابكَ»، أضاف المحقق بنظرةٍ ذِئبيَّة من عينين تنفثانِ جَمراً حارقاً. ناولني كأس العَرَق:

« لنشرب بصحة تعارفنا»، قال رافعاً كأسه في الهواء. مسكتُ كأسي وأعدتهُ إلى الطاولة:

- لا أشرب الكحول. قلت له.

«لا تشرب الكحول؟»، ردَّ على رفْضي دعْوته بامتعاضٍ مُحتَقَر. امتعاضٍ لا يتقاطعُ مع ضحكةِ استهزاءٍ أطلقها بتكْشيرةٍ صفراء رجَّفت شفتيه اللتين انفرجتا عن أسنانٍ صُفرٍ مُقرِفة: «ألسْتَ مِنْ جماعتك الذين يفضلون العرق على كحولٍ آخر، أيها المتذاكي أمامي بغباءٍ مفضوح، أيها المناضل «محيسَن ابن جلُّوب؟»، أضاف.

«أنا لا أشربُ كحولاً، إطْلاقاً»، أجبتُ المحقِّق. نقَّلْتُ نظرةً سريعة بينه وبين الكأس الكحول.

قفز، من أمامي، قفزةً مُسْتثارة. استدارَ حولَ طاولةٍ مستطيلة صفراء يتناثر على سطحها ملفات متنوعة الألوان. سحبَ جرار

الطاولة اليمين. أخرجَ مجموعة صورٍ. قلَّبها. استل من بينها صورة واحدة ورماها في وجهي:

«خُذ، أيها الفنان، أيها اليساري المثقَّف، انظر إلى صورتك. دقِّق فيها على مَهَل. أُنظر كيفَ تجلس مسترخياً، منتعشاً، ملْتَذاً بالكحول، مع رفاقك في بار «ماتيلدا» تحتسي العرق. أهذا عرقٌ، أم حليب أمك الذي في الكأس أمامك؟»، أجابني مستفسراً، مشيراً إلى الصورة الدليل حيث لا ينفع النُكْران، ثم أضاف:

«لا تُطِلِ التفكير، فهؤلاء الثلاثة الذين كانوا رفاقك في الصورة معك، جميعهم اعترفوا عليك. كانوا أكثر منك ذكاءً. وزنوا اللعبة بميزان العقل. أفرغوا المطلوب في هذه الأوراق التي على طاولتي وأفرجنا عنهم بسرعة، فلا تتغابَ أكثر أمامي، أيها الفنان الشيوعي»، أضاف المحقق وهو يَغْلي ويُرعد غضباً، مفرغَاً كأس كحوله في جوفه.

«صحيح، أيها المحقق، أنا هنا، في الصورة، لا جِدال في ذلك، لكني كنتُ أجالِسُ اصدقائي من دون أن ... لَجَمني المحقق. لم يسمح لي بإكمال توضيحي الملتوي. أُسقِطَ في يدي. أَخْرَسَني. تقرَّب من الطاولة التي عليها كأسي المملوءة، وزجاجة العَرق. مسكَ بكأسي وصرخً:

«أنتم المنايك الشيوعيين تعبدونَ العرقَ مثلما تُقدِّسون جدَّكم ماركس وحفيده لينين. سأُريك الليلة من أنا، يا ابن القِحاب إن لم تعترف». أخذ الكأس يهتز بين يديه. استدار، أعطاني ظهره:

- فكِّر في الأمر جيداً. أمهلناك أسبوعاً بحاله ولم تتعاون معنا. أمامك دقيقتان لتعود إلى رشدكَ.

صمتٌ هزَّني. لم أُجبه. لا أتذكر كم من الوقت مضى حين استدار ورشَّ ما في الكأس بوجهي صارخاً:

«سأُسكِرُك اليوم من دُبْرِكَ، بدلاً من أن تسْكَر من فمِك». أفرغَ نصف الزجاجة على رأسي وهو يدقُّ الأرض بقدميه:

«هذه نصف الزجاجة «سنْكين»، في أول سهرتنا، أيها المناضل الصامد. ما مِن أحدٍ يتحداني. ستحلو معك السهرة هذه الليلة. ستعْترف، يعني ستعترف».

رفسني. تدحرجتُ من على الكرسي. ارتطم رأسي بالحائط فسقطتُ أرضاً. وضع حذاء قدمه القذرة على رأسي، وضغط عليه بعنف. دوارٌ عنيف خالطته غَمامَةٌ نزلت ضباباً أسودَ على عيني. جرَّدني من بنطالي، وسروالي الداخلي، ثم أدخلَ رأس زجاجة العرقَ في دُبري، دفعها بعُنف وهو يرتعِد مُهَسْتَراً:

«إشرب إشرب، يا ابن القحاب. انتعش واسْكَرْ بلا مُقبِّلات، لا وقت للمُقبِلات، سأُكمِل لك سهرتُك بأطيب المقبِّلات».

صرختُ بعنف، وبكل ما لدي من طاقة كانت مُخزّنة في روحي. سحبَ رأس القنينة من دبْري وأكملَ حفلةَ مجونه باغتصابي. سَحَب عضوه وصرَخ كالمجنون: «آخ أُفَيِّش». أُغْمِيَ عليَّ.

«يستلذُّ بانهيار البَشَر أشباهُ البَشَر»، قلتُ لمحيسن، وهو مُنْشغلٌ بفَرْكِ أصابعِ قدميه بعنف، بينما أنا أرتجِفُ كغصنِ ورد زُرِع للتو.

صمتٌ رجَّف صدمَتي. تيبَّس الكلامُ في فمي. طنين صدمة محيسن زلزلت مطارقها أفكاري ومشاعري، ناظراً إلى حال صديقي

الذي لا يُحسد عليه. نقَّلْتُ عينيَّ في أرجاء الغرفة بحثاً عن أليسيا. اختفت. غمغم محيسن بكلمات مبعثرة يُكملُ لي فاجعته:

«آخر ما أتذكره أن سيارة إسعاف رمتني، بعد يومين من تلك المجزرة الشنيعة بحقي، بالقُرب من دارنا في ليلة لا أتذكر منها شيئاً إلاَّ ونيناً يحرقُ جوفي، ونيناً هائجاً يهزُّ الكون».

«أنستسلِم، يا محيسن؟»، سألتُه عسايَ أُنهض في داخلة بقيةَ صبرٍ، أو عزيمة، أو جَلَد.

«هو واحد. شخص واحد فقط. أيُعقل أننا لا نستطيع أن نواجه شخصاً واحداً، يتلاعب بمصيرنا كما يحلو له؟». رمى محيسن سؤاله محتضناً وجهه بيدين مرتجفتين.

«من تقصد، يا محيسن؟»، سألتُه.

رفع محيسن رأسه. نظر إليَّ نظرة استخفاف من سؤالي:

«إنه المولوخ. مولوخ عراقي ببدلة بيضاء. مولوخ معاصر يخرج من بيننا يفتش عن قرابين، طاعةً أو بالإكْراه. لن ينجو أحد. اكتمل بناء المذبح. مولوخنا الجميل، الطويل، الساحر، بشاربين كثَّيْن، وأسنان ناصعة، يجلس مسترخياً، ويطلب المزيد من القرابين».

قفز محيسن إلى رف الكتُب ساحباً كتاباً ضخماً. فتحهُ عند صفحةٍ مُعلَّمة بورقة صغيرة. نظر إليَّ بصوتٍ ملدوغٍ وإلى باطن الصفحة التي ذهب إليها. قال:

«أتعرف، يا صديقي، إنَّ كلمة «أُفِّيْش» مصدرُها فصيح؟! أعتقد، نحن العراقيين، فقط نستخدم هذه الكلمة تعبيراً عن الانتصار».

«في ليلةٍ من ليالي كوابيسي أخذت كلمة «أُفِّيْش»، تتناطح في رأسي كمن يدقُّ مِسماراً فيه. قفزت كالمذعور إلى معجم «القاموس المحيط»، أُفتِّش إن كانت مُستلَّة من لُغة العرب، فاكتشفتُ، فعلاً، إنها فصيحة: «فاشَ، يفيشُ، والمصدر: فَيْشٌ. فاشَ الرجلُ فيْشاً أي افتخَرَ وتكبَّر ولا شيءَ عنده. فاشَ فُلان فيْشوشة: ضعُفَ واسترخت أعْضاؤه». إننا ننْطقُها مُضخَّمة، مسبوقة بالهمزة، بطريقة بهلوانية فيها تكبُّر وعنفوان. كل شيءٍ لدينا عنيف». أنْهى محيسن شرْحه بسؤالٍ غريب وسَّعهُ إلى مَخرجٍ يبدو أنه يُفكِّرُ فيه بجدٍّ:

- أيحُق لي شخصياً، يا صديقي المسيحي، أن أستطعم معنى أُفِّيْش؟

«كيف؟ لم أفهم؟»، قلتُ لمحيسن مستفسِراً.

ابتسم محيسن ابتسامةَ المخذول ناظراً إليَّ، وإلى سلسلةِ كُتبه، والمجلدات الثقيلة بأغلفتها الفخمة محفورٌ بعض منها بماءٍ ذهبيٍّ، كأنه سالَ دمعاً خفياً من الأغلفة على عيني صاحبي.

وقف محيسن على بُعدِ خطوتين من تمثالٍ صغير صُبَّ من الجِّبْس الأبيض الخفيف للروائي الروسي «دستويفسكي»، حشرهُ وسط أحد الرفوف بين صفَّيْن من الكُتبِ. نظر إلى التمثال. وضع يده اليُسرى على رأس التمثال. نظرَ إليَّ نظرةً حيْرى. قال لي:

«عندما تَمْرَض تُشفى بالأدوية. عندما يُجرح جزء من جسمك تُداويه وتُعقِّمه، لكن بماذا تُعقِّمُ جُرحاً أصابَ روحك، ولن يندَمِل؟ تحسُّهُ لكنك لا تستطيع مُداواته. اسأل هذا العملاق، «دستويفسكي»، يا صاحبي»، أضافَ محيسن: «ما الإثم الذي يترتَّبُ على مجرمٍ عقاباً على زرعِه قُبْحاً لا يندمل في روح ضحيته. لقد مُسِختُ بهيمةً تُقادُ

ذليلةً وطأها جلادٌ مُسِخَ وحْشاً عارياً إلاَّ من موهبةِ إذلالِ أنْداده؛ وحشاً جباناً امتلك سلاح إسْقاط كل من يُعارِضُ سلطة أسياده. أنا، منذ الآن، لستُ ذا شأن، ولن أكون».

أبْعَدَ محيسن يده عن التمثال، مشى خطوات باتجاه الشباك الوحيد في غرفته. أغلقَ الستارة. أكمل استرسال حديثه:

«حتى لو انتقمتُ من هذا الجلادُ المسخ وانتصرتُ عليه فستفوح، من نَصْري، رائحة العفونة. اللعنة، لم أعُد إنساناً صرفاً، تعرَّت كينونتي وما أنا إلاَّ مادة منكوبة في فراغ». صمت محيسن.

«أعتقد كلانا يؤمنُ أن في هذه الحياةُ بعضاً من شرٍّ جديرٌ أن نتذوَّقه. علينا أن نضعَف كي ننسى»، قلتُ لمحيسن عسى أن أصْرِفْه عن ضفة حزنه إلى ضفة أبعد مما هيَّجته الطعنة الأبدية، طعنة الجلاد الشرير، في روحه.

نظر محيسن إليَّ نظرةً توسُّلٍ غير مُتصنِّعة كَمَن تفتَّقت، لوهلةٍ، ومْضةَ فألٍ حَسَن في رأسه، نَواتها فكرة جهنَّمية لا مجالَ لتأجيلها:

«أريدُ أن أعترِف، يا صاحبي»، قالها لي كمن يتوسَّلُ مُنْقِذاً.

«ماذا»، قلتُ له. وضعتُ كفي على كتفه حين ركعَ أمامي. «ما بِكَ؟، ألا يكفي ما فعلوه بِكَ وترغب أن تتنازل لهم بتقديم اعترافات تُدينك أكثر، مُكْمِلاً لهم ما يُريدونه من تسقيط المؤمن بأفكاره عن يقين؟».

أنْزَلَ يدي عن كتفه، ضمَّها بقوة إلى يدي الآخرى بين يديه:

«ساعدني، يا أعز من اخوتي. أريدُ أن أعترف. اسْنِدني علَّك توقِّف ما تبقى من سقوطي الأبدي. خُذني إلى كنيستكم. خُذني إلى مريمكم ومسيحكُم وأسباطه».

قفز محيسن إلى رفوف مكتبته، سحب عديداً من الكُتب وتناول كتاباً ضخماً مُجلَّدا مُخبَّأً، كَمَن خبَّأ كنزاً، خلف مجموعة من كُتبه الضخمة. مسك الكتابَ بقوة. ضمّه إلى صدرهِ:

«من الآن فصاعداً سيكون إنْجيلكم المقدس، هذا، مصدَرَ سرٍّ مُقدَّس، ومصدراً من مصادر ثقافتي الحقيقية. أنا لا أمزح»، قال محيسن، مرتجفاً، وهو يفتح الكتاب يُقلِّبُ صَفَحاته، يقرأ، قراءةً عشواء، شذراتٌ منه بلا تحديد من صفحاتٍ علَّمَ بعضاً من سطورها:

«ساعدني، أريدُ أن أعترف بكل شيء أمام كاهن كنيستكم»، أضاف وهو يسحبني، كطفلٍ يتوسُّلٍ الذهاب معه، الآن، إلى الكنيسة.

«على مهلك، يا صاحبي. لا تتعجَّل. سأُرتِّبُ لك الأمر إن كان ذلك يُريحُك، بعض الشيء. عليَّ أن أُخبِر القس الأكبر المسؤول. طلبك هذا ليس هيِّناً. لا أعرف كيف يتقبلون فكرة شخص مُسلم يرغب بالإعتراف عن خطايا لم يرتكِبها إنما أُجبِرَ عليها»، قلتُ لمحيسن أُهدِّءُ من روعه.

تذكرتُ حوارات سابقة مدخلها أسئلة مُفترضة تداولناها بُغيةَ العثور على إجاباتٍ مُفترضة، أنا ومحيسن، الشاب الأسْمرَ، الطويل نحولاً ، العنيد بقناعاته، لا يُهادِنُ حتى الريح التي إن هبَّت يميلُ عليها ليُسندها قبل أن تهزُّه:

بدأتُ هواجسُ غريبة تنقضُّ على تفكيري، تَنهشُ ببطءٍ قاتل عضلات يقيني. كوابيس من فراشات سوداء تتطايرُ أمام هول الفراغ الذي بدأت أسبحُ فيه: «تدبَّر أمرك، يا رفيق. لم يعد بوسعنا أن نلتقي. منذ الآن لا نعرفُ بعضنا». كانت هذه آخر رسالة تلقيتها من مسؤولي

الحزبي قاطعاً بسرعة البرق حَبْلَ الوَصْل مع التنظيم. رسالة تتناقض مع ما نؤمن به من مبادئ، نستقتل ونُقتل من أجل تحقيقها: «أيَّة هُوَّة أُسْقِطْنا فيها يا صاحبي»، قلتُ لمحيسن طمعاً في أننا جميعاً في مركبٍ يغرق وقد حُشِرْنا فيه.

«ما هاجسُك، يا سليلَ المُنجِّمين الكِلْد؟»، سألني محيسن. أضافَ: «إن كان لديك هاجسُ انقطاع الوصْل مع التنظيم، فأنا، منذ أن نَفَّذَ ذلك الوحش الأمْني وعيده صارخاً بوجهي: «سأكْسِر عينك»، لم تعُد تعنيني أية هواجس. كل شيء أهجسهُ حقيقة، كنتُ أسمع وأقرأُ بحيادية مُفرطة عن الهاجس كمفهوم نفسي، هُلامي، لا يُمْسَك، يُلازم الإنسان. لكن، الآن، أصبحت كل هواجسي حقيقية».

«هاجسي أنا، يا صاحبي، أنني بدأتُ أتصوَّر أننا نعيش أحلاماً مُغلَّفة بالوهم. لماذا نُلْزَم بالإيمان بأفكار كما لو كانت مُسلَّمات والاستماتة في الدفاع عنها، لا بَل أطَّرْناها بالعفَّة والقداسة؟». أطَّرتُ سؤالَي، وأنا أرميه على محيسن، بهاجسٍ من الخيبة المُرَّة.

«لا توازن بين الكفتين»، أجابني محيسن فاركاً أصابعَ يديه فرْكاً كأنه يمْرُد بها العَار الذي استوطنَ روحه: «نحن نبيعُ بطولات وأوهاماً لِمن لا يشتريها. نبيعها ونشتريها نحن، ونُدوِّرها كما النفايات. رأسي، الآن، أجْوَف. أنا رجلٌ مُجوَّفٌ وجبان. أنا هشٌّ وخاوٍ. رجلٌ من عار. أتعرف يا صاحبي، يا سليلَ فكرة الخطيئة، أن الساقط يبحثُ عن غريمٍ له كي يُسقطُه ليتساويا في الهزيمة؟ نحن نُبشِّر بأفكارٍ غاية في السذاجة إلى درجة أننا على استعداد أن نغفر للأغنياء ثرواتهم التي سرقوها مُقابل أن يتركوا لنا حرية الموت جوعاً على طريقتنا».

دخلت أليسيا، فجأةً إلى غرفة محيسن. سحبَتْني برِفْقٍ مسْكاً من يدي. كانت منفعلة برقَّةٍ، ترتجفُ خائفة: «تأخَّرْنا» قالت. جلَّسَتْني وراءها ممتَطِييْنِ أيلاً ضخِماً ذا قَرْنيْنِ خُرافيين.

قفزتُ، فجاءةً، من الأريكة. صحتُ:

«ريباز، أنا جائع». نظرتُ من حولي، ما مِنْ أحد. لم انتبه إلاَّ وريباز خارجاً من المطبخ:

«نعيماً. كانت قيلولتك ساحرة. تركتُك بهدوء ترتاح، يا ضيفي العزيز».

«كل شيء تمام؟»، سألني ريباز، ناظراً إلى الطاولة. «أعددْتُ كل المطلوب. أنا سأشربُ الفودكا، وأعتقد أنك تفضل العرق»، أشار إلى صحن الچاچيك المعدَّل بالثوم ورشة نعنع: «صحن الچاچيك لكَ وحدَك. أنا سأشرب الفودكا بالليمون .هذا ثلج، وهذا ماء. وزِّن كأسك على راحتك».

- يبدو أني غرقتُ في كابوس أهْوَج، يا ريباز. سأرشُّ وجهي بماءٍ بارد.

عُدْتُ ماسكاً بيدي رأسي وهو يمورُ فزعاً من هيجان الحُلمَ السريع. بِرُبعِ ساعةٍ من كابوس الزمن العابس سبحتُ في حوضٍ مليءٍ بذكرياتٍ هوجاء.

- ألدَيْك كأس أخرى، يا ريباز، أُضع فيها الماء؟ أفضِّل أن لا أمزج العرق بالماء، سأخلطهما، على التوالي، في معدتي.

ضحك ريباز ضحكته المعهودة:

«هذا مؤشر آخر، جديد، من مؤشرات التعقيم السويدي»، قال. قفز عائداً بكأسٍ فارغة.

تبادلنا نخباً سريعاً.

فاجأني ريباز بسؤال:

«أشاهدْتَ، يا هرميتس، الفيلم الكُردي «فودكا بالليمون، للمخرج الكردي «هِنَر سليم؟»، سألني ريباز.

«هل شاهدتهُ، أنت، يا ريباز؟، سألته مُستغرباً سؤاله المفاجئ.

«نعم، قبل سنوات. عُرِض في سينما «håga bio»، أجابني ريباز.

- ولهذا أراك تخلط الفودكا بالليمون، أليس كذلك، يا ريباز؟

- ليس هذا هو السبب. كنتُ أشربُ الفودكا بالليمون من زمان، لكن أحداث الفيلم تشبه، من بعيد، قصة تهريبي إلى السويد، ثم أن المخرج كردي وهذا مهم لنا كأكراد أن يكون لنا سينما كُردية. لم أكُن أتصور أن هنالك سينما كُردية.، يا كاك هرميتس إلاَّ الآن، لكن خارج كردستان فقط».

- بصحتك، كاك ريباز.

رفعنا كأسينا. دلقتُ كأس العرق في جوفي تبعته بجُرعة ماءٍ.

«قُم هزَّ جسمك كي يختلط العرق مع الماء في بطنك، يا صديقي». ضحكتُ من نصيحة ريباز التي تبعها بضحكة قوية اهتزت لها زجاجات الكحول على الطاولة.

ضيَّفتُ ريباز لفافة تبغٍ سويدي من ذاك الذي أفضِّلهُ لقلَّة نسبة النيكوتين فيه.

- دخِّنها أنت، يا هرميتس. أنا لديَّ دُخاني الأصلي الذي يُعبِّي رأسي ويجرحُ مِزاجي جرْحاً حارقاً.

- لم تقُل لي، يا ريباز، لِمَ سترحل عن يوتبوري؟

«كفاني تعقيماً هُنا. سأبحثُ عن حُرِّيتي في مكانٍ آخر».

«لكنك ستنتقل إلى أقصى الشمال، أي أقصى الإنجماد والبَرْد».

«لا بأس. أنا ابنُ الجبل ولا يستطيب للكردي مثلي إلاَّ العيش في كنف جبل. جرَّبتُ حياتي هنا. عشتُ في منطقة أغلبها سويديون، ولم أتحمَّل. هنا يجب أن تُعقِّم كل خطوة من خطواتك. أن تتحفَّظ وتكون مهذَّباً ومنضبطاً في كلامك، ومشيتك، ونظراتك وضحكتك، وبكائك، وأَكْلكَ، وأنْفاسك، وحتى حين تعطُس يجب وضع ساعدك على فمك، إن لم يكن لديك منديل. أن تُعقِّم مشاعرك وعاطفتك وتدوزن ساعتك البايلوجية عليهما. لا يُسمح لك أن تسمع الأغاني أو ترفع صوت التلفاز بعد العاشرة ليلاً. أن لا تُزعِج الجيران بضراطك. أن لا تطبخ أكلة مُدوَّخة بتوابل شرقية، تُزعج روائحها سُكان العِمارة، لأنهم سيشكونني إلى البوليس بتهمة تلويث البيئة. كل شيء ينام بعد العاشرة». سحبَ ريباز نفساً عميقاً من سيجارته. أضافَ مسترسلاً:

«تعرفتُ، مرةً، على فتاة سويدية. عزمتها إلى بيتي، حينها كنت أسكن في عمارة أغلب قاطنيها سويديون. بعد الكأس الرابعة أسْمعتُها أغنية مشحونة بالدبكات الكردية، أمْسَكتُها أُراقصُها، وأُعلِّمها الدبكة. بعد نصف ساعة كانت الشرطة على باب الشقة. اشتكى الجيران لأني تجاوزت الوقت المطلوب في أخذ حريتي. أُنذِرتُ، إن لم ألتزم بالقوانين، فعلي أنْ أُخلي الشقة، لذا قرَّرتُ العيش في منطقة أغلبها لا جئون، فاخترتُ منطقة «hjälbo»، التي أعيش فيها الآن».

- لكن هذا شيء جيد في أن لا نفرض حريتنا ومزاجنا على الآخرين، يا ريباز.

ضحك ريباز ضحكة فيها استهزاءٌ هستيري. رفع كأسه عالياً:

«بصحتك يا أبا الحرية»، أجابني لاهثاً بضحكته. نظر إلى ساعة يده. سألني:

«كم الساعة الآن، يا هرميتس؟».

نظرتُ إلى ساعتي. كانت تُشير إلى الحادية عشرة ليلاً.

«أتتوقَّع أن يَشكينا الجيران إلى البوليس، الآن؟» سألني ريباز.

«يُفترض، فالقانون قانون»، أجبته رداً على سؤاله.

«بصحتك، يا عاشق القانون»، ردَّ ريباز، رداً بارداً على افتراضي الجاد. أضاف:

- مرَّةً، أزعجني جاري الصرْبي بصوت تلفازه، وزعيق أطفاله وصياحه وسُبابه، الذي وصل السماء السابعة، مع زوجته. طرقتُ الباب عليه أرتجيه الهدوء. صرخ بوجهي قائلاً:

«أنا حُر».

قلتُ له: «القوانين لا تسمح بإزعاج الجيران بعد العاشرة ليلاً».

«أتفكر نفسك أنكَ في السويد؟»، أجابني جاري الصِّرْبي صارخاً بوجهي، وأغلق بابه. اتصلتُ بالبوليس. سألتني الشُرطيَّة، بعد أن شرحتُ لها موضوع الشكوى:

«ما هو عنوانك؟». بمجرد أن قلت للشرطية: «أنا من سَكَنة «يلْبو»، ضحكَتْ. أجابتْني، مُحاولةً كتْم ضحكتها بردٍّ مُسْتلطف منها:

«سوف نُحاول المجيء، لا تقْلق»، ثم أغلقت الهاتف ولم يأتِ أحد من البوليس.

«لَمْ تقُل لي، يا ريباز: كيف سيستطيبُ لك العيش في مدينة تصلُ درجة حرارة شتائها إلى ما تحت الـ 40 مئوية؟ ستتوه بين جبال (Skanderna)، التائهة، أصْلاً، بين السويد والنرويج»، سألتُهُ وهو منْشغِلٌ بِخلطِ حفنَةَ تبغٍ، أخْرجها من كيس صوف، صغير، وضعها في الشق الاسطواني لآلة التبغ. فتح علبةَ «سنوس» (تبغٌ رطب يُعبأ في أكياس صغيرة يُوضع تحت الشفة). أخرجَ، من العلبة بِزْرة سوداء مدوَّرة بحجم حبة البُطْم. فركها، نثْراً، بين راحتيه ووضعها على حفنة التبغ التي في الشق الاسطواني. أخْرج، من علبة كرتونية مستطيلة، لفافة فارغة من تبغها تنتهي بفلتر. حشر رأس اللفافة في رأس قمع الماكنة. أنزل مكبس الماكنة ضغْطاً على التبغ المحشور في الشق الاسطواني، ثم سحب المكْبس، كمن يسحب أقسام مسدسٍ، فتجمع التبغ داخلاً في قلب ورقة اللفافة الفارغة.

- ما هذا الذي في علبة السنوس الذي خلَطتَهُ مع التبغ، يا ريباز؟

نظر إليَّ ريباز نظرةً غلَّفها بسِرٍّ لا يرغب بفضِّ مغاليقه:

«هذا خُلاصة شفق كردستان البارد، يا هرميتس».

أشعل ريباز اللِفاة ساحباً نفساً تطايرت لهُ شغافات دماغه انتعاشاً مسترخياً:

«الله يا لوعةَ كُردستان»، نطق ريباز الجُملةَ يُعيدها إلى جوف روحه دعْماً برشفةٍ من الفودكا المستطعمة ليموناً أزلياً. دوَّرَ رأس

لسانه في الفراغ الداخلي لعضلتي خدَّيه، ناظراً إليَّ نظرة كمن يستغفلُ سذاجتي بسؤالٍ لا يُحيره البتَّة:

- سأنْقُلَ خبرة أبي في زراعة التبغ تحت سفوح جبل قنديل إلى سفوح جبال الفايكينغ، يا هرميتس، يا صديقي الودود. أطمح أن أمدَّ حقول التبغ السويدية حتى حقول تبغ أبي. سأزاوجُ بين فصيلة تبغٍ من أصْلِ الشرق الكردي وآخَرَ من فصيلة تبغ الاسكندناف، وعندما تُفقِّسُ الفصيلتان تبغاً لم يُنتِجهُ أيُّ مخلوقٍ غَيْري عندها سأرفعُ علماً جديداً شعاره ورقة من تبغي الكُرد ـ اسكندنافي. سأحوِّل التبغ الأعمى إلى تبغٍ مُبْصِر. سأصنعُ تبغاً جديداً لم يعرفهُ حتى رفاقك الكوبيون، يا هرميتس. سأصنعُ تبغاً إنْ شُمَّ سيعبر أثرهُ المشموم أنحاء أوروبا الأزلية.

اسْتَكانَ ريباز قليلاً. سحبَ أنفاساً متواصلة، أنْفاسَ دُخانٍ ولوَلَتْ مُتطايرة منها روائِحَ غريبة دوَّخت الكحول، والليمون، والجاجيك. وبعض قطع لحمٍ مشوية.

أكمل ريباز هذيانه، وأنا أنْصِتُ إليه بانتشاءٍ عضٍّ على لذةٍ بدأت تُدغْدِغُ مِزاجي المتعب جراء السمراء، فاقدة مفاتيحها، وطفلتها «بيروت».

مسَّد ريباز، حكاًّ، شاربيه الكثَّيْنِ المصبوغَينِ صفاراً محروقاً من لوعة التدخين. جدَّدَ قدحَهُ مَلْأً بالفودكا، مُسقِطاً فيه شرائِحَ ليمون رقيقة، طريَّة، كَشَفةِ عذراء في الخامسة عشرة عُمراً. أكْملَ مُسْتطرِداً كَمَن يستبسلُ في الدفاعِ عن شيءٍ مُقدَّسٍ:

«أنت لا تَعْرف، أو قد تعرف، يا صديقي الكلداني، أن التَّبْغَ شرفُ الكُرْد. نُخاعهم من زيتِ التَبغ. مَنيُّ رجالهم يقْطُرُ تبغاً. أصْفانهم أكياسُ تبغٍ. تاريخُ الكُرد سيكونُ تافهاً إن لم يُدوَّن على أوراق التبغ».

«كُرْديٌّ، وكيسُ تبْغٍ. حفنةُ زبيبٍ، وبندقية، وليأتِ كلُّ العالم، يا ريباز، أليس كذلك؟». نثرتُ بعض إطْراءٍ، شِعْراً، أُجمِّلُ تغزُّلَ ريباز بربِّ التبغ وأنبيائه.

«والله، إنك شاعر، يا بصْراوي»، ردَّ ريباز على حماستي في سطر الشعر الذي نسجتُه بمغزلِ قلب ريباز.

- هذه القصيدة ليست لي، يا ريباز، هي لشاعرٍ نسيتُ اسمه.

قلَّبَ ريباز بعض ذكرياته. خطا نحو حقيبة مفتوحة. تناول ألبومَ صورٍ كان يُقلِّبه قبل أن أذوبَ في كابوسَ قيلولتي. قرَّب منِّي أريكته الجلد. جلسَ. فتح الألْبوم. أشارَ، مُنقِّلاً بصره بيني وبين مَخْزَن صوره. الألْبوم، القديمة من قَبَسِ لونين، لا ثالِثَ لهُما إلاَّ حكاية كل صورة منها. لونان خفَتَ صداهما ذوباناً، تَوارياً لا مرْئياً تشرَّبتهما فصائِل ألوان القوس قزح. صورٌ بأرواحٍ تبخَّرت طائرة في الفراغ الكوني، تبخَّر تاريخها إلاَّ من صدى ذِكْرى. لم يعُد أغلبهم على قيد الحياة.

توقف ريباز عند صورة بالألوان، لفتاةٍ ترتدي فستاناً فضفاضاً، يتماوجُ حريرهُ بنقوشِ الخفَّةِ المولولةِ بشبقٍ آيلٍ للطيران. قدَّرتُ عُمرها بحدود السادسة عشرة ربيعاً. جميلة تشي سحنتُها كأن لم يشرق على وجهها غيرُ وميضِ ضياءِ قريةٍ من قُرى الكونِ الجبلي.

- هذه «گلاويش»، خطيبتي، وزوجة المستقبل، يا كاك هرميتس. ستطير قريباً وتحطُّ على كتفي استجابةً لنداء روحي التي هامت بها منذُ كانت في العاشرة عُمْراً.

«كمْ عُمرُها، الآن، يا ريباز؟»، سألْتُه مُبدياً عَجَبي لعشقه طفلةً لم تصل سنَّ الرشد، ربما.

«بصحة گلاويش، حبيبتي، يا هرميتس»، قرع كأسه بكأسي قَرْعاً مُسْتأنَساً: «جِنْ جِنْ».

ضحك ريباز بانتشاءٍ مُفرطٍ. سرَّح بعض أصابعه فَرْكاً بشاربيه الكثَّيْنِ اللذين يُغطيان شفته العليا نزولاً أسفلَ زاويتي فمه العريض. زمَّ شفتيه مُدوِّراً، لَعْقاً، تأوُّهاً، رأس لسانه عليهما، بقايا قطرات من التطاحُن الساحر بين الفودكا . من سُلالةِ السُلافيين تقْطيراً مُتقناً، المنكَّهة بالليمون:

«عمْرها، الآن، خمسة عشر عاماً. گلاويش حكايتي. نصف شَارِبَيَّ هذين، ونصفُ خيالي».

- لكن، يا ريباز، سوف لن يُسمح لخطيبتك الالتحاق بكَ كزوجةً. هي لم تُكمل السن المسموح لها بالزواج، حسب القانون السويدي.

«وماذا عن السويديات القاصرات اللاتي يُجْهِضنَ حَملهُنَّ؟ لِمَ لا يُعتبَر حملهن مخالفاً للقانون؟ أم أن القانون السويدي يتناطحُ، فقط، مع عقود النِّكاح شَرْعاً على سُنَّة الله ورسولهُ الأمين؟»، أجابني ريباز.

- الإجْهاضُ شأن، والزواج، شرْعاً، بفتاة قبل بلوغها سُن الرُّشْد، شأنُ آخر، يا ريباز.

«كل أُمَّة تُفسِّرُ رُشْد فتياتها حَسْبَ خيالها. خيالُ الكُرد الفحول فيما يخصُّ جَدارة رُشد نسائهم تتولاهُ الإشارات التي تنطقُ بها عيونهن، أولاً، كشرطٍ أساس لاستجلاء الرِّقة. عيونُ الصَبايا تقدح شرراً منذُ ارتجاج نُطفة البلوغ، فتُخشخِشُ الرغبة انْتعاظاً بين أفخاذهن . تأتيكَ شرارةُ رغْبةُ المراهِقة جَفِلةً، خَجِلةً، أول الأمر، فما عليكَ إلاَّ أن تُقشِّر جَلالَ الخجلِ بلوعةِ الرغبةِ المستطابةِ لديها. فإن

ذابَ خجلُها صلاةً تمتمةً وقبولاً في الدخولِ إلى كهف الفحل، حصلَ المُرادُ. إنهن ـ الصَبايا، يعشقن اللعِب. يبدأنَ به جذْباً من علَّة البراءة الطفولية. لكن شكل وأدوات، وطُرق الرغبة تلك، اللعب على المكشوف، لا تبقى على حالها. كل لعبة جديدة تنضجُ على نار أختها، فتبحثُ عن طُرُق وأساليب سريَّة أكثر شقاءً أرْضاءً للوْعةِ البلوغ بين نصفينِ آدمييْنِ عاشقين. وهذا سرُ الرغبة عند البشر. البشرُ لا يطيقون الملَل».

استفاض ريباز تفصيلاً عن مبدأ الزواج:

«خُذْها صغيرة، يا صاحبي. النساءُ يَشِخْنَ قبلَ الرجال، لذا يجب أن لا يقِلَّ عُمر الزوجة عن خمس عشرة عاماً من عمر زوجها ».

أصرَّ ريباز على تبريره الرغبة في الزواج من أنْثى قاصر بحماسةٍ استخدمَ فيها كل ما يُعينه على إقناعي بفكرته: بيديه تحريكاً خطْفاً؛ بأنفاسه انفعالاً في لحظة هياج الأُنْثى، دون الذكور التحاماً بين أجسادهُنَّ:

«الأناث، غير الذكور، يا صاحبي هرميتس. الأناث لديهُن الرغبة، والمتْعة في مُراقبة واكتشاف كل طفرة من طفرات أجسادهُنَ. كنتُ أُراقبهُنَّ عاريات، عند سفح الجبل، قُرب النبع، منجذباتٍ، لبعضهِن، برقَّة مُمغْنَطة. تتجادلُ عيونهن نَهَماً في تقليب أجساد بعضهن. كيف يحضُنَّ بعضهُن بجنون، ويتشمَّمْنَ، مُغْمِضات العيون، نهودَ بعضهنَّ حكاًّ وتشمُّماً شَبِقاً بأنوفهنَّ، يكظمْنَ الشهيق لثوانٍ ويصرُخْنَ: «أِمممممْ»، ثم يُطْلقنهُ زفيراً: «آآآآآآآآخْ».

سرحَ قليلاً، ثم أضاف:

«منهُنَّ تعلَّمتُ هذه الطريقة في شمِّ «السعوط». وآهٍ، لو ترى، يا

هرميتس، كيف كُنَّ يفركْن الزَّغبَ الفجَّ لعانات بعضهُن برغوةِ الطينِ المعجونِ بقهقهة الشَّبق. كيف يُدلِّكْنَ، مُسْتَسلِماتٍ، أردافِ بعضهُنَّ بورقِ الجوز الأخضر وقوفاً أو انبطاحاً على نجيلٍ ينزفُ ندىً. كيف يتبارَيْنَ، مُداعبةً بأظفارهُنَّ: مَنْ لديْها، منهُنَّ، أطولُ وأنعظُ بَظراً ينتفض مُولْوِلاً بلسانِ الآيات الناطقة بتمامِ شهوتِها. أما حفلة النَّتْفِ توعُّداً لتقشير الشُّعيرات التي لا تلحقُ أن تطول، فيُقِمْنها كل ثلاثةُ أسابيع. يجتمِعْنَ فجراً. لا يأتين بِكُرات العقيد جاهزاً إنما يُقِمن له وليمة بتحضيره للتو: يوقدنَ حطباً من أعوادِ البلوط الجافة. يسكُبْنَ عسلاً في وعاءٍ نحاسي مخلوطاً بقليلٍ من الماء، ثُمَّ يُضِفن خُلاصة الآتْرَنجِ والليمون ويُحَرِّكْنَ الخليط بغُصنٍ أخضرَ من أغصان ورد الجوري. يتركنُ الوعاء النحاس على نار الحطب لدقائق حتى ينضُجَ، ثُم يُثبِّتْنَ الوعاءِ بين صخرتين على ماء النبع البارد. ينتعشْنَ مضطربات برائحة لوعة احتراق الأغصان.

كنتُ أشاركهنُ الذهول الذي يُشيعهُ رائحة دُخان بعُطر الفانيلا يتطايرُ بعد أن تأخذ أعواد البلوط استحقاقها من مُجادلة النار ذائبةً رماداً، ريثما يبرُدُ المزيج اللزج للعقيد، يُكعْبِلنه كرات بحجم الجوز، ثم تبدأ حفلة العِراك لقشط الشعيرات الزعفرانية التي تبزغُ على أفخاذهن وعاناتهن، صعوداً ونزولاً لصْقاً بالعقيد الجَسُور اللجوج على الأفخاذ والسيقان حتى تتفجَّر لمعاناً مُطَيَّباً، يتناوبْنَ القشْط بينهن تأوُّهاً فيستصرخُ له، آهاً، زغبُ جلدهُن حتى يحمَرَّ ألماً».

- ما هذا الفيلم البورنو، يا ريباز؟! يبدو مجلاتك الخلاعية وسَّعت مدارك خيالك شطْحاً، يا عزيزي.

نظر ريباز إليَّ، نظرةَ استخفافٍ لا أُباليَّة:

«احسبها كما تشاء، يا أيها الشاعر الذي أعْمتهُ الكُتب. لم أُكمِل فيلم البورنو، كما تراه، لكن مشكلتك هي مُشكلتكَ، إن صدَّقت أم لا»، رمى ريباز كلامه مُكْملاً ما استطاب له من ما يدَّعي عن ما رآه بين صخور وينابيع كردستان:

«يذْهبَن، ويترُكْنَ كُرات العقيد على الصخور تلمعُ فيستدعيني اللمعانُ القوَّاد فضولاً. أنزلُ هرولةً، بعد أن يخلو المكانَ إلاَّ من شهوة أنفاسهن عالقةً في ورق الشجيرات التي تُحوِّطُ عويل الشلال النازف من عينه ماءً زلالاً، فيما ينزُّ صدغي وأبْطي عرقاً مُهيَّجاً. أمسك بكُراتهن العسل أقلِّبها، أتشمَّمها فتوسْوِسُ شُعيراتهن قلقاً مُستفِزاً التصاقاً بأصابعي تارةً، وأخرى بين كفَّي. ينتفضُ غرمولي متورِّماً، فأنتحي فراغاً بين صخرتين، ابْتغاءَ أن لا يراني أحدٌ، مستجيباً للْوحْشي في شهوة العروق المهتاجة في جُرن البويضتين، ولنداء عصف المغنيِّ المحشور مولْوِلاً:

«حُكَّ فانوسِك. اقْرُص كمْرَته بخيال أصابعك، أيها المعتوه، حرِّرْني من مَعْدَني الحيوانيِّ، دعني ألحق بهُنَّ».

ألْحَحْتُ على ريباز، إلْحاحاً، محاولاً إقناعه بالعدول عن فكرة الزواج من فتاة قاصر؛ أردتُ أن أستنتج منه إنْ كان قد طرأ تحوُّل ما، ولو بسيط، على قناعاته أو تأثره بنمط الحياة الجديدة في السويد.

كلماتٌ أجوبةٌ نقَّلها من لسانه إلى عينيه نطقاً عمَّا يجولُ في عقله. نظرات أشْعلها إصراراً على تحقيق ما يُنْبِئُهُ به فؤاده:

- هل تُحب البيضَ مسلوقاً، أم مقلياً بعيونٍ لم تُفْقَأ، يا كاك هرميتس؟

باغتني ريباز بسؤال استعْراضي شممتُ، من معانيه، رائحة تفوحُ من لسانِ سُكْرِهِ المتمايلِ على حبْلِ الحَيْرة التي يقيسها حسب جدال مزاجه.

- أُفضِّله مقْلياً، يا ريباز. لكن لا بأس إن كان مسلوقاً أيضاً. يبدو أنك، منذ الآن، تُفكِّر بما ستُضَيِّفْنيه من إفطار غداً صباحا، أليس كذلك؟

«كنتُ أظنُّك فطِناً وسريع البديهية، أيها الشاعر المنجِّم، يا سليلَ المنجِّمين من أسْباط ترْجُمان الأفلاك، ومُصنِّفي الأبراج».

غاب ريباز للحظات. اقتنصتُ غيابه السريع بفتحِ دَفَّة أحدى النوافذ الموصدة، العارية الستائر. اندفعتْ، إلى فضاء الغرفة، ريح خفيفة رطَّبت، قليلاً، أنفاساً مُنتفخة بلوعة التبغ والكحول، والجِدال الذي يرتفع ويعود فيهبط، عن أعْزَبيْنِ يُبْدي، ويُحلِّلُ ، كل واحد منهما، المسْلك الأكثر أماناً وانسجاماً وقناعةً، لمستقبله القادم.

عادَ ريباز من المطبخ بسبع شمْعات صغيرات كرويات الشكل صفَّها على الطاولة صفاً أشْبه بمثلَّثٍ غير مُتطابقِ الأضلاع.

أطفأ ريباز المصباح الوحيد المتدلي من سقف الغرفةِ. أشْعل فتيل الشمعات قدْحاً من زِنادِهِ. تنفَّس الشمع هواءَ الغُرفة الثقيل الذي أصبح أكثر سلاسة بتسرب المزيد من هواء ذلك المساء بجوه القاتم، الرطب، الذي غدا مساء الوداع الأخير من لقائي مع ريباز، المقاتل الكردي الطيب. تراقصَ نورُ الشمعات الأنيس حرْقةً تثاءبت لها مربعات الثلج السابحة في الكؤوس. تطاحنَت فكرة النار الأزلية تطاحناً خفياً مع حركة وثبات الأشياء التي صُفَّت على الطاولة حسْبَ

الأنْفاس والرؤوس، والعيون، وتشظي أيْدينا التي تتحرك بلا بوصلة مُعيَّنة اعتماداً على تجلِّي جدالنا:

تلاسُنه وحماقته،

يقينه وحكمته،

ألْغَازه وحقائقه،

منطقِه وجنون تحيُّره،

ارتخاؤه وشدُّ عضله.

سِفاد جِدالٍ ترجمته سِفادُ حرفٍ على مقاسِ أخيه الحرف تقْليباً على جمرِ لوعة التَّيْه تمكيناً لتقريب المعاني من أمِّها المعاني.

أثنيتُ على مُبادرة ريباز بجلبه الشمعات، للتخفيف من بعض جوّ نِقاشنا الهرطوقي.

لا خيوط، كما بدا من نِقاش طويل بيننا، تُرتجى من لضمِّها بإبرة الاتفاق، أو مُساومةَ على مبدأ عدم خرقِ سن البلوغ المنطقي للزواج.

أحْسستُ أنني، كلما أمضي في محاولة تغيير رأيه بالعدول عن زيجته هذه، كلما أغرزُ إبَرَ الاختلاف أعمق في وشْمِ قناعته.

ارتعبتُ. بدأتْ قناعة ريباز تتسرَّب إليَّ: حقاً، ما الضير إنْ تزوج المرء من فتاة لم تبلغ سُن الرُّشد حسب معايير مِزاجية، أو شرْعية؟

تقافزَت أمام عينيَّ شُبْهَ دوائِر من أفلاك الشمعات السبع التي تناطحُ نورَها بين الظلالِ المتساقطة على معالم الأشياء، المتناثرة على الطاولة. شمعاتٌ دوْزَنها ريباز صَفاً بطريقةٍ شبه مُنسَّقة استجلَبَت انتباهي، فتلاعبَت الأرقام وأسرارها الْتياثاً في رأسي بتصنيفها عداً

مُفْرداً وزوْجياًّ. ولأني من الأشخاص الذين يوافق يوم وشهر وسنة ميلادِهِ توافقاً مُفْرداً، في علوم الأرقام، لا أعرِفُ إن كان في ذلك سرٌ من أسرار الباطن، وَلِي منها حظوة، أم سوءَ بَخْتٍ.

«النُّورُ شكٌ يُقْلِقُ يقين الظلام». نطقتُ الجُملة عابرةً ببطءٍ ثقيلٍ، شبه مسموعة، أختبِرُ بها ما تبقى من انتباهة ريباز إليَّ، وهو يفصفص حفنةَ من بِزْرِ اليقطينِ وضعها في يده.

رفع ريباز رأسهُ. نظرَ إلى حيث حقائبه المُبعثرة في أرجاء الغرفة. رفعَ سبابته يحسبُ أعدادها عدا الصناديق الكرتونية:

«الحقائبُ يقينٌ ملْموسٌ يُقْلِقُ شكَّ الارتحالِ»، قال ريباز.

نظر ريباز إليَّ مُبْتسِماً ابتسامةً كَمَنْ يعبر بها جُرْفَ الندمِ دون العَودة عن قراره، حيث لا تبرير ينفعه، في الإصرار إلى الهروب صوب الجبل المنْفي من أرض كردستان إلى أرض الاسكندناف، حسب اعتقاده.

«الجِبال وتتوالد من صخورٍ صغيرة ثم تكبر شأنها شأن البشر، وكل ما يدبُّ على الأرض. الصخور حليب الأرض مُتخثِّراً فمُتصلِّباً من امتصاصِ قسوة الوحدة في العراء، ومن قدحِ زوابع الغيوم. فكلما هبَّت صاعقة امتصَّتْها الصخور الجليلة، فتتملَّحُ بطاقتها الجهنمية، فتتصالب أكثر فأكثر، حتى تكْبُر لتغدو جبلاً. إنْ لم أسْتطع سحل جبلنا الذي هُرِّب إلى شمال الاسكندناف، فعلى الأقل سأقومُ بنقل ما تناثر من صخوره إلى أرض كردستان ليستعيد روحَه الأزلية. الأصيل لا ينسى أصْله».

هكذا يُهرِّجُ ريباز، بيقينٍ غير مُفتعل، ويُبسِّط فكرته ثرثرةً من عقلٍ دوَّخته فكرة الخلود الأبدي لجبال كردستان.

- ليس لدي فكرة، أو معلومة أكيدة، عن كيفية صناعة الشموع، يا هرميتس. أتعرف كيفُ تُصنَّع؟

رمى ريباز سؤاله وهو يُمرِّر كفيه، ثم يرفعهما فاركاً باطنيهما من فوق لهب ذُبالاتٍ يَنُشُّ لهيبها بتمايُلٍ أخْرَسَ. ذُبالاتٌ تنوسُ من روح شمعاتٍ صُبَّت في قوالب فضية مدورة تدويراً رقيقاً:

- تُصنع الشموع من شحم الظلام، يا صديقي الطيب ريباز.

أبعدَ ريباز كفيه عن تراقص الذبالات. فركهما. نظر إليَّ باستخفافٍ تلفه ابتسامة سخريةٍ:

- بدأتَ تتفْلسف، كعادتك، يا هرميتس.

ضحكتُ من تعبيرات استخفاف ارتسمت سريعةً على وجنتَيْ ريباز. شعرتُ أنني بحاجة إلى اختراع طريقة سريعة مؤطرة بمدائح تراجيدية عن طريقة أمثل في صناعة الشموع:

«لا تتضايق، يا صديقي. هنالك طرق عديدة في صناعة الشموع».

«اشرحْها. قُلْها. ضعها بجانب هذه الشمعات»، أجابني ريباز بانفعالٍ جَديٍّ

- من الدموع، يا ريباز.

«من الدموع؟»، رد ريباز رداً أكثر استخْفافاً، على جوابي الهادئ، الغريب، والسريع.

وقف ريباز مُسْتَفَزاً. مشى خطوات ثقيلة باتجاه الشُباك. مسك بدفتيه المواربتين قليلاً، تسمحُ بتسرُّبِ هواءٍ رطبٍ لهُ صفير بردٍ مُنعش. سحبَ شهيقاً عميقاً. أغلق فمه لثوانٍ. انتزعَ شهيقه، نفَثَهُ زفيراً متعاقِباً، من رئتيه الفاحمَتيْنِ من رُبِّ القُطران. صاحَ: «آآآآآآه.

أُفيِّشْ». عاد من حيث وقف. اقترب من الطاولة البيضوية، وقف بإزائها ينظرُ بتأمُّلٍ أخرسَ، ضجرٍ إلى نور الشمعات الأنيس المُضاء سكْباً ذائباً من روحهِ الزيتِ. رفع رأسه باتجاهي. بَرْبَرَ بانفعالٍ بطيء:

«أراكَ تستخففِ بسؤالي، يا هرميتس. كأن «الأوزو» أسقطك في كمينه، رغم أنك لم تُكثر منه. عن أية دموع تتحدث؟».

«عن دموعي، ودموعك، ودموع الناس، يا ريباز. الشموع تُصبُّ من شحمِ دموعنا، ألا تراها؟ ها هي أمامك تبكي».

لم يستَطِب مزاجُ ريباز ما تدحْرَجَ من سَلْطَنَةَ لِساني فذْلَكةً عن ربِّ دمع البشر يُصبُّ تجْميداً ليتحولَّ إلى شموعٍ تَدْمعُ بمجرد لمسِ النار فتيلها. قلبَ مزاجه الساخن رغبةً حنيناً إلى «گلاويش»، خطيبته:

«الحِكمةُ الذكورية، يا هرميتس، التي حملها رجالنا الخُلَصاء أباً عن جدْ، جيلاً عن جِيْل، في توجيه شبابنا بالزواج المبكر حفظاً على أعْراض نسائنا. على الفحول الكُرد تحمُّل مسؤولية إطفاء حريق الرغبة الذي يستعر في أجواف نسائهم منذ لحظة بلوغهن، وإلا ستسود الفوضى وتتمرَّغ أنوفنا بالعار. لحِكْمةُ عقلائنا دور مهم في استكمال الرُّشْد الإلهي للناقِصاتِ عُمْراً. نحن الفحول نكملُ إنْضاج الضلْع الناقص من معادلة بلوغهن العُمر الناقص، بلوغ الحقيقة - حقيقتهُنَّ. أما بقية شروطِ الرُّشْد فتأتي تِباعاً كتحصيلٍ حاصل. خُذ الفَرْجَ طرياًّ في أوَّلِ فوْرة حليبه، وإيَّاكَ أنْ تخْذلَهُ، يا صاحبي، وإلاَّ ستندم».

«جَرِّب وستَرى. سيرفضون طلبكَ، وحتى لو هرَّبْتَها فسيُعيدونها من حيث أتت، يا كاك ريباز»، أوضحتُ له سبب إصراري على رأيي. قاطعني رغبةً منه أن لا أُتعب نفسي في قضيةٍ تدبَّر أمرها تحسُّباً لكل مفاجآت.

هزَزتُ رأسي هزاً أسَفاً، رَفْضاً لِما ينوي ريباز الإقْدام عليه، الزواج من فتاةٍ قاصر. العِنادُ استوفى شروطهُ، كما يبدو، واستوطن عقله ومشاعره. لا مفرَّ من أن يتزوج گلاويش. رمَيْتُهُ بسؤالٍ حِرْشَةٍ، وهو منشغلٌ في تنضيدِ التبغ، الأمين على دغدغةِ تأوهات مزاج العقل والدم، تنضيداً عشْوائياً في لفافة جديدة على ورقِ سيجارة فارغة:

«ما رأيك، يا ريباز، الزواج من فتاة سويدية؟ السويدات شقراوات، ولا أجمل منهُنَّ. أفكَّرت في خَلْقِ نَسْلٍ مُحسَّن؟ إنْ عَجَنْتَ سحنتُك السمراء، بسحنةِ سويدية شقراء سيولدُ لك أطفالٌ بلونِ الشوكولاة. طحْنُ اللون الأشْقر بلونٍ من سلالاتِ الشرق الأسمر أمْرٌ جليل من جلالات الرب، وأنت رجلٌ مؤمن، كما يبدو لي، من خلال الأدعية التي تُكرِّرها مِراراً حِفْظاً عن ظهرِ ولِسانِ قلبكَ. ثُمَّ، أما علينا أن نرُدَّ بعضاً من جميلٍ إلى السويديين الذين فتحوا قلوبهم لنا قبل أبواب بلدهم؟ هناك محنة عجيبة في جلالِ لون بشرتهم. أما علينا إخراج هذا الجدال الخفي في الألوان إلى العَلَن؟ أن نُشعر السويديين أن لوجودنا ضرورات كثيرة منها تحسيُن نسلهم. تحسيُن النَّسل صناعة أيضاً، يا ريباز. تطوير، وإنْجاب أجيال جديدة تُحسِّنُ الوجود المُقنَّنِ بلونٍ واحد على أرض الاسكندناف».

رفعَ ريباز رأسه باتجاهي، ببطءٍ، كَمَن كان يتهيَّأ لردٍّ، أخذ يُتبِّلهُ بهدوءٍ، بتوابِل مِزاجه، وهو يستمع وينظر إليَّ بعينين شبه مغمضتين، في الوقت الذي كان يمزجُ بعضاً من تبْغٍ سويدي بآخر من تلك البزور بحجم بزر البرتقال، أو بحجم بعرة كبش، من ما أسماهُ «سعوطٌ كردستاني» يُعبِّئه في ورق اللفافة الأسطوانية بواسطة ماكنة التَّبغ الصغيرة.

عيُن ريباز، اليُمنى، شبه مُغمضة، والأخرى مفتوحة على وسْعِها،

ينظر منها إليَّ بتبسُّمٍ مُصطنَع. تجرَّع، من كأسه الزجاج، قطرات فودكا. مرَّرَ طرفَ سبابته اليُمنى مسْحاً مُدوَّراً على شفة الكأس، ثُمَّ مسْحاً شَماً من تحت فتحة منخاره. مسَّد شاربيه نزولاً إلى شفته السُفلى المغطاة بشاربه المحنَّى من غضب حُرقة التبغ. مدَّ باتجاهي لفافة تبغٍ من تلك اللفافات التي دوزنها، مُنْتبِهاً إلى سؤالي المتبوع بشرحٍ وتعليلٍ وتبريرٍ مستفيض، لفافَة تبغٍ مخلوطٍ، دوزنها دوْزِنةَ العارفِ بأسرارِ لوعةَ الانتشاء:

«امْسِكْ، يا هرميتس، يا صديقي الذكي، الذي يعرفُ كيف يتلاعب بمزاجي. خُذ هذه السيجارة، دخِّنْها. إن استجبت لي ودخَّنْتها، أُقسمُ بلُبِّ فؤاد گلاويش، أني سأُجيبُك بما يُناسِبُ مِزاجك وقناعاتك، أيها المنجِّم الكلْداني. سأُجيبكَ بمنطقِ الطيور التي تُغرِّدُ، الآن، في رأسي. دخِّنها. عذِّب لسانكَ قليلاً، لِسانكَ المدَرَّب على جِدالٍ عُجِنت لُغتهُ بعجينٍ من كُتبك التي تملأ شقتك. من أين لديك كُلُّ هذا المزاج، والوقت، كي تقرأ هذه الكُتب، يا هرميتس؟».

- لن أُدَخّن سيجارتُك، هذه، قبل أن تُريني أو تحكي لي السرَّ العجيب في خلطتَها، يا ريباز.

وقفَ ريباز على طوله. قرّبَ السيجارة من أنفي:

«شُمْ»، قالَ ريباز، وهو يتمايلُ سُكْراً. أسند يده اليُسرى بكتفِ أريكتي. «شمَّها، ستركض ورائي وتطلب المزيد. لكن لا تطمع من بعد أن تُجرِّبها. ليس لدي الكثير منها. هذه فقط لمثلِ سهرتنا العجيبة اليوم».

مسكتُ السيجارة. وضعتُها أمامي على الطاولة. عاد ريباز إلى حيث أريكته. رمى جسمه الممتلئ بعافية الطعام الشرقي الدَّسم في حُضن الأريكة الجلد السوداء.

«مع ذلك سأتزوَّج گلاويش، يا هرميتس. رغماً عن كل القوانين، والممنوعات. سأتزوجها، يعني سأتزوجها. إن أصرَّ الكُرديُّ على شيء، فلن تقف بوجهه كل قوى الدنيا. إني أقْلقُ، أقلقُ كثيراً في الليل، يا صديقي»، تَمْتَمَ ريباز مُمْسِكاً بصورة گلاويش يُقلِّبها بعينيه شهوةً مُسْتطيرة رغبةً في احتضانها وضمِّها إلى قلبه.

«لنْ يسمحوا لك. كُن حكيماً ولا تُورِّط نفسكَ. العُمْر، يا صاحبي. عُمرها مشكلة كبيرة. انتظرها بعد ثلاث سنوات حتى تُكْمِل سن الرُّشد».

«وماذا أعمل في هذه السنوات الثلاث؟ أتُريدني أن أُقلِّي لوعة خصيتي بزيت المَنِيِّ؟»، ردَّ ريباز بتشنُّجٍ حزين. أضاف:

«لا تخف، يا صديقي، لقد تدبَّرتُ الأمر».

كان ريباز واثقاً، من دون تردُّدٍ، من أمره. فتح علبة ألْسْنوس. أدخَلَ فتْحتَي أنفه في جوفِها. سحبَ نفَساً عميقاً، شَهْقاً استطابت له لوعةَ روحه. أغْلَقَ صنْبورَ زفيره، لخَمس ثوانٍ عداً، ناظراً إلى ساعة يده. زفرَ شهيقه زفرة مُتقطِّعةً انْتَفَخَ لها خدَّاه، ماطًّا شفته السُفْلى إلى الأمام. أغلق العلبة. عطَسَ. زفرَ زفرةَ شبقٍ مشفوعةً بحسرة شوقٍ إلى محبوبته. صاح: «آخ أُفَيِّش».

جفَلْتُ حين نطق ريباز كلمة: «أُفَيِّش». نظرتُ إليه مستغرباً. نظر إليَّ كمن يهجسُ دهشتي. سألني مستغرباً:

- ما بِك، يا هرميتس؟ يبدو أنك لم تفرح لمشروع زواجي.

وقف ريباز وهو يتمايلُ سُكْراً. استدار إلى حيث صورته المعلقة أمامنا . صورته بقيافة البيشْمرگه المقاتل، المفتخر بسلاحه المعلق على

كتفه. بدا في الصورة أكثر شباباً وحيوية. قرَّب وجهه كأنه يهمُّ بلصقه بزجاج الصورة. عطَسَ عَطْسَتين مُتتاليتين رطَّبَ زجاج صورته برذاذهما. أسْنَد ساعده الأيْمن على الحائط بمحاذاة صورته. حدَّق إلى الصورة بعينين يطفرُ من غَوْرَيْهما أسىً مغروْرقاً بدمٍ دَمْعه. مسحَ بِكُمٍّ قميصه زُجاجها. كلَّمَ الصورة، بصوتٍ مَشْروخ. كلَّم ريباز اللاجئ ريباز المُقاتل. كلَّمَهُ بعَضٍّ على غضبه، بعتابٍ مسْلوخٍ حَناناً، رافعاً يده اليسرى باتجاه الصورة كمَن يشدُّ ريباز المُقاتل إليه، من ياقته:

«مَنْ مِناَّ خذَلَ الآخر، يا ريباز؟» صرخَ بوجه صورته. «من منا تخلى عن الآخر؟ من منا لدغَ الآخر لدْغَة الخيانة؟ من منا تواطَأَ على سلاحه؟ من منا القاتل، ومن منا القتيل؟ من هو الشجاع، أنا أَمْ أنتَ، يا ريباز؟. أنت نكثْتَ بوعدك معي، يا ريباز. أنت وعدتني أن أعود بعد شفائي من إصابتي. أنت خذلْتني، وتخليت عني، ولدَغْتَني بإبرةِ المُبشِّرين بوَعْدِ جنة الاسكندناف، ونكثْتَ بوعد ميثاق المُقاتل. أنتَ أنتَ أنتْ».

اهتزَّت صورة ريباز المُقاتل. ارتعشت البندقية كأَن سقطت عن كتفه. ارتجت قمَّة الجبل، في الصورة، التي يقف ريباز على إحدى صخورها شبه الجرداء بقامته القوية الممتلئة حيوية، قامة الواثق من رجولته، لكن المهزوزة، الانَ غضباً، المهزوزة انكساراً يُرى ويُسمع نشيجُها، هنا، في هذه الغُرفة الباردة؛ غرفةُ الوجود الخطأ الناطق بلسانِ الخطأ الذي التبسَ على ريباز فانفجر بوجهه الآخر، وجه المُقاتل الواقف في صورة زمن غابَ خلفَ أمنياتٍ أُخرِسَ لِسانها، لِسانُ المُقاتلِ المنفيِّ مستسلِماً إلى مصيرٍ اختيرَ لهُ كقدرٍ من أقدار المهزومين.

قفزتُ، من فوري، إلى حيث يقف ريباز مُلصقاً جبينه على ساعده الأيمن مستنداً إلى الحائط. مسكتُ به. سحبته برِفقٍ إلى حيث كرسيُّه.

جلسَ ريباز. تنهَّد تنهيدة الخُسْران والحسرة غلَّفهُما بدُخانٍ نفثه من لفافةٍ أشْعلها. ارتخى على أريكته، معتذراً لي عن فورةِ الحنين التي باغتتْهُ، فجاءةً، وأعادتهُ إلى أيامٍ، وسنوات كأنْ توقف فيهما الزمن:

«معَ ذلك، وبالرغم من شروط قوانين الزواج، هنا، التي هي إحدى شروط التعقيم التي انْسَقْتَ إليها، يا صديقي هرميتس، سأتزوج من گلاويش بأسرع وقت. ستأتي إليَّ قريباً. لقد صُحِّحَ عُمرها نزولاً عند رغبة قوانين السويد، وهذا شأنٌ من شؤون ملالي كردستان».

أمْسَكَ بكفِ يدي اليُسرى. قرَّب راحتي لصْقا على قلبه:

«حِسَّ، يا هرميتس، نبضات قلبي. إنها ستطفرُ. هذه نبضات گلاويش مثل نبضات آخر نجمات الصباح، عند حافة الشفق الإلهي، ذاهبة تغفو تحت عرش ملائكة كردستان. امْسكْها. امسكْها».

«من أين تعلَّمت كلمة «أفيِّش»، أو أين سمعتها، يا ريباز؟»، سألتهُ مُمنِّياً نفسي أن يكون قد نطقها مُصادفةً لا علاقة لها بما دار، لحْظتَها، في خاطري.

نظرَ إليَّ ريباز نظرةَ يدعو بها نفْسَهُ إلى الإتْيان ببرهانٍ يُرطِّبُ به جلستَنا، بعد جداله التراجيدي مع ريباز المقاتل المتجسِّد صورةً، ذِكرى، تعود به إلى أيام مُقاتلة جنود نظام صدام.

قفز ريباز إلى حيث جهاز مُشغِّل بكَرات أشرطة الأغاني. سحبَ شريطاً من علبةٍ مربعة تحوي مجموعة من الكاسيتات. ألْقمَ الشريط فتحة الجهاز ثم أغلقه. ضغط زرَّ التشغيل. لعلعَ صوت المطرب «ياس خضر»، بأغنيته المشهورة: (مَرِّينَه بِيكُمْ حَمَدْ واحْنَهْ بقطار الليل). دَنْدَنَ ريباز، دْندنةً مهروسة في حنجرته، مع نغمات الأغنية، بغَمْغمةً

مُستريحة. أسرعَ إلى المطبخ. عاد بقنينة فودكا جديدة. فتحها. عمَّر له كأساً، أسقط فيها بعضاً من شرائح الليمون:

«جِنْ جِنْ، كاك هرميتس. بصحتك، وبصحة كاك ريباز، وقطار الليل، وقَهَر الليل. بِصحَّة العشق، والقطا، والقبج. بصحة گلاويش وريباز. بصحة الجبل البعيد في شمال أوروبا الاسكندنافي. هذا الجبل الذي سأسحلهُ وأعيده إلى أرض كردستان».

قرعنا كَأسيْنا. شظايا ملْحَمة عذاب، وتعذيب «محيسن» تراقصت في جو الغرفة المختنق دُخاناً، وبأحمال هذيان ريباز الذي بدأ يتزايد كلما كثُرَ قرع الكؤوس. شظايا رجْرَجتْ جوفَ أعماقي. أمْعَنتُ النظرَ إلى صورة ريباز الوحيدة، التي عاتب ريباز صاحبها. ريباز بلباسه الكُردي تستريحُ على كتفه اليُمنى بندقية كلاشْنيكوف، كمَنْ يُعيدُ التوازن إلى المقاتل الكردي، ريباز، الحقيقي كإنسانٍ على أرض الوجود الطبيعي، هناك على أرضٍ وُلِد فيها وأحبها لكنه، الآن، يتباكى كَمن خان ميثاقَ وجوده الأصل على الأرض الأصل.

أخذني ريباز، المقاتل، في صورته البريئة التي يسندها حائطٌ غريب، إلى هواجسِ بدأت تغلي في أنفاسي. تخاطَفَت أمامي مشاهِدَ سريعةً مُنْشدَّة إلى بعضها تشقُّ غُمامَ الحَيْرة التي سَطَلَت، بلا مُقدِّماتٍ، رأسي.

أثمَّة ما هو غريب في الأمر؟. ثمَّة صدْفة من صُدفٍ لا يُحسبُ حسابها. ربما هي صدْفة، حسْب، لذا لا يمكن لأحد ما أن يتنبأ بموعدِ حضورها وضرورتها. الصدفةُ حقيقة لا منظورة أو لُغْزٌ من ألغاز المتاهات تقفزُ ناضجةً بضروراتها. الضرورة معجزة من معجزات الصُّدَف الغامضة.

انفتحت، بصمتٍ أخرسَ، نوافِذَ ذِكريات نامت تحت مهْجَع سنواتٍ من عُمرٍ ثقيلٍ بندمه. ندمٌ يستدرجُ صاحَبه، سهواً، أو عن دِرايةٍ، إلى مكائِدَ لا يحِسَبها مكائِدَ، بل سكةُ صوابٍ للمُرتَجى الحُلُمَ. ندمٌ ينضجُ بأناة تحت سفودِ قلوبنا، نحسبهُ لوعةَ حُبٍّ يستاهلُ تضحيةً.

ذكرياتٌ التهبَتْ، بلا استئذانٍ، ظننْتُ أني قد خزَّنْتُها مُخدَّرةً، عنوةً، في قبْوٍ مُظلمٍ.

ذكرياتٌ ملعونة ماضية بأسرارها لا مجال إلى تصويب لعنتها.

إرثٌ من زمن العذاب القديم نخَسَهُ ريباز، بلا دِراية منه، بعصا السِّيَر الأليمة. كنتُ، قبل دقائق، على حافة العبورِ إلى البرزخَ الجليل لنعمة الكحول. صحوْتُ. طار الكحول.

«ما الذي ذكَّرك، يا ريباز بكلمة أُفِّيش؟»، سألْتُه، ثانيةً، تأنيباً، بصوتٍ أخْرَسْ، من جُرْنِ روحي. خِفْتُ أن أُصدِّقَ نِداءَ عقلي الباطن الذي جَفَلَ، فجاءةً، فرجَّفَني. نداءٌ ليس في أوانهِ. لم أستطع كبحَ فضولهِ آنَ نطقَ ريباز بكلمة قرَّر «محيسن»، على إثْرها الانتقام من رجل الأمن الذي اغتصبهُ :

«سأقْتُلهُ»، سأقتُلُ هذا الوغدَ المتوحِّش. لا عليكَ يا رفيقي. أنت تدبَّر لي المسدَّس، وطلقتين فقط. لا تَخَف. سأكونُ قد انتهيت. سأنتحر. الطلقة الثانية لي، والأولى لغريمي الوَغْد رجل الأمن»، تذكَّرتُ رجاءَ محيسن لي. الرجاء الصادق بتوسُّلٍ صادق.

«لكن، يا صاحبي محيسن، من أين لي أن أتدبر لك سلاحاً، أتراني هاوياً للأسلحة أو أمتلكُ مُسدساً؟ لدينا في الدار بندقية الضغط الهوائي، فقط، نصطادُ بها العصافير والفاخت، لا غير». أجبتُ محيسن رداً على إلْحاحه.

«أنسيتَ، يا رفيق، مُسدس ذلك الضابط التركماني؟ ألم تقُل لي أنك احتفظت بمسدسه الذي تركه مَنْسياً في غرفته حين داهمت داركم قوة من الحرس القومي واعتقلته، فاحتفظت أنت بمسدسه منتظراً أن يعود، لكنُه لم يعُد عُد واخرجهُ من الحفرة التي دفنتهُ فيها في سطح داركم، أرجوك».

عَبَرت خاطري، كومضةِ بَرْقٍ، حكايةً مسدس الضابط التركماني «راشَانْ»، التي سردتُها لمحيسن، من سنين بعيدة، ونسيتُ الحكاية التي عُمرها من عُمرِ طفولتي، عن ضابطٍ أشقر وسيم، والفنان الخجول. أيصلُح أن يكون الضابط في الجيش خجولاً؟. ربما أكونُ قد نسيتُ سيرة المسدس، لكني لم أنسَ «راشان»، الذي استأجرَ غرفة في دارنا الكبيرة.

أعدْتُ السؤال على ريباز من دونِ تريُّثٍ: «أين سمِعت كلمة أفيش، يا ريباز؟».

- لكنها كلمة عراقية، فما الغريب في أن أقولها، يا هرميتس؟ ثُمَّ، ألَم تضم حركة أنْصار كردستان مُقاتلين عرباً، أيضاً، كان ينطقها أكثر من نصير عربي.

قفزتُ مذعوراً إلى حيث جهاز تشغيل الأشرطة. ضغتُ، بسبَّابتي المُرتعِشة، زرَّ إسْكات الأغنية التي أخذت تنْغُزُ بشفراتها حنيناً غيرَ عابرٍ:

كل أشكال، وصور، ومقامات، ودهشات، وارتكابات، وتناحرات، وثرثرات، وارتباكات الحنين، المبالغ فيها، البالِغُ، أو الذي في طورِ المراهقة يسير على سكَّةٍ النضوجِ، كلُّ فضائلِ ومساوئ الحنين التي

تخُصُّني، أنا وحدي، هو حنيُن غيرُ عابر. أما الحنيُن العابِرُ، فذاك لايُعتدُّ به، ولا أعدُّهُ من سُلالةِ الحنين، لأنهُ من جمْرٍ فَاشُوش.

عدْتُ أجلسُ قُبالة ريباز، محاولاً كَظْمَ ما اغروْرَق في عينيَّ من دَمعٍ فار متأوِّهاً، بلا استئْذانٍ، من آثارِ نُدُبِ كَلَمَت روحي. نُدُبٌ استفاقَت مُتُراقِصةً أمامي دون أنْ يُدْرِكَ ريباز، بالتأكيد، ذاك القَدَر من فِعل لفظه كلمة «أفيش». كلمةٌ أعادني بها إلى نبش ذكرى صديق عُمرٍ يمورُ مصيرهُ غير المعلوم لي، والذي لا يصدأ، في غَمامِ جدار رأسي.

- يبدو أنكَ لا تُحِب أغاني «ياس خضر»، يا صديقي. هذا الشريط، وهذا المطرب العراقي، بالذات، أحبُّ أغانيه جداً. على راحتك، يا هرميتس. أتُحب أن أُسمعك أغاني سويدية؟

«أَتُحب التحشيش، يا ريباز؟ ألديك حشيشة في علبة السنوس، هذه؟»، سألتُه مُشيراً إلى العلبة التي وضعها على الطاولة.

ضحك ريباز ضحكةً نثرَها حزينة كإنما سمع صدى ندائي الدفين يخمشُ سراً يُحاولُ استنطاقَ الضِّيْق الذي انتابني فجاءةً. تناول العلبة. فتحها. مدَّها إليَّ بعجالة، مع بعض الانزعاج الظاهر على وجهه:

«تفضَّل. خُذ لكَ شمَّة، لكن على الخفيف»،

مسكتُ العلبة. أغلقتُها وأعدتُها إلى حيث مكانها:

- أنا لا أستسيغ ما يُخدِّرُ عقلي تخديراً ممنوعاً. السويد تُحاول أن تُعقِّم المجتمع من شرِّ الحشيش، وأنا أحترِمُ هذا التعقيم ضد مادةٍ تُغري العَقلَ بفضحِ التجلِّي الخفي للروح فتجعلكَ، الحشيشة، ترى تجلِّيك المدفون في أعماقك يتراقصُ علناً أمامك، وأمام الآخرين،

فتحاولُ إمساكه لكنه يهربُ منك وتسقط فارطاً من الضحك. يكفيني الدُخان، يا ريباز. أنت تعرف أن الحشيشة ممنوعة هنا. كيف تحصل عليها؟ ألا تخاف من اكتشاف أمْرِكَ؟

«لم أشأ أن أحكي لك عن ما في داخل علبة ألْسْنوس».

أمسك ريباز العلبة الصغيرة المدوَّرة. فتحها:

«هذه «سعوط» كردستانية، يا هرميتس. هي لا تُصنَّع. هي تُخْلق على أيدي قِلَّة مِمَّن استنبطوا موادها استنباطاً حَكيماً، باختيارٍ مُحْكَم، لِتُخْلَط وفقَ مِزاجٍ قلقٍ من كَرمِ الحاجة والضرورة. ليست ممنوعة. تُرسل لي بالبريد أو تصلني مع أشخاص قادمين إلى يوتبوري. لا تخف. أنا لا أتعامل مع الممنوعات».

قفز ريباز واقفاً، مدَّ يدهُ اليمنى باتجاهي مضمومة الأصابعِ عدا سبابته التي مدَّها باتجاه بَصَري: «لحظة أرجوك»، قال ريباز. خطى بضع خطوات إلى حيث حقائبه الموزَّعة في أركان الغرفة. عاد بحقيبة جلدية يدوية، صغيرة. فتحها. استلَّ منها دفتراً صغيراً بحجم الكف، ذا غلافٍ أسود وضعه أمامي، على الطاولة: «تفضل، قال».

«ما هذا، يا ريباز؟»، سألتهُ مُشيراً باستغرابٍ إلى الدفتر.

نظرَ نظرةً باردة إليَّ، ثم إلى دفترهِ؛ نظرَةً يُقشِّرُ بها ردَّة فِعْلي المفاجئة، واستغرابي من ربط «السعوط»، بالدفتر. بلعَ رشفةَ فودكا. مطَّقَ، بصوتٍ مُسْتفزٍّ، ماضِغاً قطعة ليمونٍ دون أن يُخفي بعض امتعاضه من شكِّي أنه يتناول مواد ممنوعة.

«افتح الدفتر، يا هرميتس»، ردَّ ريباز على استفساري وتعجبي المباغت.

تناولتُ الدفتر. فتحتهُ. قلبتُ الصفحات التي لا يتجاوز عددها الثلاثين ورقة مُسطَّرة، كُتب فيها بعض عناوين، وأرقام هواتفٍ، وأدعيةَ. استرعى انتباهي ورقة وحيدة، مطوية بعناية محشورة وسط الدفتر. سحبتُ الورقة. فتحتُها: رسمة لحِمار. رسمة مُتْقنة بقلم الفحم. ابتسمتُ بوجه ريباز:

«ما هذا، يا ريباز. حِمار؟ أتُحب الحمير؟». استقبل ريباز سؤالي استقبال المستهزئ.

«أرجوك، لا تُقلِّل من شأن هذا الحيوان العظيم. هذا «رفيق صابر». هكذا نُسميه في كردستان. الرفيق صابر»، أضاف ريباز.

لم أستنتج، من تصرف ريباز، والدفتر، ورسمة الحِمار، ومحتوى الأوراق المُسطَّرة، أيَّ معنى يُشير إلى ما أراد أن يُبرِّرهُ لي بأن ما في العلبة ليس حشيشاً، إنما سعوط.

أصرَّ ريباز على أنها خلطة سعوط كردستانية بامتياز:

«إنها تُبَرِّئُ العقلَ، مؤقتاً، من وسوسةَ الوجود، يا صاحبي هرميتس. ثَمَّتَ فضول مكتوم في مزاجي أرْتجي فتح مغاليقه ومعرفة الشهوة الناتجة تجربةً في اتحادِ تبغٍ سويدي بسعوطٍ كُردي».

«ما علاقة الدفتر، ورسْمة الحمار، يا ريباز، بما موجود في علبة السنوس التي تُصر على أنها علبة سعوط ليس إلاَّ؟»، سألتُه رغبةً في أن أستجلي الحقيقة من كل المستمسكات التي وضعها بين يدي تبريراً لشكِّي، الذي يبدو أنه قد أزعجه لدرجةٍ رأى أن عليه كشف السرِّ الغريب الذي يعرفه هو، لا أحد غيره.

«يبدو أن رسمة الحمار قد أثارت فضولكَ، يا هرميتس؟ أراك

أطلتَ التأمل فيها، أأَعْجبتك؟»، سألني ريباز كأنه يقرأ في عيني هاجساً لم تُخْفِه إطالتي النظر، طويلاً، وبتعمُّقٍ في الرسْمةِ:

«أَأَنْتَ من رسمَها، يا ريباز؟»، سألتُه باهتمامٍ استزادةً في تقليبَ شكوكي التي ازداد تأزُّقها، أُمَنِّي نفْسي أن يقول:

«أنا لا أُجيدُ الرسم، يا هرميتس. لكني أُحبُّ الحِمار، هذا الحيوان الآدميّ. هذه رَسَمَها نصيرٌ من أنصارنا. كان صديقاً رائعاً. كنا قريبيْنِ من بعضنا، ولم نفترق طيلة سنوات كفاحنا ضد نظام صدام».

«هل أستطيع معرفة صاحب الرسمة، يا ريباز؟ هل هو نصير كردي أم عربي؟».

«الأهَمْ من معرفة صاحب الرسمة، أن تتعرَّف، بنفسك، على مكونات بزور السعوط التي دوَّختني ودوَّختَ ربي بفضولك الملْحاح كي تعرف سرَّها، حتى تُطفئَ نار هلعك كونها حشيشاً ممنوعاً، يا جَناب الشاعر الموَسْوَس. سأُسميك هرميتس الموسوس منذ الآن». أطلقَ ريباز قهقهةً قصيرة وهو يُشير إلى الرسمة:

«اقْلِب الرسمة، يا هرميتس واقرأ ما مكتوب على ظهرها».

أدرتُ الرسمة الورقة. وضعتُها على فخذي اليسرى. ثمة سطور مُختصرة، وأخرى مُشهبة في تفاصيلها، متواليه، لم استبِنْ معناها، للوهلة الأولى. قرَّبتُ الورقة، خَفْضاً، بيدين مرتجفتين، إلى نور الشمعات. بدأ شكِّي أكثر انْذِهالاً حين توضَّح لي إيقاع الكلمات أكثر كلما لامَسَ وَنَسانُ ذؤابات الشمع الحروف مُروِّضةً، وكذلك نَسَقِ خطِّها العربي أقرب إلى ظَنِّي الذي حاولتُ إبْعادهُ كلَّما أراد استعادةَ صوابه يقينا مُتجلِّياً، لا مفرَّ منه. لحظةَ امتحانٍ، حشرني بها ريباز. لحظةَ أخذ ظنِّي ويقيني يتناطحان، أيَّهُما الأقرب إلى سلامة

هاجسي. أعرفُ أن أشكال الكتابة قد تتشابه معظم الأحيان، لكني أمتلكُ خبرة في التمييز بين أسلوب الكتابة، وشكل الخط، لأشخاصٍ قريبين إليَّ، أو لأقُل خبِرتُ التفريق بينها فِطْنةً.

طلبتُ من ريباز أن يُضيءَ مصباح السقف، فَفَعَل. اقتربَ اليقين خطوتينِ، أكثر من بؤبؤيَّ. نطقتِ الكلمات والسطور وضوحها بخطٍّ نورٍ في حروفٍ تتشاجرُ معنى يقيناً لما تريد أن تفصح عنه تلك الوصفة المُغرقة في تفاصيلها، التي تسلسلت تحت عنوانٍ غريبٍ تلقَّفته بفضولٍ مثل زَبَدٍ يرتجُّ على صدري:

ارتِكاب الضرورة.

التلاقُح العجيب. وصْفةٌ لتهريج الأنفاس.

الوصايا الثلاث عشرة لِكَرَم المِزاج.

1. كَمْشة طريَّة من روث الأتان، بما يُعادل ربع كيلو غرام. يُفضَّل أن يُؤتى به من قمة جبل، لا سفحهِ، حتى لا يكون قد دُنِّس بأقدام البشر، والأحْسن أن يكون من نِتاجِ أول الفجر قبل أن تضربه الشمس الحامية. تعرِفهُ القيَّافات حاصدات الرَّوث كحصادهن القمح والشعير.

2. يُوضعُ الروثُ في قطعة قِماشٍ حريرية رقيقة ثم يُربطُ أطرافها، كصُرَّة، بحبلٍ من الكتان أو ليْفٍ مفتولٍ من سعف النخيل.

3. تُعلَّق الصُرة بغصنِ شجرةِ سنديان، أو شجرة بلُّوط، على أن لا تلمحها الشمس إلاَّ خطْفاً، وتُترك لمدة أسبوع حتى يتخلص الروث من السوائل العالقة فيه، ويترطب بندى الصباح.

4. يُطحَنُ الروثُ طحْناً دقيقاً، ثم دقاًّ بخشبة قاسية من الساج، بجُرنٍ نُحاسي، بعدها يُلفُ بنفس قطعة القماش الحرير، وتُحفظ في مكانٍ مُظلم تحت صخرة ثقيلة لمدة أسبوع آخر.

5. في الأسبوع الثالث يُضافُ، خلْطاً، إلى الروث المطحون المواد التالية:

6. ربع كَمْشة من بزر العنب مطحوناً. تُعادلُ ما وزنهُ 20 غراماً تقريباً.

7. ربع كَمْشة من لُبِّ البُطْم الأخضر، مطحوناً، بما يُعادلها 20غراماً، تقريباً.

8. ربع كمْشة من قشر الجوز الأخضر، مطحوناً، بما يُعادلها 15 غراماً وزناً، تقريباً.

9. ملعقة طعام من بذر القرنفل المطحون، وملعقة طعام من زيت القرنفل المخلوط بزيت الزيتون. القرنفل له خاصية التخدير ويحمي من السموم.

10. يُرشُّ الخليط بقليلٍ من طحين مَنِّ السَّما، ويُفضَّل المن الأصل من جبال بنجوين، على أن يكون من ذاك المتساقط على أشجار البلوط حيثُ تُكْسبُهُ أوراقه مرارةً حادة.

11. يُعجنُ الخليطُ عجْناً قوياً مرتين في اليوم صباحاً ومساءً ولمدة ثلاثة أيام متتالية حتى يتماسكُ. يُفضَّل إضافة قطرات من ماء الزهرِ إليه، حسبَ الطلب.

12. تُقطَّعُ العجينة إلى قِطع، دوائر صغيرة، بحجم بعْرة الكبش، أو الجدي. تُجفَّف ثُم تُحفَظ في أكياس قطنية صغيرة يُربط عنقها بخيطٍ متين، يُفضَّل مغزولاً من ريش صقر.

13. تُخلطُ كل قطعة، نَثْراً، مع 10 غرامات من التبغ.

دفعَ يقيني أخاهُ الشكِّ، الذي حاصرني طيلة الوقت، وأنا أقلِّبُ رسمةَ الحِمار وأقرأُ، بتلهُّفِ صامتٍ، الوصفة الغريبة لأنيْسِ التبغ الذي يُسميه ريباز: «سعوط كردستاني»، دفعاً إلى زاوية بعيدة من زوايا التردُّدِ داخل قناعتي. حيلةُ الشكِّ، التي تلاعبت بمزاجي وتردُّدي، وصلت، الآن، إلى طريق مفتوح. تأكَّدْتُ من أنَّ الذي اخترعَ تلك الكُرات المهجَّنة هو الذي افتقدته منذ أعوام طويلة. وجدْتُني أستريحُ ، تماماً، على أريكةِ الوثوق من أنه صديقي المفْتَقَد الذي اخترع هذه الوصفة التي تُقلِّبُ خيال التدبير الضروري تقليباً يُستطابُ لهُ مِزاج المقاتل الحالم بالانتقام من البرابرة. لا شيء يُزيلُ الغِلالة عن المستحيل إلاَّ تخيُّله ممكِناً شاذاً، كسَديمٍ غير مُنْتَظَر.

لم تعُد لُغْزاً تلك الوصفة المدوَّنة بدقَّةٍ على يد عارِفٍ يعرفُ ما يُريد. وصفة مكتوبة بخط شخصٍ أُميزُّه، بلا تردُّدٍ، من بين مئات الخطوط.

أستطعتُ، في تلك السهرة مع ريباز، أن أَفُكَّ مغاليق ذلك اللُّغْز. لم يتبقَّ لي كي أُوثِّقَ قناعتي شرْعاً إلاَّ بوضع ختم اليقين عليه من قِبل ريباز باعتباره مالِكُ رسمة الحِمار، والمدوَّنة القصيرة لوصفة التنباك، أو السعوط، المنسوخة على ظهر الرسمة. وريباز يعرفُ، يقيناً، من هو صاحب الرسمة وما دُوِّنه خلفها.

طويتُ الرسمة، باعتناءٍ مُبالغ فيه، بيدين مُرجَّفتين. أعدتُها، كما كانت، بين دفتي دفتر ريباز الصغير. وضعتُ الدفتر على الطاولة. تناولتُ علبة ألْسْنوس. فتحتُها، من دون أن أنظر إلى ريباز، قرَّبْتُها إلى أنفي. سحبْتُ نفساً عميقاً. أغلقتُ العلبة. حشرتُ أنفاسي أجزاء ثوانٍ، ثم أطلَقْتُها زفرةً حُرَّةً مُدوزنةً على كلمة «أُفِّيْش»، خارجة من

لساني، تتبَعُها نظراتي المتسرعة في نطقِ قسم اليقين تقلُّباً على مزاجٍ من خمائِرِ ذكرياتٍ بعيدة، لم تزل طازجة، مرئيةً بوضوحٍ، لم تتعافَ من قسوتها رغم ما مضى عليها من سنواتٍ طوال.

أطلقَ ريباز قهقهةً نازفةً من أعماقِ طيبته النقية. صرخَ، بلا تردُّدٍ:

«تعْجبْني، يا هرميتس. الآن بدأت تعجبني لأنك بدأت تستوعب، حقيقةً، هذا السر المدفون في علبة ألْسنوس. الآن تأكد لك أنها ليست حشيشة، بل تُتْباك بصْراوي، أو سعوط كردستاني، حسب مصدره وصناعته».

تماوجَ الفرحُ الصبياني على قسماتِ ريباز. استطاب مزاجهُ مُصَحْصِحاً، كمن أفاق من سكرةٍ ثقيلة. استكانت دورةُ الجدال بيننا غامسةً أنْسها في كأسِي خمرةٍ رفعناهما مستطابين بشعاع النور الودود للشمعات السبع.

«غريبٌ أمرَ مُقاتلين يسْتجيرون بالروثِ خلْقاً لمادةٍ مَقامُها من مقامِ الكَيْف». رميْتُ كلامي من دون أن أتقصَّد توجيهه إلى ريباز، أو أنتظر جواباً منه.

عضَّ مِزاجَ ريباز التعجُّبُ المُنْدهِش الذي أبْديْتُهُ مُسْتغرباً. خدَشَ وترَ خيالهِ المدوَّخ خَلْطاً من كحولٍ وتبغٍ معجونٍ بربِّ السعوط . رمى نظرةَ عِتابٍ هادئة على سطورِ بَطَري، واندهاشي، بفواصِلَ مُتتابعةً لَوْماً.

«عندما تُحاصرُ، وتتقطِعِ بين جبالٍ، وربايا أعداء ينتظرون اصطيادك. عندما تصبحُ السيجارة آخر أحلامكَ. عندما لا تستطيع أن تُشعِلَ سيجارة خوفَ أن يشمها عدوك فتكون صيداً سهلاً، يصبح

أمر البديل عن تلك المعاناة هو السعوط»، قال ريباز بحرقةٍ لا تكوي إلاَّ مُجرِّبها.

عمَّر ريباز سيجارتين مسكونتين طحْناً ببعرةِ الكبشِ من السعوط في كل منهما. تدفَّق كرمُ الضيافة لحماً مشوياًّ، مُدمَّساً بخليطٍ كثير من ألْكمْأِ الأبيض المُهجَّنِ تهجيناً مُهذَّباً، مرَّخَهُ، تدْوِيخاً، بأطايبِ التوابلِ.

سخياًّ كان ريباز في ما أعدَّهُ من لحمٍ مشويٍّ، لثلاث ساعاتٍ، على نارٍ هادئة. أصبَح الطَبْخُ وإعْداد الخبز، وكل ما ترْتجيه المعِدة ـ العقل الثاني في جسم الإنْسان، من أطايبِ الطعام، مهمة ضرورية في بلاد الاسكندناف. مهمة مجبولة بخِبْرةٍ طويلةٍ اكتسَبَها من مطابخ المناضلين.

قفز ريباز إلى المطبخ عائداً بسبع شمعاتٍ جُدُد. أوْقدها، مُستبدلاً بها الشموع السابقة، بعد أن لم تعُد شموعاً بل أقراصاً معدنية فارغة التهم النارُ آخر ومضة من جَذَواتها. أطفأ مصباح السقف الكهربائي. جلسَ، على أريكته الجلد، مُريَّشاً بفرحٍ غامرٍ كَمن خرجَ، منتصراً، من تحقيقٍ قدَّم به اعترافاً صادقاً، اعترافاً مادياًّ دوَّنه رفيقهُ النصير العربي حين كان معه في جبال كردستان العراق. وصفةً مُفصَّلةً في صناعةِ ما تمليه رغبةُ الضرورة لتسكين مزاج مقاتلين معزولين في أكواخ، وربايا، وكهوف، حالمين بالعبور إلى أملٍ موعودٍ مُخزَّنٌ في أعماقهم. أملٌ يُقارعُ الخُذلان المُخيف لثوَّارٍ صادقين في قناعاتهم.

قرَّبَ ريباز لفافته التبغ، من لسعة نار إحدى الشمعات. أشْعَلُها. أشار إليَّ، يعني سيجارتي، كنتُ أُمرِّرُها تحت أنفي، أتشَمَّمها، أختبرُ

لوعتها قبل أن يُغريني مكر النار وهو يلتهمُ أحْشاءها، كي أُشعلها، استئناساً، وتجريب عجائب تبغها.

لم أشأ أن أكسر خاطر ريباز. أشعلتُ سيجارتي من ونيس إحدى الشمعات، كما فعل هو. سحبتُ نَفَساً خفيفاً. وضعتُ السيجارة مستريحة في شقٍّ من شقوق منفضة الرماد. قرأتُ، في ملامحه، حيرةً سؤالٍ يقلِّبه، بتروٍ، على رأس لسانهِ. استبقته، أُعيد سؤاله السابق إليَّ، عن أصل الشمع، إلى ملعب عقلهِ:

- ما علومكَ في ما يخصُّ صناعة السعوط، يا ريباز؟ يبدو أنَّ ما طيَّبت به سيجارتي بخليط جهنمي تجعلني أستنتجُ، بحُكمِ الحاجة، لرجل مُقاتل، مع مقاتلين آخرين، معزولين، بين قِمم الجبال وسفوحها، أن يخترعوا طُريقة عجيبة، لم تتوصل لها البشرية، لحد اليوم، في صناعة السعوط.

- لم أخترع طريقة اختراع السعوط، يا هرميتس. لا أسمح لنفسي أن أدَّعي ذلك. كنتُ مُشاركاً، فقط، في إحضار بعض المواد المطلوبة لتجهيز الخليط. الفضل يعود للرفيق «أبو مِيشْكِن»، الذي اشتغل على هذه الوصفة لمدة ثلاثة أشهر. لقد جرَّب عشرات المواد حتى استقر الأمر به على هذه التفاصيل الدقيقة المدوَّنة خلف رسمة البَغْلة.

سحب ريباز نفساً عميقاً من سيجارته. هشَّ الدُخان باتجاهي بيده اليُمنى:

«تَعَطَّرْ تعطَّر برائحة كَرَم قُربان هذا الدخان. حينما أرحلُ من يوتبوري لن تجد من يُسعفك في الحصول على هذا السعوط المقدَّس من اختراع مُقاتِلٍ، نبيٍّ مِثاليٍّ، من أنبياء الجنوب، حاول أن يُرضي لوعة أرواحنا، ناذراً روحه، في ذات الوقت، لِمُقاتلة عَسْكر الطاغية.

- «آآآآآآآه». مرِّينه بيكُمْ حَمَدْ واحْنه بقطار الليل»، آآآآآآآه، آه، أين أنت الآن، يا أبا ميشكن. كنتُ أرتجيه أن يُغير اسمه الحركي هذا: «والله صعب اسمك، يا أبو ميشكن، قحط أسماء يعني». كان يضحك ويَرُدَّ رداً مليئاً بالحسرة: «لأني أبْلَه، يا ريباز». نظرَ إلى ذلك الرجل التمثال الذي وضعه في كوة مُدوَّرة، صغيرة في جدار غرفتنا الكهف: «اسأل هذا الرجل التمثال، يا ريباز، لماذا اخترْتُ اسم ميشكن».

«في ليلةٍ شتائية قارصة، معتكفين كُنا، أنا وأبو ميشكن، في غرفتنا داخل الكهف. كنا قد تدبَّرنا زجاجة عرقٍ هِبْهِب، شربناها احتفاءً بأسرنا أحد ضباط النظام. بعد ثلاثة كؤوس، وسيجارتين معجونتين بأربعة بعرات سعوط، انتشى أبو ميشكن. دغدغهُ الحنين إلى أهله وبَصْرته، وكلبه؛ إلى اهتزاز بيتهم كلما مرَّ القطار على السكة القريبة من دارهم. أسّرَّ لي، في تلك الليلة، باسمه الحقيقي. وارتجاني أن لا يعرف به أحد».

صمتَ ريباز. فركَ عينيه بكلتا يديه. شممْتُ رائحةَ دموعٍ سخَّنَتها الذكريات التي استفاقت، بلا تردُّدٍ، لشوقِه إلى أيام غدَت ذكرى، تترصَّدهُ، هنا، في هذا المنفى الناعمِ، المنفى الأسوجي. ذكرياتٌ بطعمِ الأمل، بطعم الثلوج في قِمم جبال قنديل، وسنجار، وشيخا دار، وهلكورد، وكورك، وأزْمر، وهندرين، وقزقابان. جبالٌ خَبرها ريباز طيلة سنوات من القتال في صفوف البيشمركه.

- مْحِيسَنْ. إنه النصير محيسن، أليس كذلك يا حمه؟

تجمَّد ريباز في جلسته. وضع كلتا يديه، يعصرْهُما، بين فخذيه. رفع يده اليمْنى. خبط بها صدغه الأسمر، العريض. نظر إليَّ نظرةً

من عينين تجمَّدتا، بلا حِراكٍ. أغْمضهُما، أرْجع رأسه إلى الخلف يرميه على ظهر الأريكة.

قفزتُ، بلا تردُّدٍ، إلى حيث جهاز تشغيل بكَرات الأغاني. مسكتُ بشريط «ياس خضر»، يرتَجيني قلقي أن أمنَحَ فرصةً للشكِّ المتقلِّب عصياناً في جمرة حقيقته ـ الشكِّ ألْمُدَغْدِغُ. طالَما أن الشريط هدية من صديق نصير عربي إلى ريباز البيشمرگه الكردي.

عدتُ إلى حيثُ أريكتي. جلستُ. قرَّبتُ الشريط إلى فسحة النور الصامت الكريم من نعمة سبع شمعات على الطاولة الخشب. شمعاتٌ لم تتفتَّق علومُ ريباز في الإجابة عن أصل صناعتها واختراعها.

تأمَّلتُ، بتمعُّنٍ مُرْتجفٍ، كلمات الإهْداء على ظهر الشريط، بخطٍ أسودَ، ناعمٍ، سليل نفس الخط الذي دوِّنَتْ به الشروط الثلاثة عشر في صناعة السعوط: «إلى الرفيق الشهم ريباز. تذكَّرني كلما استمعت إلى هذه الأغنية. محيسن ـ أبو مِيشْكِنْ».

إهْداءُ محيسن شريط أغنية ياس خضر، إلى صديقه ريباز، بدَّد كل احتمالات الشك. قفز اليقيُن أمامي، بكامل سطوعهِ يُبارِكُ هواجسي التي كانت في محلها:

«هاجِسُكَ من كَرَمِ النقاء، ومن جسارةِ الوفاء»، وشوشَ اليقيُن وشْوَشة موزونة شِعْراً، في أُذني. وشوشَ، واقفاً، مستَنْفَراً، ينظرُ إلى ريباز نظرات مسترخية بانتظار ما سيقوله، أو ما لا يستطيعُ لجمَهُ من المعاني المنظورة على سحنات وجهه. هل سيبقى أخْرَسَ من جراء الصدمة المفاجئة التي لا اعتراضَ عليها، بعد أن وصلت رسالتي إليه، بمحض صدفةً، واضحة الحروف والمعنى:

لا صدفةَ تنجو من محاولة الاحتجاب وراء سِتارة برزخها، مهما تلاعبت بأثقال تورياتها بين الظاهر والخفيِّ.

لا عِصْمة للصدفة. ستحيُن حيَن يَحيُن أوانها، مهما توارت هاربة.

لا صدفة لا تصل.

لا صدفةَ لا تستدلُّ إلى ضروراتها، عند الضرورة.

لا صدفةَ بلا معنى.

لا صدفةَ صادقةً يطولُ انتظارها.

ها قد غافلتْني الصدفة، لا تُريد أن تهادنني أكثر مما هادنتْني. نزلَتْ مستسلمة لقرارها الأخير: فلْتُطْوَ صفحة المفاجأة التي شنَّجتَ بها صديقكَ ريباز. أوْدَعْتُك.

لم تنقطع صلةُ الوصْل بيني وبين محيسن منذُ أن غادرتُ البلاد. تبادلنا بعض الرسائل، بسلاسة، من خريف العام 1979 حتى صيف 1980. صيف بدء السنة الأولى للحرب مع إيران. حرصتُ على تذييل رسائلي باسم مُستعار فاخترتُ اسمَ فتاة كي أُبْعدَ الشبهة والشك عن محيسن. بعثتُ إليه، أحياناً، ببعض رسائلي من بلدٍ غير الذي كنت أُقيم فيه، بمساعدة بعض الأصدقاء الدائمي السفر. وللزيادة في الحِرص، زوَّدني محيسن بعنوان إحدى قريباته في ناحية «القرْنة»، مُلتقى النهرين العظيمين. واتفقنا على استعمال شِفْراتٍ في الرسائل، لا يفك مغاليقها إلا أنا وهو.

استطاع محيسن أن يُقويِّ علاقته بأبينا «إبراهيم المعْمداني»، راهب كنيسة الكلدان الواقعة في منطقة العشار، بعد أن رتَّبتُ أمرَ

التعارف بينهما قبل سفري بأسابيع معدودات. بعضُ رسائل محيسن كانت تصلني بظروف رسمية خاصة بمراسلات مطرانية الكنيسة.

مُفاجأتان حَميمَتان حملتهما إليَّ إحدى رسائل محيسن. صورتان، ما زلتُ أحتفظ بهما. الأولى تجمع أبانا المعمداني وصديقي محيسن التُقِطت أمام المحراب داخل الكنيسة. بدا محيسن، في الصورة، بملامحَ كَمن استعاد المقدِرة على مواجهة الطعنة التي تلقاها من جلاوزة النظام. ثقةُ شاعر وفنان يُخبئُ أسرارهُ بعناية الواثق من سبر جُرحِ أغواره: وِقارٌ نحيلٌ، صامت، على وجهه. شعاع ذكاءٍ. لم تخلو ملامحهُ من بعضِ حَيْرة، وغم يُغلِّفه حزنٌ يكاد يطفرُ من عينيه العسليتين. ثيابٌ نظيفة. شاربان كثَّان، وشعرٌ خفيفٌ، طويل، خبَّأ قذاله خلف إذنيه. كتابٌ ثقيلٌ، كبير، مرفوعٌ بيده اليُمنى، مضمومٌ إلى صدره، وباليُسرى يحتضنُ كتِف أبينا إبراهيم الممتلئ عافيةً بوجهه الأبيض المحْمرِّ يرتدي قفطاناً أبيضَ بُولِغَ وشْيُه بصُلْبان مُذهَّبة نُسِجت بخيوطِ ذهبٍ.

رَنَّ، في رأسي، رَنيناً عَجَباً، ما دوَّنهُ محيسن، من تحوُّلٍ غريب عن زيارته للكنيسة، وعن الصورتان المرفقتان برسالته:

«تقبل تحياتنا. أواظب، كل أسبوعين، على تناول قرصين من القُربان، واحدٌ لي، والآخر لذكراك».

«لمْ أكُن ألوكُ القرابين. لم أمضغْها. تعوَّدتُ ترْكها على سطح لساني التصاقاً ليِّناً. أحْذرُ أن تذوب بسرعة. أرفعُ لساني وأُنْزلهُ، فيلتصقُ القربان بسقف فمي. يا إلهي، أيُعقلُ أنني أمتصُّ «جسد يسوع؟». لا تسألْني، يا صديقي، إنْ كان طعمهُ مُستساغاً. في البدء، لم أتذوَّق سوى طعم عجينة نيئة، لكن، بعد حضوري دورة الصلوات

على القرابين قبل توزيعها على المصلِّين، أيقنتُ أن ثمة قُدسيَّة لهذا الرمز. شيئاً فشيئاً أخذتُ أكتسبُ طاقة غريبة، وأنا أتناول القربان، طاقة تحاول أن تنتزعُ من روحي وهي تتعرَّق ارتجافاً روائح عفنة حتى تبخَّرت، تقريباً، بعد مُدَّة. اقترحتُ على «الماسيرة» المختصة بتحضير القرابين تصنيعها دون إضافة الخميرة إليها: «الخميرةُ تُفْسِدُها»، قلتُ للماسيرة. لكنها اعتذرت: «لا يُمكنني الخروج عن التعاليم، ياضيفنا العزيز»، أجابتني الماسيرة».

أما الصورة الثانية فلباحة الكنيسة وواجهة مدخل بابها الخشبي الضخم، تعلوه شبابيك مُزجَّجة بُزُخرفة فُسيفسائية. الناقوسان الضخمان اللذان يعلوان سطح الكنيسة، ما زالا كما هُما. ذكَّراني برنين أنينهما الأسبوعي، كل يوم أحد.

المعلومة المفاجئة، التي دوَّنها محيسن، على ظهر الصورة الثانية رجَّفت قلبي، خفقتْهُ خفْقاً حميماً: «شهدت باحة الكنيسة هذه، أوائل الستينات، عرضاً مسرحياً، من تمثيل وإخراج مظفر النواب ومحمد سعيد الصكَار».

إعْجابُ، وتأثُّر محيسن، شبْه المُقدَّس، والمُعَذَّب، بدستويفسكي، لم يخْفت. الميثاقُ الذي عقَدهُ مع فيودور، مِيثاقُ المصدر الجليل لأعماله، اقتباساً وإبْداعاً، بتأكيدٍ من عدم خلوِّ سطور رسائله إليَّ، تقريباً، من الاقتراب، أو الاستدلال، أو الاقتباس نصاًّ، أو تصرُّفاً، كما يحلو لمحيسن، وكما خبرته من سنوات صداقتنا الطويلة، من أعمال هذا الروائي الروسي:

«لن يخذلني دستويفسكي، في أشد المِحَن». هكذا ختم محيسن إحدى رسائله إليَّ. أما في هذه الرسالة، المرفقة بصورتين، فقد ختمها

بقولةٍ للرفيق «فْيودور»، كما يَكْني محيسن دستويفسكي: «دع العالم يذهب إلى الجحيم، لكن يجب دائماً أن أحصل على كأس النبيذ الذي لي». استبدل محيسن، كعادته، مُتصرِّفاً بمقولة دستويفسكي فأبدل كأس الشاي بكأس نبيذ.

تواشجت، بلا مُواربة منَّا، في تلك الليلة الآسرة، السهرة التي لم نُخطط لها، أنا وريباز، الخيوط المنفلتة عن مسارها، في بادئ الأمر، عن الشخص الثالث، الذي يتوسطُ صداقتنا، في هذا الزمن المتقلِّب بمصائر البشر. محيسن صديقي قبل أن أعرف ريباز بسنوات، وريباز صديقي بعد أن عرفت محيسن بأعوام.

لولا المرأة التي ظهرت فجأة، مع ابنتها «بيروت»، عند مدخل عمارة مَسْكني، لما كنتُ مضطراً أن أزور ريباز، في ذلك المساء. مساءٌ شقيٌ بامتياز. مساءٌ من أجل وداع استُكْمِل بمفارقاتٍ لم تخْطُر على بال أحد منا.

الصدفة وحدها جعلتنا نُقلِّبُ مُتْعتها، في تلك السهرة الأخيرة، قبل رحيل ريباز. يبدو أن ضروراتها قد تخمَّرت في عقلي، ولم يعُد من الممكن أن تبقى أسيرة خميرتها، فاكتملت الشروط، والمناسبة الطرية، في تلك الأمسية التي امتحنت مِحْنتي فألجأتْني إلى بيت ريباز لتفتح صندوقها، بمفتاحها الأعمى، بسلاسة تدرَّجت أحاديثَ مُخثَّرة بجرأة الكحول.

لم تكُن تلك الصدمة الشقية التي ضربت كبْد ريباز وهزَّتهُ بلوعتها هزاً عنيفاً، إلاَّ ضرْباً من ضروبٍ ترجمة المُصادفات المدوَّخة دوراناً في مداراتٍ مجهولة. أشفَقْتُ على لوْعَة ريباز، تلك، سيما أنه

على مشارفِ سَفرٍ. لي خِبْرة، لا بأس بها، في ليِّ عُنقِ المُصادفاتِ الوحشية:

«كُل هذه الخلطة الجهنمية، المُختَرَعَة على أصول الموازين، الوطنية المنشأ والتفكير؛ الخلطة القائمة أصلاً على روْثٍ محرور، قذْفاً، من أستِ أتان، تم طحْنُه باعتناءٍ مجنون، ثم خُلِطَ بأطايبَ طريَّة من خيالِ النعمة وأفاويحها. كل هذا السحر المجنون الذي تحول إلى أباعِرِ تُشمّ، أو تُخلطُ مع التِّتْنِ، تدخيناً لوعةً، ما هو إلاَّ روثٌ، يا ريباز؟». سألتُ ريباز بقهقةٍ سريعة، عسى أن أُغيِّر من مزاجه.

«كلُ ما يفرزهُ حيوانٌ يستخدمهُ الإنسان من أجل الطواف عليه غيرُ نجسٍ. هذه واحدة من فلسفات صديقك، الغريب الأطوار، محيسن، أبو ميشكن». أجابني ريباز وهو يُحاول، بتدرُّجٍ طبيعي، أن يلوي المفاجأة التي حصرتْ أنفاسهُ في لُجِّ أعْماقها.

«سألتُه، مرة، نفس سؤالك: أيُعقل، يا أبا ميشكن، أن نُلوِّثَ صدرنا بروث بغلة؟. أتعرفُ، يا هرميتس، بماذا أجابني أبو ميشا»، هكذا اختصرَ لقبه الروسي هذا، من ميشكن إلى ميشا: «إنَّ اليابانيين يُحوِّلون روث البقر إلى فانيللا، تلك المادة التي تُستخدم في صناعة الحلويات».

لم يسْألني ريباز عن تفاصيل علاقتي بأبي ميشكن، محيسن النصير. لم أشأ أن أسأله، أو استشف منهُ أكثرَ عن أخبار، ومصير صديقي المُقاتل الشيوعي. لم أشأ أن أُزيد من نثْرِ شظايا الانكسارات، غير القليلة، في أعماقه المُملّحة أسىً ولوعة اغترابٍ.

الفصل الثامن

ترويض المستحيلات

مُداعباتٌ مُعذَّبة، بين نسائم عليلة، وأنفاسِ رطوبةِ السماءِ الربيعية، يَلفُّها ضبابٌ خفيف غير مُتطرِّفٍ أو مُرتبِك الوجود، تنزَّلت رطبة، مقتربة، رويْداً رويداً، من رحمة زُرقَة السماء؛ شقَّقت صدري، كما شقَّقتْ، تَرَفاً، أغصان شجر التُّوب، والأكاسيا، والصنوبر البري، وغيرها من مشتقَّات الأخضر الرحيم الذي يُسوِّرُ جَلالَ الوجود المسالم لمدينة يوتبوري، أو غوتنبرغ.

نسائِمُ، تتحايلُ بوداعتها، لفَحتْني حالَ خروجي برأسٍ مُثْقلٍ، ذلك الصباح، مشْياً، من شقة ريباز حتى موقف الترام، بعد سهرةٍ سَلَخْنا بها، أنا وريباز، جلود شياه وجودنا الثقيل في بلد اللجوء الرحيم، على أرض السويد، بعيداً، هرباً من رُعب المكان الأول الذي انتصرَ علينا وأخذَ يبتعد.

سَهْرة تهارشنا فيها، بصخبٍ، وهدوءٍ متفاوتين، مُستنجديْنِ بذكرياتٍ نستَميحُ شقاءَها، ورحْمتها، عُذْراً بوخزِها وخْزاً لطيفاً، ومُداعبتها مُداعبةَ القَدَر المتشبِّثِ بغصن الأمل، أنا وريباز، كُلٌّ حَسْبَ مثاقيلِ همومه، ومَيلان ميزان مزاجه.

الرُعب الذي استولى على المكان الأول، حروباً، وملاحقات لكل مُعارضٍ للسلطة، لم يُزِدْنا كُرْهاً له، بل مُناكفةَ غريبيْنِ حملتهُما أقدارهما من أسافلِ بلد في الشرق انتشرت فيه رائحة الموت، والقمْعِ، إلى أعالي بلد آمنٍ في أقصى شمال البلْطيق.

كلُ شيء أخذ يترتَّبُ في حياتنا على سطح الاستقرار، هُنا، في السويد. اسْتقرارٌ مُخْملي يُدغْدِغُ قلبيْنا برقَّةٍ مُبالغ فيها.

كان التناقض الخفي في دواخل كل منَّا يرصُد الأملَ اللامعلوم. تناقضٌ، وصراعٌ بين وجوديْنِ لا يكُفَّان عن التناحر: التفكير بالعودة إلى حيث المقام الأول لوجودنا في هذا الوجود العبثي، أو البقاء، حيث نحن، حيث شفاعةٌ لا شفاعة بعدها.

أليسَ عبَثاً أن يُفكِّرَ ريباز في الانتقال إلى أقصى القطب السويدي. يمتحِنُ عِنادهُ وإصْراره على زراعة تبغٍ أتى ببذاره من عِراق كردستانه، يُطاحِنُ به التُّربة السوداء، تربة الأزل الأسوجي، مُقتنِعاً، بلا تردُّدٍ، أن قطعة من كبد الجبال في «كيرونا» هي في الأصل من كبد جبال الكُرد فلا بُد من ضخ دمٍ كردي في تعاريقه كي يعود يُجدِّد دم الكبد الأصل. كبدِ جبلٍ ما زال يَقلقُ منذُ سُرقَ من فلذة جبل قنديل على يد القراصنة الفايكنغ تهريباً في سُفنهم العملاقة؟

«سأروِّضُ كل المستحيلات. سأُزرعُ، وأُشيِّدُ حقولاً من تبغٍ كردستاني على أرض الاسكنْدناف. سأرفعُ، شيئاً فشيئاً، علَمَ إمبراطورية مزارع تبغ آل يزْدو، وأجداد يزدو. سأجعلَهُ يُرفرفُ في آخر قمة من قِمم جبال كيرونا. سآتي بگلاويش إلى هُناك وأُنْجِبُ منها ما لايَقِلُّ عن عشرة أبناء أُزاوجهم ببنات من سُلالة السامي، سأُدوِّخَ جلال الجينات الأصل لشعب الاسكندناف عَجْناً بجينات كُردية، وأُأَسِّس، جيلاً بعد جيل، عشيرة دمُها خليطٌ من دم كُردي ودم اسكندنافي. عشيرة ينزلقُ وجودها على سكة المشيئة المحسَّنة للنوع البشري. سكَّة الوجود النوعي الحديث. سأسميها عشيرة «كُرْدُناف». بهذه الطريقة سيستكين قلقُ الفخذ المسروق من جبل قنديل. هذا حُلُمي، يا هرميتس. كلُّ شيءٍ يبدأ بحُلم».

«أراكَ، يا ريباز، عُدتَ تستعير فكرتي الناقصةً بشأن الزواج من الجنس الاسكندنافي».

«فكرتك، يا هرميتس، بالفعل ناقصة. الثغرة النقصان في فكرتك ستُملأ بوَعْد الوجود الأكيد لحبيبتي گلاويش. يُرعِبُني التَيْه. أخاف أن تتيه روحي الناقصة الوجود هنا، ويتقصَّف كياني. السنوات الخمس التي مضت، لحد الآن، على وجودي في هذا الانكِماش الاسكندنافي جعلتْني أنصتُ إلى ارتجاج أفكاري وغسل ثياب الحنين بماءٍ بارد أدْرَد. لن أضحك على نفْسي. أقصى ما أتمناه من كردستاني هو زيارات مُتباعدة، لا غير».

علا عزيفُ الكبْت المحرور لسنوات ريباز الخمس، هنا. سنوات أمضاها مُغلَّفة بكتمان وحذر. فاضت حلاوة الوحشة. وحشة الوحدة. وِحْدة قذفت بريباز إلى ملجأ مُرتَّبٍ صدفةً، أو ربما بتكليفٌ من رب الصدفة للذين اختاروا أن يُسلِّموا أقدارهم إلى قَدَر الحِيْلة. أَتُرى، الحيلةُ، هي الخَلاص؟

مسحَ ريباز عن خدَّيْه أثلامَ جراحٍ تهيَّجت دمْعاً مقْصوفاً بشظايا الكحول المهيِّج لهبوب مشاعرَ محْرورة. غمغمَ بكلماتٍ كرديَّة شاردة مخارج حروفها، أعقبها بعربية لم أتبيَّن إن كانت ترجمةً أم استكمالاً لها:

«يا قَدَري المشطور كتفاحةٍ مدوَّدة، يا قَدَري، يا ابن الزانية».

قفز ريباز إلى الحَمَّام. سمعتُ صوت ارتطامِ الماءِ مصحوباً بكلمات لا تصل واضحة. كلمات تُتاهِشُ رشقات الماء كأنها تصطدم بحجرٍ.

عادَ ريباز بوجهٍ مُبلَّلٍ، وشعرٍ متناثر من هيجان الماء:

«الماءُ البارد نِعمة، يا هرميتس».

جلَّسَ ريباز جسدهُ الثقيل على أريكته، يفرك بيديه ما تبقى من قطراتٍ نازلة عن شعره إلى وجهه.

«لم تقُلْ لي، ماذا ستمتطي في كيرونا، يا ريباز؟ لا بِغال هُناك»، سألْتُه مُناكِفاً فكرة انتقاله الجهنمية.

«تحرَّيْتُ الأمرَ، يا هرميتس. لستُ غشيماً. لكل مِلَّة تعيش خارج المُدن وسائل للطواف. البرَكَة بحصان الدالا. ألم تسمع بالحصان السويدي العظيم الذي يسمونه (Dala häst)؟».

«لا يا صاحبي. لم أتشرف بمعرفتي بهذا الحصان ذي الإسم الغريب. أعرفُ أن ثمة كلاباً تسحب عربات الزحافات الثلجية، التي يستخدمها القاطنون هناك، كواسطة انتقال من مكان إلى آخر، أو هُم، على الأغلب، يستعينون بالوعول، أو ما يسمونها حيوانات الرنَّة». أجبتُ ريباز أُسْقي معلومته القديمة عن حصان الدالا بماء العلوم الأكثر حداثة في حياة قاطني جبال كيرونا.

«حصان الدالا هو حصانٌ جليلُ المقدرة، يا هرميتس. سيرته دوَّنها العابرون به، منذُ القِدَم، أرضَ أرخبيلات السويد. هو الجواد المُخْلص، الخاص بـ «أودين»، كبير آلهة أهل الشمال، القادر في السير على الماء، والطيران في الهواء. أحْلمُ إنْ يأخذني هذا الحصان، طائراً بِيْ إلى أرض كردستان. لكن لا بأس، سأستعين بالكلاب، وبالوعول. لكل مكان شقي، عصي على الطواف به، حيوانات رحيمة قادرة على ترويض جلال العبور من المكان المعلوم إلى أخيه المعلوم».

- أتَطْمَح لأن تصبحَ غنياًّ، يا ريباز؟

نظر ريباز إليَّ نظرة عتابٍ رجَّجَت خديه، كالمستثير من سؤالي المباغت. نفخ على الشمعات السبع، القابعات على الطاولة، فانطفأت.

سادَ جلْستنا ظلامٌ غلَّف صمتَنا. تضايقتُ من فضولي الأهْوَج. ردَّ ريباز على سؤالي بجُملٍ تاهت مخارجها في دبيب الظُلْمة:

- الغِنى ليس من أمنياتي. المهم أن لا أحتاجَ أحداً.. يا عزيزي هرميتس.

أعاد ريباز إشْعال الشموع تناوباً. اتكأ على أريكته صامتاً. زاغَت عيناه في الفراغ الذي بدا مُهشَّماً تحت سقف الغرفة. دار برأسه إلى الأنحاء الصامتة كمن يزِنُ ثقلَ وجوده طيلة أعوام في هذه الدار:

«سيملأُ العَدَم وجودي بعد الرحيل»، قال ريباز ناظراً إليَّ يستجير بصديق يفهم مُكاشفات شخصيته على حقيقتها. أضاف:

- أفضل ما أتمناه هناك، عند رحمة الجبال، أن أنتصِر على القسوة التي نشأتُ عليها. قسوة أُلْبِسْتُها عنوة قسْراً. هي لا تستقيم هنا، في هذا العالم الذي لن نتركه. هذا أفضل تعقيمٍ لي في بلاد الاسكندناف، يا صاحبي.

لم أتوقَّف عن التفكير، حتى، لثانية واحدة، وأنا أقطع المسافة بالترام، من شقة ريباز، عائداً إلى شقتي صباح اليوم التالي: أين سأجدُ مفتاح شقتي؟ كيف ستتصرف المرأة السمراء، وابنتها بيروت، حيال هذا الموضوع؟ ربما ستترك المفتاح لدى مكتب الاستعلامات عند مدخل العِمارة. لا يُعقل أن تترك باب شقتي مفتوحاً. هذا هُراء. لم أتفق معها، في الأمس، وأنا أتنازل، طوْعاً، عن شقتي لها، بارتباكٍ عفوي، أين يمكن أن تترك المفتاح. لم يخطر على بالي، وأنا أضع

مفتاحي في يد الطفلة بيروت، ناظراً إليها، وإلى أمها نظرةَ إشفاقٍ؛ قبول عرْضي الرقيق بلسان القبول الصامت.

كل شيء تم، بيننا، بسرعة، ورضىً. أحْسبُ إنَّ الموقف، ذاك، كان موقفاً مُرْبِكا. لم أتحسَّب، حينها، لتصرفي هذا، أن تُفسِّره المرأة السمراء تفسيراً لا يليقُ بمبادرتي البريئة. لكن بيروت، الطفلة الوديعة، هي الوسيط الآمن لكبح بما لا يليق.

لم يشطحَ خيال الشكِّ، لديَّ، على الأقل، في الذهاب بعيداً إلى شيء دُبِّر بعَمْدٍ، وبسابقِ تخطيط.

الصدفة، أيضاً، أدخلَت أنْفَ فضولها ووضعتْني في هذا الموقف دون سابق تنبيه. لولاها، الصدفة اللعينة، ماكان لي أن أُوْضَع في موقفٍ كهذا، قد أحسِدُ نفسي عليه، لأني قدمتُ خدمة إنسانية لامرأة وابنتها، غريبتيْنِ، كما أنا، وتنازلتُ عن شقتي لهما، من غير معرفة مُسبَقة.

خجلي وارتباكي، لم يسمحا لي، حتى التفكير في أن أترك رقم هاتفي لدى السيدة السمراء، فما بالي لو طلبتُ أنا، رقم هاتفها كي نتفق على إرجاع مفتاح شقتي؟ أين ستترك المفتاح، إذاً، حال عثورها على مفاتيحها، أو تسوية مشكلة فتح باب شقتها بالطريقة المناسبة؟

- جِدْ تبريراً، أو تقديراً لضرورة البرهة المفاجئة التي وضعتَ حالك فيها، في الأمس، وبلا مُقدمات، أو خُطط سبقَت اتخاذ قرار التنازل عن شقتك للمرأة التي كانت في محْنة.

حضر الوسواسُ سليلَ القلق الدُوني. لم ترُقّ له حركتي العفوية في التنازل عن مفتاح شقتي للغريبة السمراء.

تراشقنا، أنا والوسواس، تراشقاً أخرسَ بحجارة الصواب والخطأ.

الوسْواسُ القوَّادُ ألْهَبَ مِزاجي، في الوقت الذي تجمَّد مُتدحرِجاً، سلساً بين لحظة صعودي الترام، حتى لحظة وصولي إلى عمارة سُكناي. أحسستُه وقتاً طويلاً لا يشتهي أن يهدِّأ طيْش مُراهقته.

هو وسْواسٌ نَكِرة يمسك، في تلك اللحظات، بلُبِّ غمغمَةٍ تمورُ في رأسي، من غلاصيمِها، مسكاً عنيفاً تارة، ورحيماً، في الأخرى:

- ماذا، يا تُرى، قالت عنكَ تلك المرأة السمراء بشعرها المبلل من صفعات المطر، وصدرها المهتاج تحت قميصها الحريري الذي لم يسلم من عنف زخَّةٍ ماطرة؟

- هي لم تتقصَّد الأمر. كان الصحو بشمسٍ باذخة السطوع طيلة النهار. لكن، هكذا الأمرُ، أيها الوسواس، بعضُ غيومٍ تتسلل غدْراً، بلا سابق إنْذار. تتمادى على وجود الشمس فتنُثُّ بقرْعٍ أهْوَج ما اختطفتهُ من نعمة ماء الأرض بُخاراً.

المطرُ المفاجئ، مساء أمس، كان شرِهاً، متعطشاً إلى التحرُّش، كما يشاء، بجسد المرأة السمراء الرشيقة، بطولها المتوسطِ، ورَدْفيْها المعْتصِريْنِ تحت بنطالها الجينز الأسود.

كان لا بُد من استسلام ثدييها، أيضاً، إلى بَلَلِ المفاجأة النازلة من حشرجة غيماتٍ طارئات، قرعاً متناطحاً من صدى الرعد.

وسْواسٌ ينطحُ وسواس:

- أتراها انتبهت إلى لحظات قنصكَ السريع لتقاطيع مُشتهاة من لفحِ ارتباكها العَذب؟

- ماهي الفكرة التي ارتسمت أمام عينيها، عنكَ؟

«أشْفقتُ على انذهالها المخْرس، انْذِهالاً مُتطايراً، ببطءٍ حزين، من عينيها العسليتين، وأنا أضع مفاتيح شقتي في يد الطفلة الصغيرة»، أجبتُ السَيِّد الوسواس.

- لماذا خرجتَ مذعوراً، ولم تُطِلِ الوقوف؟ كان على فحولتك أن تُداري أنيَن ارتعاش السمراء، التي حشرَها القَدرُ اللئيم حشْراً غامضاً؟

استمرَّ الوسواس يُكرِّرُ أسئلتَه، هاذِراً بتأكيدٍ من لسان هذيانه، داخلِ رأسي، لغاية وصولي إلى مدخل بناية شقتي.

ولجتُ إلى داخل البناية. ألقيتُ التحية على موظفة الاستعلامات الشابة «كسانْدرا»، فردتَّ بتحية تصحبها ابتسامة مُتعبة . ابتسامة الإثْنين، أول يوم عملٍ بعد يومين استراحة. نقَّلتُ خطواتي ببطءٍ علَّ الموظفة تناديني، إن كان مفتاح شقتي قد تُرِك لديها.

لم تُسفِر بعض التخمينات التي تحضَّرتُ لها فيما يخص المفتاح عن شيء.

وقفت عند باب المصْعد. حضر، بعد ثوانٍ، منزلقاً على أوتارِ حباله الفولاذية السوداء، من الطبقة الثالثة. سحبتُ الباب ببطءٍ متأملاً، لآخر ثانية، نداءً يأتيني من وراء ظهري.

ظلت «كساندرا» على كسلها تُقلِّب بعض أوراق مرمية أمامها على الطاولة. دخلت المستطيل العجائبي الذي ينقلُ ركابه بدقائق مضغوطة بعد كبس على زر الرقم المطلوب. فتحت باب المصعد متجهاً إلى شقتي. وقفتُ لثوانٍ متلهفاً لسماع أغنية «وحْدُن».

هدوء يُطبِقُ غيومه، بصمتٍ مرعبٍ، على كيان الساكنين البناية. عشر خطواتٍ تبعد شقتي عن باب المصعد. لمحتُ، من أول خطوة، وأنا أنظر إلى باب شقتي: ثمة ورقة مُلصقة على الباب. أسرعتُ خُطاي، بارتباكٍ. قرأت ما كُتب على الورقة: «تحياتي. المفتاح في شقة 12 الطابق الثالث». انتزعْتُ الورقة. طويْتها واضعاً إياها في جيب بنطالي.

ركضتُ إلى الدرج متسلِّقاً، بخفة، إلى الأعلى، متجهاً إلى حيث الشقة المعنية في الورقة.

وقفتُ صامتاً أمام الباب. ارتباكٌ عجيب أصابني. هي نفس الشقة التي تسللت إليها، قبل أيام أتتبَّع مصدر أغنية فيروز. أأكون أخطأتُ الشقة؟ هو الرقم نفسه يلتمع على الباب عند الزاوية العليا، يساراً.

طرقتُ الباب، بخفة، طرقات ثلاث. انفتح الباب. كانت بيروت تبتسم برشاقة طفولية ساحرة. تبعتها السمراء واقفة خلفها:

«يسْعِد صباحكَ»، قالت السمراء.

«صباح الخير»، قلتُ رغم أن الساعة كانت بحدود الثانية عشرة.

«تفضل»، قالت السمراء تُزيحُ ابنتها مُفسحة المجال لدخولي.

- لا أُريد أن أُزعجكم. أتمنى أن كل شيء مضى على خير بالأمس.

«بفضل موقفكَ النبيل، أستاذ، كل شيء على خير. أجابت السمراء، وهي تُشير إليَّ بيديها أن أدخُل.

لا تختلف شقتها عن شقتي. كل الشقق بتصميم واحد في البناية. الفرق في تفاصيل الأثاث لكل ساكن: صالة صغيرة بمطبخٍ متواضع. طاولة مستديرة بأربعة كراسٍ. لا صور أو لوحات على الحائط، عدا مُلصق واحد بالأسود والأبيض لثلاثة شبان يبتسمون بثقة، بملابس عسكرية، وبنادق كلاشنيكوف، واحدة، على كتف كل منهم.

كانت أكفُّهم الأيامن فوق بعض علامة قسَمٍ على اتفاقٍ منذورٍ لا عوْدةَ عنه.

نظرتُ بتمعُّنٍ مُدهش إلى الأشخاص الثلاثة في المُلصق. لم يخطئ ظني أنهم ثلاثة فدائيين.

انتبهت الطفلة «بيروت» إليَّ، أُمعِنُ النظرَ إلى المُلْصق، وهي جالسة بقُربي، حول الطاولة المستديرة، بينما السمراء في الغرفة الثانية.

«أتعرفهُم؟»، سألتْني بيروت، وهي تُشير إلى المُلصق الكبير للفدائيين بملامح عربية واضحة، لكن بسحنات وجوه تتوزَّع بين البياض الخفيف والأسْمر الحنطي.

«لا»، أجبتُ بيروت الطفلة الرقيقة بعينينِ سوداويْنِ تقفزُ منهما براءة ساخنة.

- هؤلاء أبطال. فدائيون، أوضحت بيروت، الطفلة البريئة.

خرجت السمراء، بعد أن غيَّرت بيجامتها مرتدية فستاناً فضفاضاً أحْمرَ بلا كُمَّين، كشف عن ساعدين بضَّين، مشْدودين. لملمت شعرها الأسود ربْطاً بشريطٍ عريض مورَّد.

«شرفتْنَا»، قالت السمراء.

شكرْتُها على ترحيبها. مسكت بركْوَة القهوة. ملأتْها ماءً، ووضعتْها على الفرن.

وقفت السمراء خلف بيروت واضعة كفيها على كتفي الطفلة. نظرت إلي، ثم إلى الملصق. استدارت. أخرجتْ علبة القهوة. فتحتها. تطايرت رائحة البُن المهيَّل:

«ما قهوتك؟»، سألتْني السمراء.

«ما زلتِ، كما يبدو، محافظة على تناول القهوة العربية، يا أم بيروت»، قلتُ للسمراء.

«أكيد. أنا لا أستسيغ القهوة السويدية»، أجابتني السمراء.

- لا بأس. أنا أشربها على ذوْقِكِ. لا فرق عندي، سيما أنا لم أتناول القهوة المهيَّلة منذ زمن طويل.

«القهوة تُحضَّر حسب مزاج شاربها واستطابته لها. هناك من يشربها مُدوَّخة بقليل من السكر فيسمونها «قهوة وسط»، أو من دون سُكَّر «قهوة سادة». أجابت السمراء على عدم تحديدي طبيعة قهوتي. أضافتْ:

- لا مُجاملة على شرب القهوة، ياجارنا اللطيف. ما قهوتك. لا تتْحرج؟

«أنا أفضلها سادة، من دون سكَّر»، قلتُ لها.

- أتُحبَّها بوجه أم من دون وجه؟

ارتبكتُ بِمَ أُجيبُها. سألتُها:

- ما الفَرْق؟

- قَصْدي، أتُحبها برغوة البُن طافحةً على سطح الفنجان أم من دون؟

- ابتسمتُ لها ابتسامة العارفِ بأسرارِ رُغى البُن:

«أتقصدينَ موجة من زَبَد البُن طافحة من قهقهة البُنِّ مُذوَّباً بالماء؟».

ضحكت السمراء على فذلكة الشرح المُضاف من عندي على إيضاحها لوجه القهوة.

- بالضبط. زُبدة البُن الطافحة قبل أن تغلبها فورة مفاجئة.

«لا بأس. أشتهي سُلاف البُن، عزيزتي أم ......»، قاطعتْني قبل أن ألفظ اسم ابنتها بيروت. استدارت نصف استدارةٍ. قالت:

- أنا سارا. اسمي سارا.

«تشرفتُ»، قلتُ.

وضعتْ سارا، فنجانين صغيرين على الطاولة. دلقت لي من ركوة القهوة في فنجاني، ولها أيضاً.

«ليست غريبة عني أجواء شرب القهوة عند أهل الشام، في الأخص صباحاً، مصحوبة برقة صوت فيروز»، قلتُ لسارا أجاملُ كرمها في قهوة أصيلة. «إنكُم تطبخونها على نار هادئة. أما ما يخصُّ مدائح الفناجين وهيبتَها وترفَها فيتغزَّلُ بها ويُحاورُ قهوتها كلُّ حسْبَ مزاجه، أنتُنَّ النسْوة على وجه الخصوص، لذا أعتقد أنكِ لا تُفضلين قهوة السويديين، فتأتين بِبُنِّك مُحمَّصاً، مُهيَّلاً، جاهزاً في أكياسٍ ورقٍ مُلوَّنة. أهل الشام يؤمنون بأن قهوتهم تأتي محمَّلة بالبَخْت فيستمتعون بتفسير ما يتبقى من البُن في الفنجان بعد قلبه في صحنه كي يسيح

الثُقْلُ المُركَّز في القعر على سطح الصحن، ثم يُرفع الفنجان، ويُفسَّرُ مما رسمه من خربشاتٍ، أتُوافقينني رأيي هذا، يا سارا؟».

ابتسمت سارا ابتسامةً ارتخت لها شفتاها علامة امتنانٍ وإعْجاب، موسِّعةً بين جَفْنيْها العريضَيْن، بلا تشْذيبٍ، كاستحسانٍ على كلامي. أضافت إلى قوْلي تأكيداً:

- مثلما تفضلت حضرتك. لأهل الشام تقاليد مميزة في شرب القهوة. امْدَحْها كما تشاء. شكراً على إطْرائك الرومانسي، أنا أفضِّل شرْب القهوة المُهيَّلة، وأشْربها طافحة برغوتها.

اختفت الطفلة بيروت، مع ألعابها في الغرفة الثانية من دون أن أنتبه لها.

جلست سارا قُبالتي. دغدغة أغنية «وحْدُن» تُناكفني. هل أسألها؟

قفزت سارا إلى آلة تشغيل أشرطة الأغنيات والموسيقى. كبست على زر التشغيل. دارت أغنية «وحدن»، من دون مقدمات. عادت وجلست.

ابتسمتُ ابتسامة هادئة بوجه سارا. نظرتْ إليَّ نظرةً وشَحتْها بِبَسْمة خجولة. رشفت من فنجان قهوتها.

«أتُحب فيروز؟»، سألتْني سارا.

- مَنْ مِنْ أبناء الشرق، بالذات أبناء وبنات بلاد الشام المهاجرين إلى بلاد الصقيع، لا يُحب فيروز؟ أو لا يشربُ قهوة الصباح إلاَّ ويكون طعمها مُرافقاً لنديم صوتها، صوت هديل الحسُّون والكناري، عبر المذياع أو من خلال تدوير بكرات أشرطة الغناء والأقراص الرقيقة المُمَغنطة، التي نافستْها لاحقاً، وبخاصةٍ في صباحات شتاء المنفيين

والمهاجرين العَكِر، الثقيل، المغمضُ بظلامه وبرده، فيخفِّفونَ محنةَ شتائهم ويُروِّضونه، مَجازاً، بوداعة صوت فيروز، يطلقونهُ، عذباً، قبل قرقرة رغوة البُنْ في دلَّة القهوة، تَنْضجُ فَوْحاً، في حنوٍّ؟

كان سؤال سارا فرصة تأتَّت لي، الآن، كي أجد مدخَلاً لمعرفة سبب تكرار أغنية «وحدن». أضفتُ إلى إطرائي على متعة سماع أغاني فيروز:

«أحبُ سماع معظم أغانيها، عزيزتي سارا، وليس أغنية واحدة، لكنني لا أُحب سَماع ألأُغنية الواحدة أكثر من مرة في وقت واحد، لأي فنان كان»، أجبْتها تنبيهاً لتكرارها هذه الأغنية التي دوَّخت كياني كل يوم وهي تُسْمَع في أرجاء البناية.

«إلاَّ هذه الأغنية، بالذات»، أجابتْني سارا كأنها تؤكد على أغنية «وحدن».

رفعت سارا رأسها ناظرة إلى الأشخاص الثلاثة في الملصق الذي على الحائط:

«أغنية «وحدن»، كُتبت عن هؤلاء الأبطال الثلاثة»، قالت مشيرة إليهم بتدويرٍ من سبابتها اليمنى.

فاجأتْني سارا بهذه المعلومة. موَّهْتُ التفاجُؤَ بسؤالٍ سريع:

«أتعرفيهُم؟ هل التقيْتِهم؟»، سألتُها بعد أن راق المزاج، قليلاً، ولانَ حديث المجاملات بيننا.

- هؤلاء أبطال عملية الخالصة التي نفذوها في مستوطنة «كريَّات شمونة» الإسرائيلية.

وقفتْ سارا. اقتربت إلى حيث ملصق الفدائيين على الحائط. أشارت إلى الشخص في اليسار:

«هذا المقاتل منير الفلسطيني، وهذا، في الوسط، المقاتل السوري أحمد، أما المقاتل الثالث فهو ياسين العراقي، من بلدك».

«كيف عرفتِ أنني عراقي؟»، سألتُها.

- تطفر لهجتك العراقية بعِناد رغم مُحاولتك التحدث بلهجة بلاد الشام، يا عزيزي. لهجتكُم معجونة في دمي. الفدائي ياسين كان ينطقُها بلسان أهل الجنوب بطريقة ساحرة، أجابت سارا بشيء من التأثر.

كَطَبْعي الدائم، السريع، إن قرأتُ علامات حزنٍ، أو تحسُّرٍ على أي شخص، أُحاول، سريعاً، تلطيف، أو تغيير سياق التأثُّر بليِّه وإبعاده عن جو المحادثة.

فكرتُ أن أسأل سارا إن كانت، هي وابنتها، قد أمضتا ليلة مُريحة في شقتي. هي لم تتطرق إلى ليلتهما تلك في شقة رجل غريب. لمحتُ مفتاح شقتي على الرف الوسط لمكتبة من أربعة رفوف مستطيلة، صُفَّت عليها بعض كُتُبٍ.

التَقطَت سارا ملامِح فضولي وأنا أنظر، من بعيد، أسْتَبين عناوين بعضها. لم تتأخر سارا في تليين فضولي هذا. قالت:

«ما لديَّ من كُتُبٍ لا تُساوي عُشْر ما لديك من كُتُبٍ رائعة ومُدهِشة في شقتكَ»، قالت سارا. أضافت:

«سمعتُ أن شاعراً عربياً يسكنُ عمارتنا هذه، أأنتَ هو؟». رمت سارا سؤالها مُوسِّعة عينيها البُنِّيَتَيْن، كأنها تتأملُ رداً إيْجاباً على سؤالها.

ضحكتُ بخجلٍ أُلَمْلِمُ به ما تبعثرَ من حروفٍ تصاعدت من نبضات قلبي، مُتلاطِمةً على جرف لساني. حاولْتُ أن أُجيب سارا جواباً أقرب إلى الحقيقة منه إلى المجاملات:

- لستُ شاعراً، كما سمِعْتِ. قد أكون مِمَّن يهتمون بالشِّعْر، والأدب بشكل عام. لي محاولات في كتابة الشعر، لكني لم أنْشُر ديواناً لحد الآن.

«هل يُمْكِن أن يتعرَّضُ شاعر ما للمُحاكمة، لمجرد أنه شاعر؟»، سألتْني سارا، ثم أضافت: «استوْقَفَني، بلا فضولٍ مني، كتابٌ كان على طاولة مطبخِكَ، يخص شاعراً روسياً حوكِم بتهمة كتابة الشِّعْر».

التقطْتُ سؤالَ سارا بلا استغرابٍ. تذكَّرْتُ أني كنتُ أقرأ، يومَ أمس، في كتاب: «محاكمة برودسكي»، الشاعر الروسي.

«تقصدين «برودسكي»، أليس كذلك؟» سألتُ سارا، بعد تأْكيدٍ، أنها رأت الكتاب الذي تركتُهُ على الطاولة في مطبخ شقتي.

«ذُهِلْتُ، فِعْلاً، من محاكمة الشاعر برودسكي. قضيتُ الليل، تقريباً، حتى الصباح، وأنا أقرأ في الكتاب. لقد تَركَ لديَّ أثراً مُفْزِعاً. أرجو أن لا أكون قد تطفَّلْتُ عليك. كان الكتابُ يحتوي على بعض من تعليقات مُثيرة على هوامشه. أفتَرِضُ أنها تعليقاتُك»، قالت سارا ببعضٍ من إحراجٍ ارتسم على وجهها.

«لا بأس. وجدتِ، على الأقل، ما يُسْعِف قلقُكِ لحادثة أمس في فقدانك المفاتيح. محاكمة الشاعر برودسكي، ربما، هي أول محاكمة في زماننا هذا»، أجبْتُ سارا بسلاسة، دون اعتراضٍ يجعل قراءتها الكتاب تطفُّلاً منها.

«كان أمراً مُفْزِعاً فقداني مفتاح شقتي. لقد حصلتُ على بديلٍ من موظفة استعلامات البناية. استنسختُ ثلاثة مفاتيح كي أحتاط للأمر مستقبلاً»، قالت سارا. أضافت:

«هل نعيشُ حالة من الخيْبَة، يا أستاذ؟»، سألتْني سارا وهي تدْلقُ، من جديد، القهوة في فنجانيْنَا، بعد تجديدها.

- اسمي هرميتس، يا سارا. لا داعي لمناداتي بالأستاذ، رجاءً. هذه الصِفة تُربِكُني. لا أحبها.

«كما تشاء عزيزي هرميتس»، أجابتْني وهي تُداري رجائي. قفزت إلى غرفة المنام، وعادت ببعض أوراقٍ حُفِظَت بمُغلَّف بلاستيكي شفاف. جلست. سحبت الأوراق من المغلف:

«نقلتُ بعضاً من فقرات استوْقفتْني في كتاب المحاكمة، وعادت بي إلى سنوات مضت من حياتي. رجرجت، في روحي، جَدَلاً يمورُ في عقلي: هل نحنُ، الذين أضطُرِرْنا لمغادرة بلداننا، نعيشُ الخيبة، هنا، خيبة الفقدان؟»، استرسلت سارا، قافزة من سؤالها، تقرأ فقرة استلتْها من الكتاب: «عندما نغادر البلدان التي طُرِدْنا منها، تصبح الخيبة عنصراً في الوجود، وتَقِل حماستنا الحيوية التي تحتاجها المشاريع الكبرى».

توقفت سارا عن القراءة. رفعت رأسها تنظر إليَّ مُتأمِّلة تعليقي على ما قرأتْ.

رمَيْتُها بنظرة صامتة، متأنية. رفعتُ فنجان قهوتي مرتشفاً القليل المتبقي فيه. دوَّرتُ سبابتي نصف دورة على شفة الفنجان. غطَّيْت الفنجان بصحنه، ثم قلبْته، وأعدتُه إلى الطاولة.

رمَتْ سارا فنجاني المقلوب في صحنه بابتسامةٍ. ساد صمتٌ، لا خِلافَ عليه بيننا، كما بدا لي. صمتٌ تعمَّدتُ، عبره، أن أُوصِلَ لها بعض تحسُّرٍ، وارتباكٍ من غصَّةٍ غائرة في مرآة الروح.

«لا أُحبُ أنْ أُجيب، على سؤال كهذا، بِنعَم أو لا، يا سارا. هذا السؤال بحاجة إلى التأمل. بعض الأسئلة تحمل افتراضات مُقلِقة بين الشك واليقين».

وكَطبْعي ـ طبع عدم استساغة المماحكات مع إمرأة جميلة، لا أُحبِّذُ سؤالاً يستفيقُ منه جواب يستولِدُ سؤالاً آخر، وهكذا. أفضِّل أن ألجأُ إلى لَيِّ الحوار ونقله إلى الانعطاف نحو ضفةٍ إفتراضية أخرى.

نظرتُ إلى فنجاني، نظرة خاطفة، ثم إلى سارا بابتسامة يُدغدِغُها الحَرَج، والرغبة في لُعبة قراءة الفنجان.

رفعت سارا فنجانها ضماًّ براحَتيِّ يديها شَبْكاً، كأنها تشْتهي دغدغةَ دفءِ القهوة. حشَرتْ حافة الفنجان بين شفتيْها الحُنْطيَّتيْنِ، المكتنزتين شهوةً، والمحنَّاتين بِسَمارٍ ربَّاني. ارتشفتْ، ببطْءٍ أخْرَس، قطراتٍ من بقايا قهوتها. نظرت إليَّ نظرةً بتقطيبٍ خفيفٍ بين حاجبيها السوداوين، العَريضيْنِ؛ نظرةً مُخفَّفة بابتسامةٍ، علّقَت على مشجبها أسئلة لا تشتهي إجابة عليها.

صمْتي الداخلي سألها، من عينين، بلا لفظٍ:

- مَنْ يكون هذا الغريب الجالس أمامكِ؟ هل الصدفة جعلت رجُلاً لا يمتُّ إليكِ بصلةٍ، أن يجلسُ قُبالتَكِ في شقتك، مع طفلتُكِ؟

كانت نظراتها مُندهِشةً، شبه مُنسرِحة. لم تبعث فيَّ رغبة عاطفية. نظرة شِبه باردة تتدفَّأ من دفءِ الفنجان.

لا أتحمَّل النظرات الجامدة، بتركيزٍ صامت، من امرأة. إنها تُذكِّرُني بنظرات القطَط المشْبوهة.

تتبَّعْتُ، بفضولٍ أخرَس، حركة خفض يديها بالفنجان مع حركة عينيها اللتين دلَّتا الفنجان إلى موقعه الصحيح. لم يرتطم الفنجان بصحنه. أعادتْه إلى الطاولة مقْلوباً على صحنه، كما فعلتُ أنا مع فنجاني. جلسَ أخرسَ كفضولي الأخرس.

أشرتُ، دون أن أنظر، إلى مُلْصَق الفدائيين الثلاثة:

- كنتُ هناك، يوماً، يا سارا.

«أين؟»، سألتْني سارا باندهاشٍ طفَرَ من وجهها المدوَّر الصافي، إلاَّ من شامةٍ صغيرة تحت أذنها اليسار.

- هناك، حيث كانت بيروت، يوماً، بيروت.

قفزت الطفلة بيروت آتية من غرفة المنام. أطلَّت برأسها باسمةً:

«هل ناديتما عليَّ؟»، سألت بيروت وهي توجه نظرتها إلى حيث تجلس أمها.

«لا، حبيبتي. كنا نحكي عن مدينة بيروت، يا مدينتي الحلوة»، أجابت سارا طفلتها.

عادت بيروت تنشغل بألعابها.

«هل تُحْسنين قراءة البَخْت، يا سارا؟ هل فعلتِ، سابقاً، الأمرَ مع غريب مثْلي؟»، سألتُ سارا.

قهقهت سارا بحشرجةٍ خفيفة.

«ما أحْسَنَك»، أجابت. أضافت:

- هل تؤمِن بالحظِّ، يا هرميتس؟ أنا لا خبرة لدي في قراءة الفنجان. أفضِّل أنْ يُقرأ لي فنجاني، لكن لا بأس هي نوع من التسلية. هي بِدْعَة، تسلية باسم الخُرافة.

«أعْجبتْني كلمة خُرافة، يا سارا. لكن لا بأس، لرُبما نعثر على بعض حظوظٍ في الفنجان»، قلت لسارا سعياً أن أُطيل الجلوس معها.

بدأتُ أكتشفُ، في شخصية سارا، أنها إمرأة غير مُمِلَّة، ولها بعض اهتماماتٍ بشؤون قريبة من مزاجي الثقافي.

مسكتْ سارا بفنجاني. دوَّرَتُه بين أصابع يدها اليسرى. ركَّزتْ تُبصِّرُ بجَدٍّ، أو تسلية، في الحظوظ. دوَّرتْ عينيها تستجلي غيْبَ المعاني في التعرُّجات الحِيَلِ.

نظرتها إلى باطنِ الفنجان شعَّت منها ابتسامة ذابت مُتسلِّلة بتهذيبٍ ناعم إلى ما تتأمَّله، وهي تستجمعُ ما سترسمه لي بكلماتٍ، أو إشاراتٍ، من وهجِ عينيها على ما ارتُسِم من خربشات لبقايا ثفْل البُنِّ على جدار الفنجان الأخرس. تتحنحتْ:

«سَمَك. حَشْدُ سمكٍ يتناطح مختنقاً من لُجَّة الماء. سمك ينوي الانتحار، يا هرميتس. أنت مُقبل على مفاجآت سارَّة، كما يبدو، في قابل أيامك. السمك بُشرى خير دائما، أضافت سارا».

«صيدُ السمك من هواياتي الباردة، يا سارا. ما الناقِصُ في بَخْتي؟ أعْني أثمتَّ نداءٌ، غير نداء السمك يرتجيني؟ لي فضول أن أعرف»، قلتُ لسارا كَمَنْ مُصدِّق كشف الغامض في قعر الفنجان.

أعادت سارا فنجاني إلى صحنه. نظرت إليَّ بحنوٍّ بريءٍ تتمحَّص بنظراتٍ صامتةٍ خجَلي الذي وتَّرَ عضلات وجهي.

قرَّبت سارا وجهها أكثر إليَّ تستقرئ الاحراجَ من طلبي الساذج. تكشَّفَت، أكثر وضوحاً، خطوطَ تجاعيدٍ رفيعة من جهتَيْ عينيها تحت حاجبيها الأسودين العريضيْنِ.

منذُ متى كنتُ أصدِّق بهذه الخزعبلات؟

شممتُ رائحة أنفاس سارا الرطبة. خفتُ. أرجعتُ ظهري مستعيداً اتكائي على ظهر الكرسي الخشب.

«عليكَ أن تطردَ أشباح المحكمة من شقتك، يا هرميتس»، قالت سارا، بلا تردُّدٍ، وببعض الجدِّ في طلبها.

- أهذا ما أنبأَكِ به بختي في الفنجان، يا سارا؟

«دعك من خُرافات التبصير، يا عزيزي»، أجابتْني سارا، ثم أضافت: «أنا أتكلم بجدْ».

- لم أفهم قصدك، يا جارتي العزيزة، عن أي محكمة تتحدثين؟

«محكمة، حضرتها، ليلة أمس. محكمة ومُحاكمة»، أجابتْني سارا. أضافت: «كنا معاً، ليلة أمس، أنا وأنت، في المحكمة. أنت كنت المدوِّن لما دار في الجلسة. لم يكن لك شأن في القضية. مجرد مُنتدب لتدوين أقوال الشهود والجاني، والمجني عليهم».

ضحكتُ من فذلكة سارا المفاجئة. نقَّلتُ بصري بين الفنجانين على الطاولة. مررتُ بنظراتِ مُزاحٍ واضحة على محتويات المطبخ. عدتُ أتطلّع إلى سارا أستجلي استدارتها انتقالاً إلى موضوعٍ غريب لا صلة له بكل ما يربط معرفتنا ببعض خلال ،يوم وليلة.

استمرأتُ اللعبة، كما بدت لي طريفة.

سألتُ سارا:

- وأنتِ، يا سارا، ما دوركِ في محاكمة أمس؟

«أنا كنتُ من المشتكين. كنت ضمن بعض أشخاص مظلومين، من الحاضرين».

«من الجاني، يا سارا، ما اسمه؟».

«القَدَر»، أجابت سارا بصوتٍ غلَّفتْه بشيء من السخرية.

- من المجني عليهم، إذاً، طالما هناك جانٍ؟

«نحنُ»، أجابت سارا تُشيرُ إلى نفسها ثم إليَّ بتأكيدٍ من سبابة يدها اليمنى.

«أثمت شهود كانوا حاضرين الجلسة؟»، رميتُ سؤالي على سارا بشيء من السخرية المرَّة، مُدْرِكاً استعارتها المحكمة، ربما، للمصير الذي قادنا إلى هُنا.

«نعم، ثلاثة شهود رجال، أكَّدوا على ما فعله الجاني بنا بأدلَّة لا يُمكن دحْضُها»، قالت سارا تأكيداً، ببداهة لا جدال فيها.

«هل تعرَّفتِ على الشهود؟ هل تعرفينهم سابقاً؟»، أعدتُ سؤالي على سارا استناداً إلى إصْرارها على وجود شهود حقيقيين بأدلة ملموسة لديها، لا تقبل الدحْض.

«نعم أعرفهم»، أشارت إلى مُلصق الفدائيين الثلاثة المعلَّق على حائط المطبخ.

- لِمَ اخترتِ الفدائيين الثلاثة، هؤلاء، كشهود في قضية عامة، غير معروف فيها الجاني، على حقيقته قائماً، يمكننا رؤيته، والتحدث معه، أو مسكه ووضعه في قفص الاتّهام، يا سارا؟

«هؤلاء الأبطال الثلاثة يعرفون الجاني على حقيقته. هم خطفوه، واختاروه، بقناعة تامة كدليلٍ إلى الشهادة، ومُتَّهَم، أيضاً، يا عزيزي الشاعر هرميتس».

ردَّت سارا على استفساري بجوابٍ مطحونٍ، أخرجته من أعماقها حفراً بفوهة بندقيةٍ، تعبيراً عن مُقايضة أرواح شبَّانٍ ثلاثة بعملية فدائية كوعيد للمحتلين: إننا هنا نقضُّ مضجعكم متى نشاء.

- لكن، يا عزيزتي سارا، هؤلاء الشبان الثلاثة أصبحوا في عِداد الموتى، فكيف تنتدبينهم شهوداً على قضية معقَّدة، لا برهان فيها لتحديد المتسبب الرئيس في مصير الكثير من البشر؟

- هُم يرون ما لا نراه. شهادتهم لا تقبل الدَّحض، لأنهم موتى. كل شيء يبدو، من الأعلى، أكثر وضوحاً. هم يرون ويشخِّصون الأشياء أفضل بكثير ممَّا نراه نحن، هنا تحت، بأعيننا.

«كيف انتهت المحاكمة، يا سارا؟، أنا لا أتذكر خاتمة الجلسة، هل كسبناها لصالحنا؟»، سألتُها مستعيداً بخيالي صوراً من أجواء محكمة على حقيقتها، كمن دخل طقساً جاداً في ما سورت به سارا جلستنا الصباحية تلك.

- ما زالت المحاكمة قائمة. تأجلت جلسة ليلة أمس، إلى ليلٍ آخر، حسب المزاج، وحسب القَلَقِ الذي ينتابُ الجاني، وتنبؤات المجني عليهم. المحكمة منحت فرصة جديدة للجاني لتقديم مبررات جريمته، التي لا يعتبرها جريمة مع سبق الاصرار، لكن بترصُّدٍ فضولي غير مقصود. سأعلمك، في الوقت المناسب، يا هرميتس، حين أُبلَّغ بموعدها. أنْتظرُ تبليغاً من السيدة «طَيْف».

- السيدة طيف؟ من تكون هذه المرأة، يا سارا؟

- القاضية اسمها طيف، يا هرميتس.

«أنتِ مجنٍ عليها، فقط، يا سارا. ما علاقتكِ بالقاضية، إذاً؟»، رميتُ سؤالي عليها ببعضٍ من تعجُّبٍ، وفضولٍ جادٍّ، أملاً في مسك بعضٍ من خيوط حظها العاثر الذي رماها هنا.

- لأني أتيتُ بشهود يملكون برهاناً ناقصاً كوجودنا الناقص، هُنا. الشهود يعتقدون أننا، في هذا العالم القلق، بإمكاننا أن نُكمل البرهان على إثبات الحقيقة، لكن القاضية لم تُعلن صراحة اسم الشخص الذي أتى بالشهود إلى المحكمة، خوفاً على مصيري، لذا وعدتْني أنها ستبلغني بموعد كل جلسة جديدة. عدم وجودي يعني عدم وجود شهود.

- ولِمَ لا تنعقد المحكمة إلاَّ ليلاً، أيتها الشاهدة المتفرجة المنتظرة حُكمَ قضية لا نهاية لها، كما يبدو، يا سارا؟

«الأمر سيَّان بالنسبة للشهود فيما يخص الوقت»، أجابت سارا تُشير، مرة أخرى، إلى ملصق الشهداء الثلاثة: هؤلاء متوحدون مع الزمن. الليل والنهار، في عالمهم العَدَم، هو واحد. المشكلة عندي أنا. هُم يزورونني ليلاً، ثم، ألا ترى أننا نعيش في عالم تكتنفه العَتْمة أكثر من الإشراق، يا هرميتس؟ هنا، يختلط علينا الأمر حيث لا عَدَم، لا توحُّدَ للزمن. الوقتُ مَزاجيٌّ على الأرض. الزمنُ دوَّارٌ، والمصائر تتبعه. زمنُنا ذو مقالب، لا وحْدة له».

بدأتُ أختنق. كنتُ بحاجة إلى سيجارة اطفئ بها حرقة الحوار الفنطازي بيني وبين سارا.

نظرتُ إلى الملصق. رجَّت ابتسامة الفدائيين الثلاثة، وهُم يتصافحونِ بثقة، أعماقي. أحسستُ برائحة احتراق في جوفي. كنت بحاجة إلى أنفاس دُخان تُهدئ من روْعي، لأعرف لِمَ قادتني سارا، بلا مُناسبة، إلى أجواء محاكمة، جانٍ، ومجني عليهم، وشهود أموات، أحياء؟

افتعلتُ حركةً مقصودة. تحسستُ علبة الدُخان في جيبي. أخرَجْتها. فتحتُ العلبة. شممتُ اللِّفافات بهدوءٍ مؤدب. أعدتُ العلبة إلى مكانها.

- أتُدخِّن، يا جارنا العزيز؟

«أحياناً»، أجبتُ سارا. «عندما تنتهي جلسة المحاكمة، وأترك محاضرها بين يدي القاضي، أهرع، بسرعة، للتنفيس عن غضب المماحكات في صالة المحكمة بتدخينِ لُفافة يُطوِّقُ تبغها غضبي، ويُرْخي ما تراكمَ من غضبٍ، أو استفزازٍ طوَّقتني به مماحكات وحِجَج تُناور غريمتها الحِجج، ولا أمْر حاسماً في ختام الجلسة التي تُدفعِ إلى التأجيل هروباً مؤقتاً في نصيب نهائي بين الجاني والمجني عليه»، ضحكتُ بوجه سارا وهي تُصغي إلى تبريراتي بعينين اتسعت حدقتاهما، محاولة ترطيب جلستنا.

قفزت سارا إلى خزانة من خزانات مطبخها. فتحته وتناولت منفضة، وعلبة كبريت صغيرة. وضعتهما أمامي، على الطاولة:

«تفضل، خُذ راحتك»، قالت سارا.

- لا يجوز، يا عزيزتي. التدخين في الشقة يُعكر مزاج الهواء النقي فيها، ثم لا أريد أن أُزعج طفلتك بيروت بدُخاني. لا بأس، لابد أن أُغادر الآن، سأُدخن خارج البناية.

«لا عليك»، قفزت سارا وفتحت دفَّة شباك المطبخ. عادت وجلست في محلها قبالتي:

«دخِّن»، قالت. «أنا بحاجة أن أتنشق بعضاً من دُخان سيجارتك».

- أتُدخنين، يا سارا؟

«لا، لستُ مُدخِّنة»، ردَّت سارا بتأكيدٍ. فتحت فمها. أشارت إلى صفِّ أسنانها اللاهجة بياضاً، أنها لا تعبثُ بالدُخان.

«أستطيبُ دُخانَ التبغ مُتطايراً، أو الجلوس مع المدخنين. أتلذَّذُ برائحته مُعشَّقاً بأنفاس الآخرين فاشتنشق ما يتطاير من أنفاسهم بلهفة المُدْمِن».

«أتفضلين أنفاس دُخانِ ذكر أم أُنْثى، ياسارا؟»، رميتُ استفساري بشيء من الدعابة.

«الأمرُ سيَّانَ عندي. لا دُخان ذكوري، أو أنثويٌّ، يا هرميتس»، أجابت سارا بشيء من الجدِّ.

- أنا أختلف معك. دُخان أنفاس الأُنثى أشهى، وأكثر رقَّة، يا سارا؟

لَجَمتْ سارا تعليقي بصمتٍ مقلِّصة ما بين عينيها، فأعَدْته إلى حيث أخرَجْتُه من علبة الطرافة، أو، ربما، أخطأتُ التقدير في رميه بلا تقديرٍ مُسْبق، مُغلَّفٍ بإيحاءاتٍ جِنْسيَّة.

أبديتُ إصْراراً في عدم التدخين في شقة سارا:

- لا بأس يا سارا، ربما يتكرر لقاء اليوم بيننا، في فضاءٍ أفضل للتدخين.

لم أشعر أن الظرف مناسبٌ لأشرح لسارا مزاجي في التدخين، إذ أفضلُ نكهة الدُخان عارياً، حُراً، طرياً، في عبوره من فمي مرتطماً

بالرئتين، دون تطفُّلٍ على من يُزعجه دُخان سيجارتي، فربما يلعنني في سرِّه.

أخافُ اللعنات المُستترة. أحبها تُقال في وجهي صراحةً، مثلما أُتلذَّذُ بحرقة التبغ يولولُ مُستطاباً بصمته. أتلذذُ بجروح الدخان دون أن يجرح الآخرين، من غير المدخنين، لذا أبحث عن فضاءٍ عارٍ، مُطلق، تُذوِّبُ فيه أنفاسُ دُخان زفيري بغمضة عين.

افتعلتُ، أمام سارا، حركة من يدي، أن تجلُب لي المفتاح.

قفزت سارا إلى المفتاح المرمي على الرف:

«تفضل، قالت. موقفك لا يُنسى، يا جاري الطيب. امتناني بلا حدود. أتمنى أن أستطيع رد الجميل بأقرب وقت.

«لا. ليس من داعٍ للإمتنان»، قلت لسارا وأنا أهم بالخروج.

وقفت عند مدخل شقتها حذاء المشجب الخشبي للملابس، بجانبه مرآة بيضوية كبيرة. قفزت بيروت، الطفلة الوديعة، خارجة من غرفة النوم. وقع نظري على صليب خشبي، داخل الغرفة، غريب الشكل أثار انتباهي، عُلِّقَ بزاوية منحرفة، جزؤه الأفقي تمتد يدا يسوع عليه في هيئة قوس ، أما العمودي، فرأس يسوع المصلوب إلى الأسفل وقدماه إلى الأعلى، بجانب رفٍّ صُفَّت عليه مجموعةَ صُورٍ مؤطَّرة لم تتوضح لي ملامح أشخاصها. خمَّنتُ أن يكون المسمار مرخياً، فانحرفَ الصليب، ولم تتنبه سارا للأمر. يسوع المصلوب على صليبه الكبير، بحجمِ 10 سم طولاً، و5 سم عرضاً . تقديرٌ تقريبي من أول نظرة لي إليه. أما الخِرْقة التي تحجبُ ذكورته، شبة منتفخة، شبه محلولة عن عقدتها. قدما يسوع تستريحان على سلَّة من القَش، في أعلاها رأس تُفَّاحة. تصورتُ أن الصليب قد قُلِب دون قصْدٍ.

التقطَت سارا نظرتي الخاطفة إلى الصليب. تمعَّنت فيَّ تستجلي استغرابي، ربما. أعادت التحديق إليَّ بابتسامةٍ قلَّبت فضولي الآسر. لم تُبدِ أيَّ تعليق. غمْغمتُ، استفساراً، بلا نُطْقٍ، ناظراً إليها، وإلى الصليب في وضعه الغريب.

صافحتُ سارا شاكِراً، وربتُّ على رأس بيروت. فتحتُ الباب، وقبل أن أخرج، رميتُ على سارا، أشارة، من يدي اليمنى إلى الصليب انبِّهها أن تُعيد تعليقه بشكله الصحيح.

«لكلٍّ صليبه، يا جاري العزيز»، قالت سارا مُبتسمة ابتسامة عريضة من شفتين زادهما الجفاف رؤنقاً.

- سأُخبرُك بموعد الجلسة القادمة للمحاكمة، يا هرميتس.

مشيتُ منصرفاً، أقطع الممر نزولاً إلى شقتي. استدرتُ متوقفاً:

«أتمنى أن يكون بأسرع ما يمكن، يا عزيزتي سارا». رميتُ التمني مشيراً لها بيدي اليمنى علامة وداع.

الفصل التاسع

قضْمة آلَانْ تورنغ

أيامٌ انقضت، أو ربما أسابيع، لا أُحسِنُ ضبط عددها الآن، يوم تركتُ العمارة الخضراء على ساحل البحر المهيئة للاجئين فقط، منتقلاً إلى شقة جديدة في عِمارة أغلب سكَّانها سويديون، لكنها لا تبعُد كثيراً عن شقتي السابقة.

انتظرتُ وقتاً لا بأس به كي تُبلغني سارا، الشاميَّة السمراء، بالموعد الجديد للمحاكمة.

ولكي أكونُ دقيقاً في نبشِ طبقات الذاكرة بمعولِ التذكيرِ، ذكَّرني بها السيد «غوغل»، إمبراطور العالم الإفتراضي، يوم طرقْتُ بابه، باب السلطان الخُرافي الشفَّاف، المسالم، الذي لا يُدْرَك مداه، رافعاً شعاره الآدمي: (لا تكُن شريراً). سلطانٌ يُقدم خدمات معلوماتية أُسطورية، سريعة، جاهزة، كطعامٍ شهي جاهز، بجميع لغات العالم، عبر خيوط عناقيده العنكبوتية اللَّينة، المتْقنة تسطيراً في مسالك الدهشةً الضوئية. طرقت بابه بحثاً عن أغنية «وحْدُن».

«غوغل» . أكبر اختراع عرفته مُغامرات العقل البَشَريِّ. مغامرات كانت مُغمىً عليها، دفينة بين تعرُّجات دماغه. مخزنٌ معلوماتي يتصل بشبكةٍ خلاَّقة مُصنَّفة حسْب التقويم الحرْفي في صندوقٍ العجائب الذي لا تُحصى مداركه وخدماته. سيُضيءُ ما يختزنه، هذا العمُّ السخي، عبر شاشة مربوطة بأسلاكٍ من نعيم الطاقة الكهربية إلى صندوق العجائب هذا.

سيُظْهر لي العم «غوغل» خدماته الجليلة بلمسة من الفأرة الضوئية المتنقِّلة على عجلة وحيدة تنزلِق بحركة من اليد، تتشمَّمُ الحروف المسطَّرة على شرشفٍ من ضياءِ الحيلة، سعيا للوصول عبر

تأشيرةٍ ونقرةٍ، بتعقُّبٍ سلسلٍ، بواسطة السهم الصغير المتراقص على سطح الشاشة الزجاج المسترخية على طاولتي الخشب.

لم يشأ العم «غوغل» البقاء يتيماً خائضاً مغامراته العجيبة بلا أبناء، أو أصهار يُشاركونه أعباء القلق الذي فاض به سجنُ العقل بعد أن ضاقت حُجُراته المقفلة بغفلة من نداء الفكرة العبقرية، فخرجت تتشظَّى على سطح الشاشة.

ولكي لا يُتَّهم، السلطان غوغل، أنه لقيطٌ من لقطاء قَدَر خزْنة العقل، ومُصادفة من مُصادفات التجريب، فالاختراع، كحقيقة مُقامِرة، مُشعَّة على هياج البزوغ الضوئي الساحر الذي لفظه، بلا صِدْفةً، في وجه الكون، مهموماً يبحثُ عن مُبرِّرٍ لكيانه الفذ فارتأى توزيع الأدوار على أبناءٍ وأصهار الأُمم يتشاركهم المحنة المسلِّية، وأن يُري ما لم يُرَ عبر شعاع ضوئي صامت. لم يعُد، لوحده، يتحمل هول النَّقر عليه بالفأرة العجائبية.

«ليكُن لك أبناء ومريدون، وبنَّاؤون، أيها الأب الشرعي، توزِّع عليهم بعضاً من مفاتيح القَدَر الجهنمي، الذين سيورثونكَ أحفاداً أجلاَّء يتقنون، برقَّةٍ، اللعب مع كل نقرة من الفأرة المطيعة، فتُحيِّر الذين تحيَّروا بأمرك باحثين عن الذي أنجبك خادماً للعالمين».

هكذا نزلت على عمنا غوغل آيةٌ من آيات المنام عبر خاطرات طويلة من ليالي الأحلام المؤجلَّة ففَزَّ مذعوراً. صلى وابتهجَ بالنور الذي غسَله بعافية العقل المدى، فكان «اليوتيوب» من بين الأبناء الذين أنزلتهم الريح، بلا صِدامٍ، بل عوناً راقياً لروحه المقدسة. لكن، ورغم استئناسه الأمرَ، لم يشأ أن يُبقي اليوتيوب يتيماً، مشاكساً، أو مُتبختراً بنعيمٍ من وحي أبيه الغوغل، أو جالساً على كرسي الزعامة الموروثة بعد

عناءٍ سليم الهدف والمعنى، فأنجب القدَرُ الإلهي الكامن في عقل الغموض سائراً على سكة اليقظة الفنطازية، ثلاثة أخوةٍ من فاكهة البداهة، لكنها بداهة أكثر تسليةً وجلالاً، التي طفحت من أعماق البئر الأولى. أخوةٌ ثلاثة يتربَّعون على بَرَكَة حرية الاختصاص المتنوع والمسلِّي: «الفيسبوك»، «والتْويتَر»، «والسْنابْشات».

طرقتُ، بيدٍ مرتجفة، باب العم الجليل غوغل مرسلاً إليه كلمة «وحدُن»، عبر نقرة من الفأرة الحمراء تتراقصُ تحت يدي اليمنى، بلا تفصيل أو شرحٍ: هكذا، كلمة واحدة من مجهول المعنى.

لم يجفل سلطانُ الخدمة المجانية من طلبي. لم ينفعل، أو يستشِطْ غضباً من مجهول الكلمة التي أرسلتُها بلا عنوان، أو تفصيلٍ، أتمنى الرد السريع.

بلا إحالةٍ إلى أحد أبنائه، أو أصهاره، قفز على سطح الشاشة الضوئية، من بئر العجائب، العم «يوتيوب»، يزودني بعدة مقترحات: أمامكَ أغنية وحدُن بصوت فيروز: «وحدُن بيبقوا مثل زهر البيلسان».

سأُدهش: الأغنية الفيديو بصوت فيروز، بلا تفصيل. ثم يطرح العم يوتيوب أمامي خَيارات أخرى. أمسكُ الفأرة وأذهب بها نقراً على فيديو آخر حيث الأغنية وزِّعت بتقنية أجمل، وأفضل، مُصوَّرة بروحٍ حيَّة في غابة من غابات لبنان.

«هل تعلم أن أغنية وحدُن كُتِبت لهؤلاء؟»، يُبلغُني سيد التوثيق، والدهشة، السيد غوغل حيث ينتقل بي مشهد الأغنية إلى ثلاثة شبان يُعدُّون خطة للقيام بعملية فدائية على أحدى مستعمرات اسرائيل.

في ملف آخر، من خزنة اليوتيوب، فلم وثائقي يُحاكي اللحظة التي انبثقت فكرة القصيدة للشاعر طلال حيدر جالساً في بلكونة بيته

المطل على غابةٍ، حيث كان الشبان الفدائيين الثلاثة يتنقلون فيها، راسمين على تُرابها خطة عمليتهم الفدائية، ثم فجأة يختفون، لتظهر لقطة جديدة: صحف بيروت تنشر صورة الفدائيين تعلن استشهادهم بعد تنفيذ العملية.

سأُسِرُّ جارتي سارا بذلك الاكتشاف الجميل:

«الشهداء الشهود موجودون بيقين من خيالِ دهشة «الانترنيت»، يا سارا»، نفس الملصق الذي لديكِ، قلتُ لها، في لقاء حميم، جالسَيْن في مقهى «الصخرة الحمراء»، على ساحل «كليبَّان»، باسطاً أمامها شاشة حاسوبي الصغير، المتنقل علامة (Apple).

وسط دهشتها، واستغرابها، بهذا الاكتشاف الجميل. بين محبة وامتنان حميمين أبدتهما سارا لي بهذا الاهتمام، قالت لي :

- أنت إنسانٌ نبيل، يا هرميتس،

«وحدُن بيبقوا مثل هلغيم العتيق،

وحدهُنْ وجوهُنْ وعَتْم الطريق».

رددت سارا مقطعين من القصيدة بصوتٍ مشروخ الأوتار يئنُّ في قبو حنجرةٍ تشقَّقَت مساماتها، تتكئ كتفاها على أغصان مُرتجفة. ثمة تجاعيد على وجنتيها تسوطُ بها لعنة الغُربة الباردة.

- أتسمحي لي بسؤالٍ، يا عزيزتي سارا؟

«تفضَّل»، أجابت.

«أما من سرٍّ تُخبئينه، يتعلق بالشهداء، الشهود؟ لماذا يخصك أمرُهم دون غيرهم من الشهداء، يا سارا؟». سألْتُها وأنا أُلْقِمُ سيجارتي ناراً من قدحة الزناد.

تأمَّلتني، سارا، بتمعُّنٍ؛ تأمُّلٌ تستجلي عبره الفضولَ المُباغت من سؤالي. سؤالٌ لا غموض فيه البتَّة.

رمقَتْ سارا كوب قهوتي الذي امامي. سحبت نفساً عميقاً من زفير دُخاني المتطاير أمام وجهها:

«رائحة تبغكَ سلسلة، خفيفة الشمِّ والطيران، لكن قهوتك السويدية مُفلْتَرة، لا حِثْلَ في آخر رشفة منها؛ لا طالِعَ يأتي من خُلاصتها، يا هرميتس»، رمت سارا كلماتها مُسلْفنة بابتسامة ودٍّ، خالية من أي جواب، إلاَّ من مُشاكسةٍ تُدغْدِغُ فضولي عن سرِّ العلاقة بينها وبين الفدائيين الثلاثة.

«التفافُكِ، مفضوحٌ، يا سارا، مُشتَّت، كأني أُكلِّمُ نفْسي»، أجبْتُها ضاحكاً.

لم تُعلِّق سارا على استغرابي من هروبها المُنشرحِ روحاً وبراءةً. غسلتني برشاش باردٍ من عينيها العسليتين، إذ رأيْتُ فيهما جوقةَ خيول تُهرولُ ناهشةً الأرض بحوافِر منزوعة الحدوات؛ حوافر آدمية بأصابعَ وأظفار. خيولٌ تتراجع إلى الوراء، فيما سارا تُدوِّر بأصابعهاُ، بقلقٍ مفضوحٍ، خاتمها الفضي.

ارتعبتُ. أغلقتُ عيني. ساد بيننا صمتٌ غير مُفْتعل؛ صمتٌ دغْدغهُ وشيش أمواج زاحفة من بعيد تتشمَّمُ رائحة ارتطامٍ في صخور الساحل البازلتية.

«من أين أبدأ كي أُجيبكَ على سؤالك القديم الحديث، يا هرميتس؟ أنا ثرثارة في الحديث إن أثارني سؤالٌ مَّا أُفلِّسُ جوابه، ثم

أغسلهُ، وأتركه يجُف تحضيراً لتحميصه في مقلاة الفم على نار القلب الحامية؛ جوابٌ قد آتِيه فيه فتتيهُ أنت معي. نبشُ ماضٍ، يا هرميتس، يعني صفقَ أبوابه بضرباتٍ من رياح الوجع. صريرُ رياح الوجع مُرعب، يا صاحبي. لا أُحب أن أردَّ رداً مقتضباً على سؤال يُذكِّرُني بتفاصيل جارحة ذهبت مع من ذهبوا، خوْف أن أجرحَ أسرارهم؛ أن أتساوى معهم في المصير الذي اختاروه؛ مصيرٍ لا يليق بي الأن. مصيرُهم مُقدَّس، كما أسرارهم، وأحلامهم. لا أُحبُ أن أقضُم جوابي لك قضماً بفمٍ أدْرد. أحب سماع صوته وأنا أُفصِّله. لا تدعنا نتوه، لذا اعذرْني».

فتحت سارا حقيبتها. أخرجت الصليب الذي لمحته في غرفتها. وضعتهُ أمامي:

- هذا لكَ، ياصديقي الطيب. لم أنسَ ملاحظتك الصليب في غرفة نومي. لي رغبةٌ أن أهْديك إيَّاه، إن سمحت.

«ماذا يعني تعليق الصلْبان في البيوت، يا سارا؟، الصُلبان، في اعتقادي، مكانها الكنائس».

- وجوده، في بيتي، يُهدِّأ من حدة قلقي. لستُ مؤمنة، بمعنى الإيمان الكهنوتي؛ ولستُ من أتباع المواعظ الجافة.

«لكنه صليبٌ غريب، ليس كباقي الصُلبان المتداولة، يا سارا»، أردفتُ باحثاً عن تفسيرٍ مُقنع للشكل الذي عليه صليبها.

لم تردُّ سارا على استغرابي شكل الصليب غير المتعارف عليه كبقية الصُلبان.

«لِمَ تتنازلين عن صليبك، كهدية لي، يا سارا، سيما أنه يُخفف من حدَّة قلقك؟».

- لا تنازل بمعنى التنازُل، يا جاري المحبوب. لا حقَّ لي في التلاعُبَ بتصميمه، أو تعديل شكله وإعادته إلى الشكل الكلاسيكي المتعارف عليه في أشْكال الصلبان. أصبح يُشكل لي إحْراجاً مع معارفي وأصدقائي كلما رأوه معلقاً في بيتي.

«من أين لكِ، هذا الصليب، يا سارا؟».

- أهْدانيه «ريكاردينو»، أستاذُ الفلسفة يوم تخريجي من كلية القديس يوسف اليسوعية.

«ماذا تتوقعين مني، يا سارا، هل أجرؤ على التلاعُب في تصميمه، سيما أنه هديتُك إليَّ؟».

«أَتْرُكْه لديك، كما هو، إن سمحت. سأعتبرها هدنة بيني وبين المصلوب، أو ربما هرباً من خذلان يُلاحقني. لم تُفِدْني تضرعاتي إليه».

«هل حاولتي أن تُعلقيه في مكانٍ، خارج غرفة نومك، أو في مكانٍ لا يجلُب انتباه الآخرين؟».

«حاولت ذلك، لكنه كان يتسلل بغتةً إلى غرفة نومي كلما باغتتني الحاجة إلى رجل يُصغي إلى أحلامي، ويُدوِّن مناماتي، أو يهدهدني كي أنام».

«لكنْ يؤرِّقكِ وجوده كما تقولين، أليس ذلك نقيض التبرير الذي يُساوركِ، يا سارا؟».

«ما المكان الذي تجدهُ مُناسباً لإبْعاده عني، وعن عيون الفضوليين؟»، سألتْني سارا باستغرابٍ حزين.

- ارفعيه. ضعيه في خزانة الملابس. سينساه من لا يُناسبهم شكل وجوده، يا سارا.

«أخاف على التفاحة أن تذبَل وتتعفَّن، ويقضمها الدود»، ردت سارا رداً غير مُفتعَل.

سهَتْ سارا، قليلاً، وهي تُدقِّق في التفاحة المقضومة المرسومة على سطح جهازي الحاسوب. شهقتْ فجاءةً. أجْفَلتْني. أحسستُ أنَّ ثمة شيئاً غير مُتوقَّع صدمها.

«تُفَّاحة أيضاً، يا هرميتس ؟!، تفاحة مقضومة؟، أهذه قضمةُ آدم التي حرمتْهُ من الجنَّة؟»، علَّقت سارا مُشيرة بسبابتها اليمنى إلى العلامة على سطح الحاسوب.

تطاير شهيقُ الفجاءة من صدرها عبر زفيرٍ مندفعٍ دحرجتْهُ سعلَةً قوية. احمرَّ خدَّاها.

- آسف، يا سارا، ربما ضايقكِ دُخانُ سيجارتي». غرزتُ رأس اللِفافة في المِنْفضة أُطْفئُها.

«ماذا فعلْتَ، يا عزيزي؟ دُخان سيجارتُك له انجذابٌ مُنعش. لقد ذهبتَ بعيداً في تخمينكَ». رمت سارا استغْرابها بانفعالٍ كأنها تبحث عن جوابٍ لهذه المعضلة التي تشابكت خيوط جوهرها . تفاحة مقضومة على جهاز الحاسوب، وأخرى مختبئة تحت قدمي يسوع.

- هي فذلكُةُ السوق، يا سارا. تفاحة مقضومة تجلب نظر المشتري أكثر. إنها شيطنةُ تسويق البضائع.

«ألم يجدوا غير تُفاحة مقضومة علامةً لهذا الجهاز الغريب؟»، ردت سارا على تبريري السريع.

نظرتُ إلى التفاحة، التي في السلة، تحت قدمي يسوع. مسحتُ بأصابعي غُباراً مُلتمعاً عليها. كانت ملتصقة بإحكامٍ تحت أصابع قدميِّ النبي المخلِّص. حاولتُ تحريكها، وانتزاعها. صرخت سارا:

«ماذا تفعل، يا عزيزي هرميتس؟، أتُريد أن تقضمها أيضاً؟. دعها في مكانها، لا تنْزع فكرة صانعها».

«لوجودها عيبٌ في التصميم، يا سارا»، أجبتها همْساً أهدئ من روعها. «ما شأن يسوع بالتفاحة»، سألتُها باستغرابٍ جاد.

«من لا عيبَ فيه لا يموت، يا شاعر»، ردت سارا وهي تُبعد أصابعي عن تُفاحة المصلوب، أضافت: «التفاحة تاجُ الخطيئة».

«أتعتقدين أن استسلام يسوع للصلب إيمانٌ منه بمحاربة الخطيئة أم تحدٍّ للألم البشري، يا سارا؟».

«الإثنان معاً»، ردت سارا. أضافت: «تحديه للألم كان غضباً استثنائياًّ، وبه شرَّع لمحاربة الخطيئة. بالألم تُغسل الخطايا، يا عزيزي هرميتس».

«أهذا أحد استنتاجات دراستُكِ الفلسفة في كلية القديس يوسف، يا سارا؟».

لم تُعلِّق سارا على سؤالي، أو بالأحرى تجاهلتهُ. نظرتْ، بعبوسٍ صامت، نظرةَ إشْفاقٍ إلى الرجل المصلوب. الأيقونة المعبودة، المتجمِّدة على الصليب الملقى على الطاولة.

قدرٌ غير مُتسامحٍ مع القدر حوَّل يسوع الإنسان من شخص مُسالم إلى أسطورة قلِقة بتناقضاتها. أسطورة بتعاليمَ وحكايات سطَّرها تلاميذ أحبوه في كتاب «البشارة».

«لا بأس، يا سارا، سأحتفظ بصليبك، ولك الحق أن تُطالبيني به متى ترغبين»، قلتُ أطمئنها على ملكيتها للصليب.

«إن تخلَّصتُ من قلقي، ومن الأرق اللعين، حينها سأفكر في الأمر»، أجابت سارا.

ثمت تغييرٍ انتبهتُ له، في اللحظة الأخيرة، وأنا أهمُّ بوضع الصليب في حقيبة جهاز الحاسوب، الجلدية، الصغيرة.

«الخرقة، يا سارا، خرقة يسوع بُهِت لونُها؟»، سألتُها مستغْرباً الأمر.

«من كُثرة الغَسْل»، أجابتني سارا بلا رد فعل على استغرابي.

صُدِمتُ من جرأة، وصراحة هذه المرأة العجيبة، التي لا تُخبئ ما تُفكر به، أو ما تقتنع به، بكل بساطة.

«ماذا؟ أتغسلينها، يا سارا؟ كيف خطرت لكِ هذه الفكرة الفانتازية؟».

ضحكةٌ خفيفة غلَّفتها، السمراء المشتهاة، بابتسامةٍ رمت نصفها بوجهي والنصف الآخر على الصليب، بهدوءٍ وهي تُعيد، بارتباكٍ واضح كأنها تُخفي شيئاً ما، ترتيب وشاحها الحريري الأبيض حول رقبتها.

«لا فانتازيا في الأمر، يا هرميتس. ألَمْ يقُم يسوع من بين الأموات؟ هذا يعني أنه حي. يسوع الحي يعني أن جسده حي، والجسد الحي بحاجة إلى أن أُداريه طالما هو مُلْكي. لا ملابس على جسد المفدىَّ، غير هذه الخِرقة، وهي لابد من أن تتَّسِخ، ومن الضروري غسلها وإعادتها إلى مكانها». ردت سارا رداً واثقاً على استغرابي.

«لكنهُ إله، والإله، كما هو معلوم، مُقدَّس، والمقدَّس لا يُمسُّ، وهو بالتالي طاهرٌ، وفِعلتُكِ هذه ارتكابُ إثْمٍ»، أوضحتُ لسارا وجهة نظري عن قداسة المقدَّس.

«ليسوع طبيعتان: إلهيَّة، وإنسانية. حينما يتجلى إنساناً فهو مثلنا بحاجة إلى عناية، وهذا أعِدُّهُ حُباً لا إثْمَ فيه»، أجابت سارا على اعتراضي المسِّ بجسد يسوع.

«ماذا يخْطُر لك وأنت تنزعين عنه خرقته ؟، ما الهواجس التي تنتابكِ؟».

«أجْفَلُ فقط. إنه سيدي».

«وهُوَ؟، ألا يعترض، أو يوقفك عن فعل ذلك؟»، سألتُها بشيء من الإحراج متوقِّعاً ردة فعلٍ في غير محلها.

«يفتحُ عينيه ويبتسم. يحمرَّ خجلاً»، أجابت سارا إجابة الواثقة ممَّا اقتنصتهُ من ملامح سيدها، الشارد كالبرق، على قَسماته. دفعتْني إجابتها الذهاب عميقاً في حواري:

«كيف يبدو لكِ شكلهُ، أو وجوده، هل يتغير أم يبقى كماهو؟».

«يَسيحِ. يأخذ شكلهُ شكل الماء»، ردت سارا.

«ثمَّ ماذا، وإنْ أخذَ شكلهُ شكلَ الماء؟»، سألتها متعجِّباً من توصيفها هذا.

«أكون في قمة مُبتغاي. تدخل روحي إلى بحيرته بخطوات كسولة، أول الأمر، بكامل عُريها. أُطيلُ الاختلاس شهيقاً بأنفاسٍ تتماوج كلما دغْدغتْني مُويْجة من مويجاتها. اندفعُ غارفة الماء، بكلتا يدي، بنشاطٍ يأخذني هياجه تقلُّباً على ظهري تارة، وعلى بطني تارة أخرى، بارتياحٍ، كما يشاء هو، بإشاراتٍ مائية حضاً وتبشيراً بفوائد الماء، مستسلمة

بعفوية لمتطلبات الرغبة. أذوبُ فيُغمى عليَّ. أستفيقُ على صرير البلوغ متمددةً بكامل عُريٍ على عتبة المُرتجى».

أحسستُ بشيءٍ غريب يخرج من غور أعماق سارا وهي تسترسل بإشاراتٍ متقاذفة من خيالها في تصوير مشهد بحيرة على هيئة امرأة تتعرَّى أمامي.

كانت حركات يديها تكادُ، أحياناً، تُلامس وجهي القريب عن بُعد شبرين قُبالة وجهها بإشارات لها فحيح التبشير بطهارة الماء، تصويراً محسوباً بدقة مُتقصِّدةً في أن تُوْصل لي ما تبتغيه مني عبرَ شفرة الغوصِ في بحيرة موهومة.

كُدتُ أغرق مختنقاً في لُجة بحيرتها شبه ساهٍ، دون مُقاطعة بل بكثير من الإنصات ابتغاء الوصول إلى زلال الرمية الأخيرة.

صمتت سارا. نظرت إلى حيث سفينة ضخمة بعلو ثلاث طبقات تمخرُ، بهدوءٍ، سطح الماء مُغادرة بحر يوتبوري إلى مدينة «فريدريكس هافن» الدانماركية. بضع مسافرين يلوِّحون بأيديهم واقفين على سطح السفينة. رفعت سارا يدها اليمنى تُلوح إلى المودعين. لم أشأ أن تُنهي فصل الاستحمام في بحيرتها المُختلقة.

باغتُّها بسؤالٍ أعيدها إلى صواب الغوص في بحيرتها:

- لكن، يا سارا، هذه بحيرة من وهْم. بحيرة غِواية، أليس كذلك؟

«لا يهم، لتكن بحيرة وهْم. كل شيء حولنا وَهْم. المهم أنني أحصل، حينها، على مبتغاي: أرتعشُ، أنتشي، أكتمل»، ردت سارا كأنها تُأنِّبُني مفصحة عن رغبةٍ بكلامٍ أخرجتْه من صدرها مطمئنة لا تخشى منه عاقبةً.

- على مهْلِك، يا سارا. لكل كلمة من كلماتكِ الثلاث هذه وزن يحتاج إلى كَيْلٍ.

«زِنْ كما تشاء، يا هرميتس. كِلْ كما يحلو لك بمكاييل عقلك، وروحك، وغيرتك ربما»، ردَّتْ بغيضٍ مفضوح ارتسم على قسمات وجهها، رجفَّه دمعٌ خاطف اغْرورقَ في عينيها المتذاكيتين.

«لا بأس يا سارا. لنزنها معاً لو سمحتِ»، قلتُ لها بلطفٍ أُخفِّفُ من انفعالها المفتَعَل.

«تفضَّل. ضع ميزانك على سطح حاسوبكَ، غطِّ به التفاحة المقضومة فهي المكيال بيننا، وقد تكون الأوفى عدْلاً في حسم وزن المعنى في قلبيْنا»، قالت تُشير إلى جهازي الحاسوب على الطاولة.

«صعبٌ أن نُوْفي العدْل حقَّه بهذه الطريقة، يا سارا. نحنُ في فضاء عام، وكما ترين فالهواءُ غدَّار فقد يُرعِّشُ أفلاكَ المثاقيل في بطن المكيال. أقترح أن نزن الكلمات بميزانِ اللسان فهو قبَّان العقل».

«حسَناً، أشْعِل سيجارة جديدة. أنعشْني بُدُخانِها، أسعِف بها تقلُّبَ ميزان عقلي»، ردت سارا على مُقترحي، أضافت: «لندع كلمة الارتعاش جانباً، كلانا الآن يرتعش بفعل هواء البحر الذي يلف جلستنا على هذا الساحل. أما فِعْلُ الانتشاء، ألَمْ تُجرِّب نشوة الماء، يا هرميتس؟. أنت تُدْرِك ما أعني، لكنك تتمتع في الخوضِ جدالاً بغية الوصولِ إلى غايةٍ ما»، أجابتني باستغرابٍ مؤجَّجٍ بملامح تعجُّبٍ، ارتسَمَ على وجهها كردِّ فعل منفلت إزاء مُماحكتي لها.

أشعلتُ لِفافة جديدة. سحبتُ نَفساً طيَّبتُ بدخانه رغبة سارا؛ نفساً مرتعشاً نفثْتهُ ببطءٍ باتجاهها، مُتقصِّداً غمرها بنكهة دُخاني

مُعطِّراً الفراغ المرتعش بين وجهينا. فراغٌ حائرٌ بمناطحة الرغبة المؤجَّل خاطرها بعد عدَّة لقاءات سابقة لم نُحسن خلالها كسر جرَّة الجسارة. رغبةٌ ظلت مكتومة تغلي في جُرنٍ أخرس. لقاءات سبقت جلستنا هذه أسرفنا كثيراً في التقرب إلى بعضنا لكن بكثير من الانسجام الشفهي غير البريء.

«قد أذهبُ معكِ، يا سارا، إلى حيث المُمْكن خيالاً في تفسيرك لفعل الارتعاش والانتشاء، ماذا عن الطِلَّسم الأخير من هذا الثالوث العجيب، طلسم الاكْتِمال؟»، رميتُ سؤالي مطمئناً أن سكة الصراحة بيننا لا خروج يشذُّ عن مسارها، سكة كلما تقترب تتباعد، لتعود تقترب.

«الاكتمال هو الاكتمال. هو هكذا، المهم أن أرتوي بحبه»، ردَّتْ بشيء من الضجر على مُماحكةٍ بشأن أمرٍ غير غامض استنتاجه، رداً أخرجتهُ من نفق المتاهة لتعود به إلى نفق آخر للمتاهة.

صمتتْ الحنطيَّة السمراء. سحبت شالها الحرير، الذي انزلق ساقطاً على الأرض، تُعيد ترتيبه حول عنقها. اهتزَّ صليبٌ ذهبي معلَّق على صدرها. صليبٌ صغير بدا محشوراً بين زيق نهديها، حيث عروة قميصها العليا متحررة من زرِّها.

ذوَّبَتْني الفجاءة الجديدة المختبئة تحت الشال. ركَّزتُ أرُزُّ بتأمُّلٍ، بلا اخْتلاسٍ، أعني إثارتها، من جديد. ابتسمتُ لاحْمرار وجهها، تأكيداً على عدم تجاهل ما تراه عيناي الصغيرتان، السوداوان. جفلة نهدين مختبئين في بطن حمَّالتين يرتجَّان لرصْدي لهما. نهدان جبليَّان فيهما جسارة نابضة بمقام الشهوة. كان لنظرتي استعذابٌ مرٌّ. سقيتُ ابتسامتي المفضوحة، عمْداً، بماء المُشتهى.

اقتنصت سارا، بلا ارتباكٍ، نظراتي المفضوحة. لم تتلاعب بالمشهد الذي انكشفَ أمامي، فلا حيلةَ لها أن تُخبِّئه. أعارتْ رغبتي صمتاً صاعداً من خلَل عينيها العسليتين الغائرتين تحت حاجبين غير مشذَّبين، كعادة أغلب النسوة اللائي يُرفِّعْنَ حواجبهن خيطاً رشيقاً. لا خطأ في استيعابها لما يعنيه مكنون ابتسامتي غير المتطفِّلة.

اشتهيْتُها. اشتهيْتُ، في تلك اللحظة، سارا الأُنثى.

اشتهيتُ كامل وجودها جسداً أمامي.

اشتهيتُ تكرار فقدانها المفاتيح؛

أنفاسها التي تركتها في شقتي.

اشتهيتُ قهوتها،

أن تُعيد تفاصيل جلسة المحكمة من جديد؛

أن تفرد شعرها وتُعيد للمته ربطاً؛

أن أشوي لها السمك في فنجان قهوتي؛

أن تُكرِّر، بضجرٍ مُنتجِرٍ، أغنية وحْدُن؛

أن نُثرثِر حتى تنفجر ثرثراتنا مُملَّحةً بالرغبة المهروسة في جُرنِ الذُّرْوة.

افتعلتُ حركةً من شفتيَّ تعبيراً عن شكلِ قضمةٍ، وأنا أنظر إلى ثدييها، بجسارةٍ غير معتادٍ عليها.

ضحكت سارا مُلتقطةٍ رغبتي عبر فمي:

«ليس كل قضمة تشبه أختها، يا هرميتس. أخافُ عليك أن تتشرْدَق. تُفاحي مُرٌّ. تُفاحي من فصيلة «الآفوكادو» قبل نضوجه. قهقهت سارا بغنجٍ وهي تشبكُ يديها حول صدرها.

- لا تذهبي بعيداً، يا سارا. أنا عنيتُ صليبكِ الفضي.

«لا تُلْغِز، يا هرميتس. اللَّف والدوران يُدوخانني، لقد ذقْتُ تلمُّظ شفتيك. ثُمَّ إني لستُ هاوية صُلْبان، يا صديقي الحنون، هذا صليب دِفاعي، غير هجومي، سلاحي ضد المتطفلين العنصريين الشُّقر، من السويديين، الذين تستفزهم سحنتي السمراء، وضد المتشددين الإسلاميين الذين تُغريهُم وتُعتبر حلالاً لهم».

«ما الحَلال الذي تعنينه، يا سارا؟ ما دخل سُمرتكِ ببشر من أُمَّتكِ، أمَّة الشرق؟».

«هم يعتقدون أن سُمرتي محللة لهم. الكثير منهم حاول أن يُقنعني بارتداء الحجاب. منهم مَنْ تقدم للزواج مني، لكن حين تسلحت بالصليب تخلَّصتُ من تطفُّلهم، وخفَّت جفلة العنصريين مني».

«ما رأيكَ لو نتمشى على ساحل البحر، أكادُ أضجُر. الجلسة الطويلة في المقهى مُملِّة»، سألتني سارا وهي تقف تُسوي، وتُمشِّط شعرها الأسود الجعد المتشبِّع من رطوبة نسائم البحر المندفعة صوب الساحل العريض المفروش رملاً ، وحصى تكاد ألوانه مُتقاربة ضاربة إلى الرماد، بمشطٍ صغير أخرجته من حقيبتها السوداء الصغيرة، تتهيَّأ للخروج.

وضعتُ، على عجل، جهاز الحاسوب مع صليب سارا الخشبي، في حقيبتي الجلدية الصغيرة. علَّقتها إلى كتفي الأيسر. نهضتُ مستسلماً لرغبة سارا في التسكع على الساحل.

السيرُ، أحياناً، مُغرٍ صيفاً على ساحل «كليبان»، رغم ما تتلاعبُ به الغيوم حَجْباً مُفاجئاً للشمس، بين الحين والآخر، فلسعات الريح

الباردة، تُعكِّرُ مِزاج التجوال فلا تجعله سلساً. الطقس الجميل يحملُ في بواطنه خُدعة غافية. غالباً ما تكون نصف السماء مشبعةً بالغيوم التي لا تني تتلاشى فيكون للشمس نصيبٌ من الطمأنينة للذين ينتظرون حلولها، لكن الغلبة، دائماً، للسحب والغيوم التي تغارُ من سطوة الشمس. هواء يهب ويخفت، لا يعرف النضوج خلا أيام معدودات صيفاً.

أخذ شال سارا الحرير يهفهفُ كأن به رغبة إلى الطيران انعتاقاً، ربما، لكنه لم يكن واثقاً من انعتاقه. بدا متردِّداً، يهمُّ مرة كأنه طار، فيعود يخفت مُمْتثلاً، مُتشمِّماً أنفاس سارا.

ظلّ الشالُ يُناورُ كأنه يتمرن على الطيران، فيما سارا تُحاولُ، كل ثانية، أن تُعيده حشراً بين زيق نهديها.

«أليس بكَ رغبة في التدخين؟»، سألتْني سارا.

«اربطيه»، قلتُ لها.

«أربط ماذا، يا صاحبي؟»، ردت باستغرابٍ على كلمتي الفضفاضة لا تعريفَ واضحاً إلى مقصدي منها.

«الشَّال، يا سارا، شالُكِ الرقيق»، أجبت.

«لا أستسيغ ربطه. أحبهُ هفهافاً، يُسمِعُني صوت الهبوب، يتوسلني أن أعيد ترتيبه، كلما دغدغته الريح»، علَّقت سارا على تلاعب الريح بشالها الحريري الأبيض.

أشعلتُ سيجارة. سحبتُ نفسَيْن متتاليين نفثْتُهما بسرعةٍ، كأني أعبِّرُ عن ضجري من عِنادها وعِراك الهواء مع شالها المتطاير بلا رحمة من شدَّة الريح الباردة.

- الطقس مزعجٌ، يا سارا. طقس متقلِّب، مزعجٌ، ومُخادِع.

«لا غَرابة في هذا الجو المخادع، يا هرميتس. هذا هو صيف غوتنبرغ، كما هو معروف. إنه مُخادعٌ، كما وصفتَهُ، لكن علينا أن نعقدَ ميثاقاً مع خُدعته، نُجاريه، نُقنع أجسادنا أن هذا فصل صيف».

«ما الضرورة لهكذا ميثاق طالما هي خدعة في أول الأمر وآخره، يا سارا؟».

«الميثاق اتفاق بين طرفين كي لا يخدع أحدهما الآخر، إنه منطق الحيلة. أنا الآن، مثلاً، أرتجف من زناخة هذا الهواء، لكنني لا أسمح له أن يخذلني. أنا منتعشة بزناخته».

توقفنا عند صخرةٍ كبيرة من الغرانيت مُتَشتِّة الهيئة. سألتُ سارا:

- أتعرفين ما اسْمَ هذه الصخرة، يا سارا؟

«ماذا يكون اسمها؟»، ردت مُتسائلة وهي تُمعِن النظر إلى الصخرة الضخمة المطلية لوناً أحمرَ. أضافت بتعجُّبٍ، مُقلِّلة من شأن سؤالي: «هي صخرة كبقية الصخور الممتدَّة على جبال هذا الساحل الطويل بعرائه الموحش».

- اسم المقهى التي كنا جالسيْنِ فيها على اسم هذه الصخرة، يا سارا.

«اسمها الصخرة الحمراء، إذاً، أليس كذلك؟».

«بالضبط»، أجبتها.

«ما الامتياز الذي تتمتع به الصخرة هذه عن بقية أقرانها الصخور؟»، سألتني سارا.

في مؤشر البحث عند العم «غوغل»، يُنْبئنا، تدْويناً، بلسانه الضوئي البارد، بمعلوماتٍ، من وحي عروق الضوء، لأكثر من احتمال، منها: مقتل ضابط سويدي، عند هذه الصخرة، في إحدى المعارك مع الدانماركيين، منذ زمن بعيد، فسَاحَ دمه عليها. هنالك إحتمال آخر، يقول العم الكريم غوغل، أن البحارة قاموا بطلائها باللون الأحمر كعلامة للملاحين، حيث مكان المزلاج قربها، للرسوِّ.

«ما الإسم القرين الذي يرتبط بالصخرة، يا وردتي سارا؟».

«لا عِلم لي باسمٍ قرين يُناسب هذه الصخرة. لم تنضُج وردتي، بعدُ، كي أكون وردتَك، لكن عندما أنضُج جرِّب أن تحملني إلى القمة، شرْطَ أن لا تلتفت، يا سيزيف الكلداني».

استهوتني كلمة «سيزيف الكلداني».

اقتربت سارا، شبه ملتصقة، من الصخرة. مرَّرت يدها اليمنى على سطحها تتحسَّس الصِباغَ الأحمر الباهت. ترطَّب سطح يدها من ندى يُبلِّل الصخرة. رفعت يدها، تشمَّمتْها، وفركتها بيدها اليُسرى:

«لا رائحة لدمٍ آدمي»، قالت تنظر إليَّ نظرةَ تغمرها أنفاس اللوعة المكدَّرة، أنفاس لوعة الفقدان.

«الاحتمال الثاني هو الأكثر صواباً، إذاً، يا سارا»، قلتُ أُثير انتباهها إلى سلاسل حديدٍ صدئة مربوطة إلى حلقات حديد مُنغرزة في الأرض.

طار باتجاهي، فجاءةً، شالها الأبيض. التصق بوجهي. سحبتُ شهيقاً قوياً، مسموعاً، فالتصق الشالُ أكثر يُغطِّي جبيني حتى أسفل حَنَكي.

كان شالها مُشبَّعاً برائحة إكْليل الجَبَل. سحبتُ الشال عن وجهي ببطءٍ مُتعمَّد. سارا أمامي، قريبة مني، شبه ملتصقة بي، أسمع أنفاسها مُهيَّجة. كانت صامتة، مُغمضة عينيها. لا تتحرك. ضربني، جَدْحاً، هاجسٌ سريعٌ، جسور؛ هاجسٌ مسَّ خجلي لَطْماً: «اقْتنص الفرصة، قَبِّلْها. هي تقول لك قبِّلني».

اقتربتُ أُعيدُ الشال إلى عنقها عاقداً إيَّاه لئلا يُعيد الطيران ثانيةً.

مسكتُ صليبها الفضي بأصابع ترتجف. رفعته إلى فمي. قبَّلته، وأعدته إلى منزلقهِ، بين نهديها، مُمْعِناً، حفراً، بعينيَّ الصغيرتين في زيق نهديها الملتهبين لذَّة.

ظلت سارا مغمضة العينين، ترتجي القبض على أنفاسي اسْتِجْاداً لخفقات أنفاسها تنزلُ شهيقاً يطحنُ زفيرهُ طحناً مُدوِّخاً.

احتضنْتُها بتروٍّ خفيفٍ، بكلتا يديَّ. لم تتحرك. لم تعترض. التصقتْ بي أكثَر. منحتني طمأنينتها سَفْحاً على مَلاءة تهفهفُ، خفيفاً، على نجيلٍ من ريش. منحتني حضْنها باستسلامٍ أخْرس. أسْلمَتْ رأسها، بلا شَقاء، إلى كتفي اليسرى. كتمتُ، بغمضةِ عين، أنفاسي رغبةً لسماعي هديلَ رغبتها المكتومة. تهدَّل ما تهدَّل من شعرها الجَّعْد مُرْخىً تُداعبه أصابع يدي اليمنى. نشيجٌ غريبٌ يصعد، بصمتٍ خفيف، بلا اتِّزانٍ، يتبخَّرُ من صدرها فيبلِّلني، وأنا أغْرُفُ، دونَ حسابٍ، من نشيجها الساخن، الصاعق. نهداها الجبليان، اللذان فيهما من الجسارة بما يليق بمقام الشهوة، ذابا في صدري؛ ذابا مستسلميْنِ إلى قَدَر رغبتينا.

هزَّني، فجاءةً، أرقٌ قديم اهتزَّ مرعوباً من أعماق سارا. أرقٌ ليس بجديد يتقلَّبُ على سطور لسانها الحَذِر؛ أرقٌ يتكرَّر، تفضحه عيناها

كلما ألْتَقيها، لكنني لم أفصح به مرَّةً أمامها. أرقٌ آدمي لَجوج لم يُغادر السحاب الدافئ، المسكون في روحها. أرقٌ مفقود بدأ، في هذا الاشتباك المتلاقح، المعذَّب بيني وبينها، يُناكفني؛ أرق يهزني، يلْجمني، ويدفعني، صارخاً بِي: «ابتَعِد ابتعد».

وثبَ الأرقُ الآدميُّ، المفقود، على رأسي كصقرٍ. صقرٌ عشعش في عقلي، دون رفاقه الآخرين الذين تبنتهم سارا كشهودٍ في محكمتها الافتراضية. صقرٌ كتمتُ هاجسه الموحى لي، ترجيحاُ، أنه الأقرب إلى سارا، منذ اليوم الذي انكشف لي أمر الشهداء الثلاثة عَبْر أغنيتها المفضلة: «وحدن».

نسيتُ، بمرور الأيام، هاجس ذلك الصقر. لكن الآن، وهو يثب على رأسي، ويُناكفني، أكَّد لي ظنِّي. الترجيح الأقوى، لحظة التقائنا الحميم، أنا وسارا.

حاولتُ، وأنا في لُجَّةِ احتضاني المرأة السمراء، احتضاناً مُكاشفة للوعةٍ تأجَّلت كثيراً، وتخاجَلت بما يكفي من حَوْمها العبثي؛ لوعة تبادلنا، كثيراً، رسائلها شِفاهاً بنظرات تُهرول مُندفعة تطلب الحَضْن، لكننا كنا نُزيحها دفْعاً، بلا مُبرِّر، مرَّات ومرَّات، كلَّما التقينا، حتى طفح كيلها، الآن، على ظهر الصخرة الحمراء.

حاولتُ أن أُبْعِد كابوس الصقر. ارْتجيتُ يديَّ أنْ تُبعداه ، لكنهما اعتذرتا لاستسلامهما لشَعر سارا الأسود، الجعْد المتماوج، المرطَّب. شعرها المفَلفل انتصر على يديَّ بتشبثه الساخن بهما.

لكن نشيجَ بُكاءٍ، بعَبراتٍ مُختنقة من صدرها رجَّفَ كتفيَّ. رفعتْ رأسها ببطءٍ أخرس. كانت تقذف دموعاً وهَّجتْ خدَّيها.

أَزَحْتُ، بعضاً من دمعها، عن خدِّها الأيسر بسبابة يدي اليمنى، فانزاحت بعضُ قطراتٍ على سفح شفتيها. اشْتهيتُهما. قبَّلتهما بشغفٍ صامت؛ قبَّلتهما غاطِساً شفتيَّ بدموعها المملَّحة بالرهبة؛ قبَّلتهما مشْدوهاً من كَثرة الدمع الذي ذرفتْه، وأنا أقتحِمهما جَرْحاً بشفرة أنفاسي، أُناجي روحي: «لن تسْلم دمعة. كل دموعها لي».

اشتهيتُ إغْماضتها. اشتهيتُ جفنيْها المتراخيين، المستسلميْنِ إلى قَدرِ الإغْماضة؛ اشتهيتُ لثْمَ زغَبَ رمشيها الخاشعين لتوحدنا الذي طال انتظاره.

رفعتُ شفتيَّ أُقبِّل بهما عينها اليُمنى. جفلت سارا فجاءةً؛ جفلت مرتعبة تُبعدني عن فعل ذلك:

«لا. إلاَّ تقبيل العين، يا صديقي الأمين»، قالت سارا بصوتٍ رجَّف ردِّ فعلها.

«لماذا، يا سارا؟ أتقبيل العيون حرام؟».

«تقبيل العيون دعوة للفِراق، يا هرميتس»، ردت سارا.

«للمرة الأولى أسمع ذلك، ياسارا. أنا آسف»، قلت معتذراً.

«لا تتركني، يا صديقي»، نطقت سارا كلامها برجاءٍ مطعَّم صدْقاً حاراًّ.

«أُقسمُ، لن أفْعل، يا سارا»، قلتُ لها ممسكاً بيديها الباردتين لسعاً من هواء البحر. قبَّلتهما تأكيداً على قَسَمي.

فور عودتي، مساءً، إلى شقتي، أخرجتُ صليب سارا الخشبي، وجهاز الحاسوب، ووضعتهما على طاولة المطبخ.

وجودي مطبخِي، معظم وقتي فيه. غرفة النوم للنوم فقط، فعزلتها

باردة برودة سرير النوم الذي لا حياة فيه، أحتالُ عليه غطْساً اشتياقاً لهجعة النوم، فأرتمي سريعاً عليه. لا أُطيل الوجود في البرزخ بين اليقظة والنوم. أنا سريع الغفو، كثير الأحلام.

انشغلتُ بإعداد سَلَطة رشيقة، خفيفة تُناسبُ مِزاجي . مزاج النبيذ الأحمر: شرائح من الخس ومربعات صغيرة من جبنة يونانية مُغمَّسة بالزيت والصعتر الأخضر، تُباع في مرطبانات زجاج؛ سلطَة تُؤنسُ دغدغة النبيذ، نبيذٌ حيث يُوازن وجود وحْدَتي، يُذيبُ جليدَ التردُّد، ويفتح الشهية لسماع موسيقى من الكلاسيك المُخمَّر بعظمة موسيقيي العالم العباقرة، مُنسابة مع رغبة الكتابة.

ثمَّتَ ما يلتمِعُ في أنفاسي مُدغْدِغاً دبَقَ النشوة إلى تحبير الورق الصقيل. أحاولُ القفز جلوساً على عَتَبات السلالِم الموسيقية صحبة جُرْعات نبيذية خفيفة. أجراسُ النبيذ اللامرئيَّة تتسلق بخفة سلالِمَ دمي. يلتذُّ فجورُ النبيذُ، في عروقي، صحبة الموسيقى، غالب الأحيان. كلاهُما يُدوزِن الآخر شحناً شجناً مدفوعاً بالرغبة الحسِّيَّة.

الخمرةُ ميثاقُ الليل.

بين نبيذي والموسيقى اعتراف وتعميد.

النبيذُ قصيدة، والموسيقى إيقاعه.

النبيذُ: أوَّله نقرةٌ، وآخره سكون.

النبيذُ: أوَّلهُ استثارة، وآخره قُبول.

النبيذُ: أوَّله مديحٌ، وآخرهُ تمرُّد.

النبيذُ: شُبهةٌ مُقدَّسة.

تُمْتعني مساءات الاختلاء مع نفْسي. مساءات أصحبها وتصحبني،

عادةً، حتى انتصاف الليل. لكن، في هذا المساء، لم أكُن على ما يُرام. داهمني قلقٌ مُضاعف. سرحتُ، بعد ارتشافي القليل من النبيذ، مستعيداً الاعتراف الذي نزل ملتحماً بيني وبين سارا.

وقفت مرتجفاً. خطوت صوب الشباك فاتحاً إياه، قليلاً. سحبتُ لفافة تبغ وأشعلتها. سحبتُ نفَساً عميقاً. أستدرتُ عائداً إلى الطاولة. نفثتُ دُخاني في أرجاء المطبخ. رفعتُ كأس النبيذ، ونظرتُ إلى الصليب مُقرِّباً كأسي إليه: «بصحتك يا صاحب أجمل مَقولة: «قليلٌ من الخمر يُشفي قلب الإنسان»؛ بصحتك وصحة سارا، فطالما تحملك على صدرها هي في مأمن مِن الفضوليين».

قرعتُ كأس النبيذ، بالصليب الخشب، قرعاً قوياً فسقط أرضاً. سمعتُ صوت ارتطاميْنِ في ذات الوقت. انحنيتُ أرفعهُ عن الأرض، كان أكثر خِّفة. فَزِعْتُ حين رأيتُ اختفاء التفاحة التي بحجم حبة الجوز من السلة. تملَّيْت الفراغ الذي أحدثه اختفائها. ركَّزتُ، بجدٍّ غير مُفتعل، في الهوَّة - الفراغ - الذي أحْدثه اختفاء التفاحة، فأخذ الفراغ يسحبُ ضوء عيني عميقاً إلى أعمق فجوة فيه. شيئاً ما في قعرها بدا بعيداً، أشبه بقوقعة مقرصنة الحواف، شبه مغلقة. قلَّبتُ الصليب بتأنٍّ مقصود علِّي أجدُ مفاجئة أخرى.

عدتُ إلى السلَّة الخشب المثبتة من خلف قدمي يسوع، عند النقطة التي يقع فيها وتر أخيليس، أتمعَّن، ثانية، موسِّعاً عينيَّ أكثر من ذي قبل.

بُهرتُ من رسمةٍ خيالٍ هي بين القوقعة والصَدَفة، يخترقها ضوءٌ يتراقص، لا يثبت على جهة. قرَّبتُ السلة من أذني اليسرى، فإذا بوشيشٍ غريب سمعته يتصاعد ويزداد؛ وشيشٍ معجونٍ بِبَقْبقةِ فقاعات، فأبعدتها إثر دغدغةٍ من قَدَمي المخلِّص.

فُزعت ورميتُ الصليب على الطاولة: «أهذا، يا تُرى بفعل نبيذك، يا سيدي؟ أنبيذك نبيذ فرحٍ أم نبيذَ فتنة؟»، رميتُ السؤال بصوتٍ يتلاطمُ بحشرجته.

وقفتُ عند الشباك. فتحتُ دفتيه على وسعيهما مستنشقاً هواءً رطباً يُلاعِبُ انتشائي؛ انتِشاء عروقِ دمي، أسألُ نفسي عن السرِّ الكامن، الخفيِّ، في هذا النبيذ الجالب للنشوة أولاً، يليها القلق والحيرة.

اقتربتُ، ثانية من الصليب، أُناكِفُ نبيَّ الغفران؛ نبي التعاليم السهلة على السَّمع، العسيرة على التنفيذ، بلسانٍ استقى جُرأته من مضاعفة احتسائي النبيذ بسرعةٍ لم أتعوَّدها.

تجرأتُ، مُحْتدِماً، أُعاتب يسوع:

- أما كان الأَوْلى التبشيرَ بهذا النبيذ الذي يُشفي، ولو قليلاً، الكثير من أتباعك؟

أتباعك أنانيون، فلو تسلَّقتَ آلاف الصُلبان سيسألونك: هل من مزيد؟. جلُّهم يهرب من الخطيئة إلى الخطيئة، يا سيد المسرَّات، والأمنيات. هُم يُغمضون أعينهم ويسيرون، راضين، على درب الخطيئة، متشبثين بالنسيان. النسْيان ربُّهم إلى حين، وحين توسوس لهم خطاياهُم يصلُّون أملاً في مغْفرتك، يا سيدي العاطفي.

وقفتُ أنظُر، من حولي بحثاً عن التفاحة. لا أثر لها. اختفت برمشة عين. مسحتُ أرض المطبخ، بتركيزٍ مُبالغ فيه: تحت الطاولة؛ بين الكراسي؛ تحت الأريكة الجلد؛ في الزوايا بين البرَّاد والفرن الكهربي.

انتابني حزنٌ كسول. رفعتُ كأس النبيذ وأفرغتُ ما به في جوفي.

ارتفعتْ، أكثر خفْقاً، في رأسي دغدغة حُمَّى النبيذ تُراقِصُ دمي، رويداً رويداً. اقتربتُ من زجاجة النبيذ أُعبُّ الكأس منها، فصُعقتُ حين رأيت التفاحة الخشب مستقرة بالقرب من الزجاجة المركونة عند حوض جلي الصحون.

التقطتُ التفاحة الخشب وخبأتها في باطن يدي اليسرى. عدتُ بالكأس جالساً إلى طاولتي. فتحتُ يدي أتأمل التفاحة. يا إلهي: تفاحة مقضومة، قضمة تشبه، إلى حد بعيد، قضمة تفاحة الحاسوب.

هذا فخٌّ آخر من فِخاخ الحَيْرة: تفاحة مقضومة تحت قدمي يسوع.

دوَّرْتُ التفاحة الخشبية بين يدي. ثمة كتابة ما حُفرت عليها بخط تصعب قراءته. قفزت إلى خِزانةٍ أحفظ فيها عُدَّة لضرورات الحاجة، التقطتُّ مُكبرة حروف زجاجية وسلطتها على سطح التفاحة. توضحت الحروف توضيحاً مريحاً: ذكرى آلان تورنغ (1912 - 1954).

أفْرغتُ، في جوفي، كأس النبيذ بتمامه. رجفة سريعة، وقويَّة سرت في أصابع يديّ. غرزتُ خِنْصُر يدي اليمنى في جوف التفاحة المقعَّر .

«آلان تورنغ آلان تورنغ». كررتُ الاسم مرتين. من يكُون، يا تُرى؟ لابد أنَّ لهذا الشخص شأناً مهماً، وإلاَّ ما معنى كلمة «ذكرى» تسبق اسمه؟

لغزُ الاسم بدأ يرفع من منسوب قلقي. ما من بدٍّ أن أعرف من هو.

سطعت سارا أمامي، هل من المتوقَّع أن تعرف من هو؟، هذا صليبها، وهي، بالتأكيد تعرفه.

قفزتُ إلى الهاتف أُجرجرُ الصدْفة الغريبة التي تلقَّفْتُها، بنصفِ خدَرٍ، وكبست رقم هاتفها:

- مساؤكِ، مساء العافية، يا سارا.

- أهلاً هرميتس. شكراً على مشْوار اليوم. أنا ممتنَّة وسعيدة.

أعدتُ تشكراتها بكلمات امتنانٍ لها أيضاً، قاطعاً حبل المجاملات، أسألها عن الشخص المحفور اسمه على التفاحة الخشب:

«من هو آلان تورنغ يا سارا؟»، رميتُ الاسم سريعاً يُدغدغني الفضول أن أسمع جواباً واضحاً.

«ماذا تعني، يا صاحبي؟، من هذا الذي ذكرت اسمه؟»، سألتني سارا باستغراب زاد من فهرنهايت قلقي.

«وجدتُ اسمه محفوراً على التفاحة التي في سلَّة الصليب، تحت قدمي يسوع»، قلت توضيحاً.

«لم تصبر حتى خلعْتَها من مكانها، يا هرميتس»، قالت بصوتٍ هزلي ضاحك.

«ليس هذا فقط، يا سارا، التفاحة مقضومة ومحفور عليها الإسم الذي ذكرته لكِ، هل تعرفينه؟ ربما يكون أحد أساتذة معهد الفلسفة القدماء»، سألتها تذكيراً كون الصليب مُهدى لها من أحد أساتذتها.

«لا. لا أتذكَّر شخصاً من بين أساتذة المعهد بهذا الاسم، يا صديقي»، أجابت بسرعة، ثم أضافت: «ربما أصابك مسُّ القضْمِ، يا حبُّوب، ما لَكَ ومَال القضْم؛ أقْضم قلقكَ وارْتَحْ، أيها الشاعر الأنيس، هذه وسوسة من وسوسات القضم التي اصطدتُّها من فمكَ هذا الصباح».

«شخصياً، يا سارا، أعتبرُ قضم التفاح أكثر مشتهاة عن بقية الفاكهة القابلة للقضم. لكن هذه التفاحة خشبية. ليس الأمر هنا، حسبُ، يا سارا، إنما المقلق في الأمر، التشابه بينها وبين قضمة تفاحة الحاسوب»، قلتُ توضيحاً لفكرةٍ ربما لا رابط لها بين الإثنتين.

«ما ربُّ الخيْطِ الذي تريد أن تربط به القضمتان، يا هرميتس؟»، سألتني باستغراب.

«لا خيْط يا سارا، بل أعتقد أنها علامة لها دَلالَة بالمعنى الإلْهام للدلالة، وقد تكون دلالة صريحة، أو ربما رَبْط ما مِن قِبَلِ الشخص صانع هذا الصليب الغريب؛ أو، ربما أيضاً، نَسَبَ فكرة ما لهذه العلامة للنبيِّ المصلوب، وإلاَّ لماذا لم يضعها في مكانٍ آخر؟، ثم هذا الاسم المحفور عليها لا أظنه اعتباطاً، هنالك رابط بين فكرة وأخرى؛ بين الاسم والقضمة، حسْبَ ما يُخيَّل إليَّ، يا سارا».

«للأمر تأويلات كثيرة، يا صاحبي، دعني أفكر في الأمر، سأنبش في خبايا ذاكرتي عسى أن أتذكره»، قالت سارا كأنها ترغب تغيير الحديث عن الشخص المعني.

«هنالك أمْرٌ آخر، يا سارا، قد تستغربين منه، أتمنى حُسن ظنِّك فيه»، قلت متردِّداً في البَوح به.

«هات، ما الأمر الآخر، عسى أن لا يكون لُغْزاً أعْقد له علاقة بصليبي - صليب الحيْرة»، سألتني بكلماتٍ فيها دفئ، ومسْحةَ غَنجٍ مُعذَّبٍ؛ غنجٍ تخمشُه، خفيفاً، بأظفار الرغبة التي هيَّجها شالُها الحرير، فاستدرجتْنا الحميمية إلى امتحانها المملَّح بالشهوة التي لم يختمر عجينها بيننا على ظهر الصخرة الحمراء.

«ثمت صوت غريب يخرجُ من قعر السلَّة، أشْبه بصوت قوقعة البحر، صوتٌ بَقْبَقَة، يزداد كلما قرَّبتُ السلَّة من أذني، يا سارا».

صمتٌ أخرس. صمتٌ لُجِمَ، وتاهَ للحظات، في الأثير البعيد. تجمَّد صوتُ سارا، بعد أن كان، قبل قليل، يتمطَّى مغْناجاً، لعوباً، يتعرَّقُ لهفةً إلى بُخار ضفتي؛ بعد أن كان منساباً، شهياً، عبر مسالكِ حديثنا، تحاولُ بلسانها المنكَّه، مثل شالها، برائحة إكليل الجبل، لوْيَ صوتي، والابتعاد عن لُغز تفاحة المصلوب.

لم أشأ الاستمرار في مُجاراة غنجِها، وإلاَّ كنتُ سأطيرُ إليها على محفَّاتِ النبيذ السابح بخفَّة في رأسي. ارتأيْتُ التأنِّي. هي لي.

أعدتُ مناداتها باسمها: «هلو سارا، ما خطبك، أتَسْمعينني؟».

صوتٌ تنهُّدٍ خنقتْه عَبْرةٌ سمعته يُوَلْوِلَ حرْقةً: «أنا معكَ. آسفة يا صديقي، شردتُ قليلاً. لا أُخْفي عنك سراً. رغبتُ، صِدْقاً، التأكُّد من هذا الصوت الذي كان يُرْعبني بِجَدٍّ. كنتُ أسمعُ وشيشاً، فقط، ينساب ساعةَ يطبقُ الصمت بأجنحته على شقتي، لرُبَّما أُصابتْني الهلوَسة. الوشيشُ هذا زادَ وحْدَتي رعْباً أكثر، حتى كنتُ أخالُ أن الصليب سينفجر في وجهي. هذا هو سبب طلبي إليك الاحتفاظ بالصليب. مضى على احتفاظي به سنوات طوال. لم أسمع وشيشاً، يصدر عنه، إلاَّ هنا في غوتنبرغ. أردتُ التأكد من هواجسي بخصوص هذا الوشيش الذي أرَّقني كثيراً. تأكد لي، الآن، أنها ليست هلوسة، بل حقيقة، طالما أكَّدْتَ أنتَ؛ وطالما نزعتَ التفاحة عن السلة انقلبَ الوشيش إلى بقبقة، يا صاحبي».

«ما الذي جعلك تحتفظين به، لِمَ يصحبكِ، يا سارا؟».

«قد أكون شريكته في لا عدالة الألم، في العَطاء بلا مُقابل»، أجابت سارا.

«هذا امتحانُ البقبقة. الوَشْوشة رِيْبَةٌ، والبقبقة يقين، يا سارا».

«بل انقلاب الوشوشة إلى بقبقة عقاب، يا هرميتس».

«عقابٌ لِمَنْ، يا سارا؟».

«لا أعرف»، ردت سارا من دون إبْطاء.

«للعقابُ مُتعةٌ، أحياناً، يا سارا».

«أحياناً، وأحياناً أُخَر ألَم يقظة، يا هرميتس».

ارتعشت عضلةُ الرغبة في قضمِ ألَم سارا اليقظ، الرقيق. أخذتْ حُمَّتها تتصاعد بوتيرة عالية في مسارب دمي:

«ألمي محبوبٌ، يا سارا.

ألمي موقد يرتجف بين أجمة حطب.

ألمي، الآنَ، مرْتعدٌ ينسلُّ من روحي بخفَّة، كخفَّة شالكِ الحرير، يا سارا،

ألمي نزقٌ يشتهي المُهيَّأَ الذي تركناه على الصخرة، يا سارا».

صمتٌ سها بيننا لثوانٍ. انتظرتُ تعليقاً على جسارة اعترافي بآلام تلك الساعة.

ضحكةٌ خفيفة، دافئة، غير مشكوكٍ بودِّها، سرَّحتْها سارا بعد صمتي المفاجئ:

«أهذه قصيدة، يا صديقي؟»، سألتني سارا.

«لا أعرف. ربما»، أجبتُها.

«انتصف الليل، يا صاحبي. تدثَّر بألمِكَ، هذه الليلة. ربما تحلم بعتابي إليكَ عند الصخرة. ثمَّتَ ألم في كل بداية. ألَمي بحاجة إلى شفيع. ألَمُكَ غير مُلْغَز، لكنه شبيه بالصلاة، يا شاعري. أستودعك».

أصواتٌ هشَّة. أصواتٌ شقيَّة، كنثيثِ مطرة فجر، سوَّرت الصمت الذي أفزعني تلك اللحظة.

دمعتان نزلتا، بغْتةً من عينيَّ، بلا إشارة من سبب. مسحتُ الدمعتين وارتخيتُ على الكرسي أتأمل لوحة «البرتقالات الأربع»، الوحيدة، على حائط المطبخ، المهداة لي من صديقي الفنان المعماري خالد بابان.

لم يُشفِقْ النعاسُ عليَّ؛ لم تُشْفِق كؤوس النبيذ التي احتسيتُها، ولا حتى الصمتُ الغريب الذي سوَّرني بعد انتهاء المكالمة مع سارا. صاحٍ بكل طاقتي. أفكارٌ، وحكايات تتناطح وتتقلب مرتطمة في الكأس النبيذ الفارغ أمامي.

لم يهدأْ لي بال. عدتُ أفكِّر بالاسم الذي على تفاحة الصليب. قلَّبتُ تربة الاحتمالات بمحراث الغَيْب، وحَصْداً بمنجلِ الحيرة، وتقليب اللُّغز المُحيِّر ذات اليمين، وذات الشمال، حتى رنَّ الهاتف:

- اسمعْ، يا هرميتس. خطرت لي فكرة. ما رأيك أن تستعين بعمك «غوغل»، ربما يُساعدك في التعرف على هذا الشخص الذي ذكرته لي، آسفة نسيتُ اسمه. رمت سارا مقترحها بسرعة البرق.

«فكرة صائبة، يا سارا»، أجبتُها شاكراً، أضفت: «غداً ألتقيكِ كي أريكِ القضمة على تفاحة يسوع».

أسرعتُ ماسكاً فأرة الحاسوب بيدي اليمنى مُحرِّكاً عجلتها الصغيرة، مصوِّباً المثلث الصغير على سطح الشاشة نقراً على أيقونة

النت. قفزت أمامي منتصف الشاشة البيضاء كلمات تنبيه مشفوعة بأسف لانقطاع الاتصال مع خطوط النت. أغلقتُ جهاز الحاسوب، مستديراً إلى غرفة النوم.

القيتُ بجسدي على السرير واضعاً كلتا يدي تحت رأسي أتملى سقف الغرفة الأبيض. استعرضتُ ما حكته سارا من أقدار سيرة حياتها ـ السيرة العلامة ـ كما أسْمَتْها، ونحن نغذُّ الخُطى في الطريق من الصخرة الحمراء إلى شقتها في العِمارة الخضراء، بمختصرٍ سريع قبل لجوئها إلى السويد.

لكنَّ السؤال الصدَع الذي نخز رأسي سبقَ سردها بعضاً من أقدارَ سيرتها البعيدة حين كانت في السادسة عشرة من عمرها:

«هل أُسمِّيه ذلك الصقر، الأقرب إليكِ، الذي وقف على رأسي، قبل قليل، يا سارا؟».

«مَن تعني، يا صاحبي؟»، سألتْني بانْفِعال، وهي تُخرِجُ كفَّيها من جيبي بنطالها الجينز.

«أحد الثلاثة الشهداء الشهود»، أجبتُها بهدوء مخافة مضايقتها.

رفعت سارا يدها اليمنى إشارةَ أن لا داعيَ لذلك:

«لن يُغيِّر من الأمر شيئاً، يا صديقي الودود، هُم في عالم ونحن في عالم»، قالت كأنها ترتجي الابتعاد عن هذه السِّيْرة.

«بِيْ فضول، فقط، يا سارا. أريد أن أمتحن يقيني الملتبس. إحساسي يُدغدغني. سأسميه، وليس من ضرورة أن تؤكدي أو تَنْفَي، يا صديقتي»، قلتُ أرتجيها.

وقفت سارا خلف مقعد من المقاعد الخشب المصفوفة بفارقِ أمتار،

محسوبة بدقَّة عن بعضها، على طول ساحل البحر الطويل، في يومٍ صيفي طويل. أسْنَدَت كلتا يديها على ظهر المقعد خافضة رأسها إلى الأرض.

صمتٌ دغْدغَ حيْرةَ وجودنا مُتمكِّناً بحصاره على مرمى شبر بيننا. رميتُ الإسْمَ مُتلعثِماً:

- يا سين العراقي.

رفعت سارا رأسها، مُغلَقة العينين، إلى السماء. كفها اليسرى على فمها تكظمُ بها عَبْرةً. فتحت عينيها تتأمَّل نوارِسَ عبرت من فوقنا. أحْسسْتُ كم أنا هشٌّ. لسعتْني رعْدة رجِفَة سرت متكسرة بين أضلاعي.

صفعتُ الحِصار اللعين بيننا، واضعا باطِن كفيَّ على ظهر كفَّيْها. أنزلَتْ رأسها فاستوى سطح جبينها التصاقاً بجبيني. دغْدغتْني، من جديد، رائحة إكليل الجبل:

- أإكليل الجبل عِطْرُكِ المفضَّل، يا سارا؟

أبعدتْ رأسها تنظرُ إليَّ ماسكةً، بقوة، كلتا يديَّ:

«قلبُكَ يرتجف، يا صاحبي»، قالت عاصرةً أصابعي بشدةَّ عَصْرةَ عِتاب:

«هذا ليس عطراً كسائر العطور. لا أستسيغ عطور القوارير. أشتري عشبة ألـ «Rosemary» طازجة بأصيصها. أقطفُ،أسبوعياً، كمية قليلة من أوراقها الإبَريَّة، أدْعَكها ثم أرشَّها في خِزانة ثيابي. رائحتها بين الثياب تجلبُ النشوة والبَرَكة».

«أهو للنساء، فقط، يا سارا؟».

«العطرُ هذا، هو الوحيد، حسب ما أظن، الذي يصلُحُ للجنسين.

تعوَّدَ اليونانيون بنثْره على رؤوسهم لاعتقادهم أنه يقوي الذاكرة. سأُهديك منهُ شتلةً تزرعها، وتعتني بها، وتُجرِّبها. لن تندم»، قالت سارا.

استعدتُ، وأنا مُلقى على سريري البارد، رائحة الروزماري. رائحة تتاطحَ استحضارها مع عصف ذكريات. استعدتُ ما حكتْه سارا من ذكريات، باندفاعٍ مطمئن شابِكة يدها اليمنى بيدي اليسرى، سائِريْنِ نتهادى على رصيفِ الطمأنينة.

تخلخلت بيننا سطور الحذر، ولم يعُد للمُجاملات من هيبة، وخوف:

«كنتُ في السادسة عشرة من عمري حين انتميتُ إلى تنظيمٍ فدائي. عشقتُ الأسلحة الحقيقية. تعلمتُ تفكيك وتركيب بندقية «الكلاشن» بسلاسة كما أنزع وأرتدي ملابسي. أتْقنْتُ طريقة تفكيك الألغام. كنتُ أعزف عزفاً على مقود المدفع المضاد للطائرات؛ كنتُ أفضِّل التدريب على إطلاق العيارات النارية فجراً، عند بزوغ أول خيط لنور الشمس. أحبُّ رائحة البارود، إنها تُذكِّرني برائحة شوي الحنطة على الحطب في ضيعتنا؛ وأحبُ، أيضاً، إطلاقَ الرصاص في ليالٍ غير مُقمِرة. أعشقُ شَميم رائحة الآرض، كالكلاب، ونحن نتدرَّب زحْفاً على مرفقَيِّ اليدين ورَضْفتيِّ الركبتين. سنواتُ نِضال قضيتُها، بحثاً عن أملٍ فادح ابتلعهُ يأسٌ فادح».

«الأملُ بابنتكِ بيروت، يا سارا». قلتُ أُخفِّف من غلواء انكساراتها.

ضحكت سارا. تركتْ يدي تتأرجح في الفراغ عن غير قصد. شَمَلَني فراغٌ أهْوج. لم تعد أصابعي تتنمَّل كلَّما تشابكها بأصابعها، وتُدفئ ما لا يُمسك من الذي تنتظره الرغبة. دمُ الرغبة مُدَغْدِغاً كان.

نظرتُ باستقامةٍ صوب البحر. يدي تؤشر لي إشارات وِداعٍ فوق ضباب أخرس: «سأبحثُ عن يد امرأة أخرى أكثر غنجاً؛ أكثر عافية»، وشوشتْني أصابعي فطارت أربعة منها وهوتَ في لُجَّة البحر، إلاَّ السبَّابة، ظلت معلَّقة، كبندول عتبٍ، في الفراغ الضوئي المبلَّل بدمع عينيَّ المندهشتين من رؤيا بلوْنِ الغرَق.

«أشتهي حريق تبْغك، يا هرميتس. تبغكَ له طَعْم بارود المحنة. تبغكَ يُعطِّرُ أنَاي، طوِّقْني به».

توقَّفْتُ. أشعلتُ، من فوري، لِفافة. نفثتُ دُخان أول نَفسٍ مُعطِّراً به رغبتها في استنشاقِ أفاويح تبغي.

- «بيروت» غادرت إلى بيروت، يا صاحبي

«لم أفهم، أليست بيروت ابنتكِ؟».

«أنا عزْباء، يا صاحبي. «بيروت» ابنتي بالتبنِّي. تبنَّيتُها حين كان عمرها سنة واحدة. انتُشِلتْ من القُمامة أيام مجزرة صبرا وشاتيلا. الآن، عَلِمَتْ بيروت أن لها أخاً يكبرها بعشرة أعوام، فسافرتْ إلى بيروت لِتلْتقيه، وربما لن تعود. لا شيء يبقى على حاله، الكُل يصبح آخرَاً».

«ألَنْ تلحقي بابنتكِ بالتبنِّي، يا سارا؟»، سألْتُها أُطمْئِن ما يُدغْدغ غاية في نفسي.

«لمْ أجئْ إلى هنا كي أعود، أيها المنفي مثلي. هربتُ من عالَمٍ تفشَّت فيه الشكوك. عالم فيه إيمان كثير، وتِيْه كثير. عالَم مُضحك؛ عالم يتوقُ إلى الحرية، ويعْشق الصلاة تحت سماء تُمطر أصفاداً».

«هربتُ من حياة العسكَرة إلى الفلسفة. لكن، قبْلها، حين استشهد رفاقي الثلاثة، أصحاب أيقونة «وحْدُن»، تركتُ السلاح منخرطة في

أعمال ميدانية: في إعلام المقاومة، وفي الهلال الأحمر الفلسطيني، في العمل الثقافي من مسرح وتصوير وسينما. رافقتُ الكثير من الصحفيين الأجانب في تغطياتهم أعمالهم الصحفية، ومنهم اكتسبت تعلم الانجليزية، إضافة للفرنسية التي أتقنها بالأساس.

«كُبِّلْتُّ، لسنوات، بالمبالغات الثوْريَّة، وقسوة المثاليات، المضحِكة، والبائسة أحياناً، لكَثرة ترديد جملة سلاح المقاومة».

«خفتُ على نفسي من عِبادة السلاح. سِلاحٍ قتْلٍ لا غيْر، فهربت منه. كنت على وشك أن أصبح عبدةً له، وبيقظةٍ غريبة، تذكَّرتُ يوم رمى جدِّي عليِّ نصيحته: «المقاومة لها أشكال عديدة، يا ابنتي سارا. ليست المقاومة ناجعة بالسلاح فقط»، قالها، ذات مساء، وهو يسحب نفساً عميقاً من أرجيلته. ضحكتُ، حينها وأنا أقسو على كلامه بتحديقٍ مُسْتخفٍّ، وعاتب، على تدخينه سموم الأرجيلة، معتبرة كلامه هلوسةَ رجل مرعوب من الموت، لكنه يذهب إليه طائعاً بحريق أرجيلته:

«الأرجيلة مُقاومة، يا ابنتي سارا»، رد جديِّ

«ليس ثمة ما يُعادل المقاومة بالسلاح تجاه عدو غاصب، شرس، يا جدِّي»، قلت له. نظر، حينها، إليَّ بأَسىَ؛ نظر إليَّ كطِفلة مُراهقة لم تبلغ سن الرشد. لكن نصيحته تلك، عادت تدقُّ رأسي حين انهزمنا، ودنَّس الإسرائيليون الطُغاة بيروت.

«لم أستسلم. لم أخرج مع الذين خرجوا. عشتُ في عُزلة تامة، لإحساسي بخُذلانٍ لا يُطاق. أيُعْقل!!، ما الخطأ فينا؟. كل هذا الصحْو، كل هذه التضحيات، كل هذا الأمل الذي يمشي معنا كظلٍّ بريء، لنكتشف أننا كُنَّا نِياماً. لم نستفِق إلاَّ بعد أن تحطم المعبد على

رأسنا، وبيروت مدينة مُحطَّمة؛ مدينة أشباحٍ، وجدرانها تقفُ مسنودة بمُلصقات الشُهداء».

«لم يكسر عُزلتي تلك إلاَّ، جارتي المُسنَّة. ففي يوم ما طرقت، تلك الجارة بابي، ترتجيني أن أقْبَل استلام طفلة كادت تسقط من يديها المرتجفتين»:

- خُذيها، يا سارا. وجدوها بين القُمامة. نَفَسٌ نجَتْ من مجزرة صبرا وشاتيلا، قالت جارتي.

«تلقَّفْتُها. اعتنيتُ بها، وأسميتُها «بيروت». قطَّبت، «طفلة القمامة» هذه، جروح عُزلتي، فاعتبرتُ مسؤوليتها مُقاومة.

«اهتديتُ إلى الفلسفة بالصُدفة، فانغمرتُ فيها كوسيلة لفهم وجودي، ومعناه، في عالمنا الفانتازي. هِمْتُ بها، كمدْخلٍ لإدْراك ما لم أَدْرِك، عساي أن أفتح مغاليق اللامُدْرك بسكاكين الفلاسفة، في محاولة لطعنِ سوءات الفهم، بين البشر؛ بين الواحد والآخر؛ بين البعض والجميع».

صحوتُ على جوعٍ يُدغْدِغُ معدَتي. سحبتُ جسدي من فِراشي، بتكاسُلٍ بطيء، إلى الحَمَّام لأخذ دُشٍّ سريع.

احمِرارٌ غريب في عِيْني. شَعرٌ أشْعَث، خارج مِنْ عِراك مع المِخدَّة. تجاعيد حفرها سَهَر ألليلة الماضية، بحبر النبيذ، تحت عينيَّ، ذلك ما فضحته المرآة المستطيلة، المعلَّقة فوق مغْسلة الحمَّام.

نظرتُ، بارتجافٍ، إلى حوض السباحة الأسطواني، الأبيض، أحسبُ أنْ ثمت ديدانٌ هلامية من تلك التي تراءت لي من قَبْل.

كل شيء بدا نظيفاً. البياضُ في الحوض الفارغ يبعث طمأنينة مُستساغة. خلعتُ ملابسي، فاتحاً الصنبورين مُقسِّماً بركة تدفُّق الماء

إلى الحوض بين البارد والساخن. نعمةُ ماءٍ لا تتوقف. كنتُ لا أزال تحت وطأةِ وحيرة الليلة الماضية، بانتظار الصباح هذا عسى أن أصِلَ إلى فكِّ لُغز الإسم المُحيِّر، المنقوش على مسامات التفاحة الخشب.

سلَّمتُ أمر جسدي بكامله وقوفاً إلى دغدغة رشاش الماء السلسل، والصابون الأكثر سلاسةً برغوته المنزلقة من رأسي حتى كعبي القدمين.

طِوالَ سنين اغتسالي لم أخرج عن قانون رغبة جسدي في الاغتسال بصابون الغار. لم أُعرِّض جسدي لأيٍّ من تلك المركَّبات السائلة المعبَّأة بعُلب بلاستيكية من فصيلة «الشامبوات».

أسرعتُ، بعد تنشيف جسدي بما علِق به من لوعة الماء، بارتداء ملابسي، ثم إلى حيث تقبع «ركوة» القهوة الكهربية لأعدَّ لي فنجاناً كبيراً من القهوة السويدية الصافية من حثِلها تقطيراً بماء ساخن، عبر كيس ورقي قمُعي الهيئة، وضعت فيه ملعقتان من قهوة مطحونة.

تركت القهوة تجهز آلياً. فتحت جهاز الحاسوب الصغير القابع على طاولة المطبخ منذ ليلة أمس. بعضُ نقْلاتٍ بتلاعبٍ عبر فأرة الحاسوب؛ نقراتُ على الأيقونة الدليل للإتصال بعالم النِتْ، آملاً أن لا تتكرر حالة الانقطاع كأمْس.

بسلاسة مؤمنة بربِّها، ربِّ التواصل المدهش مع عالم النت عبر الشبكة العنكبوتية، تبسَّم لي غوغل بكامل جلاله، على سطح شاشة الحاسوب.

الغوغل: صندوق العجائب، وخزان للتنقيب في متحف الذاكرة، فيه المُلفَّق، وفيه الحقيقي . المرجع السلس لنبش طبقات النسيان المُلْتبس، فيها الممْحوُّ، واللاممحوُّ.

قفزتُ ساحباً من علبة السجائر لِفافة تبغٍ. أشعلتُها كاسراً قاعدة التدخين قبل الفِطار. سحبتُ نَفَسيْن سريعيْنِ، أمينيْنِ لعطش الدمِ لغواية النيكوتين، تبعتهما بارتشاف القليل من القهوة الساخنة.

جلَّستُ ظهري على الكرسي الخشبي أمام طاولة المطبخ، تاركاً سيجارتي تستريح في المنفضة، وفنجان القهوة يستريح على الطاولة.

«ماذا تُبئُني، يا حَدَسي؟»، سألتُه، فارتَجَفَ.

حَدْسي، أحياناً، فوضويٌّ في اشتغالاته. ينْطحُ، حين لا يعجبُهُ مزاجي عِناداً، استنتاجاتي المعرفية في رأسِها فيودي بها إلى المتاهةِ.

حَدْسي مُراهِقٌ، لا يقرُّ له قَرار، مُنْفلت، كوميدي، فيما مَعْرفتي درامية.

برجفة خفيفة من أصابع يدي اليمنى نقشتُ في الفراغ المستطيل، الطويل، لسيد المهمات الصعبة غوغل، مرسلاً إليه الإسم المجهول لي، المحفور على التفاحة الخشب: آلان تورنغ. نقرتُ بفأرة الحاسوب بخفة غير مطمئن إلى نتائج معلومة.

يا للمفاجئة. يا لِكرَم العم غوغل: «آلان تورنغ. Alan Mathison) (Turing، الأب الروحي لعلوم الحاسوب». أُرفِقَ الإسم مع صورة لشابٍ بملامِح بريئة بعمر السادسة عشر.

نخزني القلقُ قليلاً: من قال أن هذه المعلومة تتطابق مع الشخص الذي أبحث عنه؟

طابقتُ تاريخ ميلاده، وتاريخ وفاته المحفور على التفاحة الخشب مع معلومة غوغل فكانت إيجابية. هو هو، إذاً.

الحيثيات الأخرى مدهشة: «عالِم حاسوب بريطاني، رائد رياضياتي،

وعالِم منطق، وعالِم تحليل الشفرات، وعالِم بيولوجيا نظرية. يُعتبر تورنغ، على نطاق واسع أبا علوم الحاسوب النظرية والذكاء الاصطناعي».

ثمت معلومات مهمة أخرى دُوِّنت عنه: «لعب تورنغ دوراً محورياً في فك الرسائل المشفَّرة المعترضة، الأمر الذي مكَّن الحلفاء من هزيمة النازيين أيام الحرب الكونية الثانية».

لم أسترسل أكثر في قراءة بقية بيبلوغرافيا تورنغ. المهم هو أن المطابقة بين معلومة التفاحة، ومعلومة غوغل أثمرت إيجاباً.

استرخيتُ تماماً. قفزتُ إلى جهاز الهاتف. هاتفتُ سارا أُبشِّرها بالنتيجة المذهلة بفضل نباهتها حيث دلَّتْني إلى الذهاب إلى العم غوغل للبحث عن الاسم الغريب المنقوش على تفاحة الخشب المقضومة:

- ألو. صباح المتعة، يا سارا.

«ما الأمر، يا صاحبي؟ لم أتعود أن تُهاتفني مبكِّراً.

«وجَدُتُها، يا سارا»، قلتُ مُصبِّحاً عليها.

«ماذا وجدتَّ، من صباحات الله، يا أرخميدس زمانك؟»، سألتني سارا بصوتٍ مُتثائب .

«اسم آلان تورنغ، يا سارا. عمك غوغل يحتفظ في سجلاته بمعلومات مدهشة عن هذا الشخص»، أجبتُها إجابة متبوعة بضحكة لها طعم الدهشة.

«هل أفْطَرت، يا هرميتس؟»، سألتني سارا مُنشِّطةً حبال حنجرتها بصوتٍ أكثر هدأةً. لم تُعلِّق على معلومة الغوغل بخصوص عالِم الحاسوب.

«شربتُ قهوتي، فقط، يا سارا».

«هل من كَرَمٍ منك، يُسيلُ لُعاب رغبتي، أن تدعوني للإفطار، يا صاحبي؟»، سألتني سارا بغنجٍ صباحي.

«بكل سرور، يا سارا. أنتظرك»، أجبتُها بفرحٍ غامر.

«مشوار الطريق، فقط، يا هرميتس»، ردت سارا على قبولي رغبتها.

فتحتُ شبَّاك المطبخ أعطِّرهُ بنفحاتِ هواءٍ مُرطَّبٍ بنعمة بحر الشمال الاسكندنافي. غيومٌ أراها تعبرُ بعيداً في سماء البحر القريب من شقتي. غيومٌ تتوسَّلها شمسٌ خجولة أن تنزاح بلا عودة، فاليوم هو لها.

ارتبكتُ. ماذا أُعدّ لسارا من إفطار، وهذه هي زيارتها الأولى إلى شقتي؟

فتحتُ البرَّاد مُقلِّباً نظراتي بين الموجود من نِعِمِ المأكولات الطازجات. نخزتني الحَيْرة. أغلقْتُ بابا البراد ضارباً «صفْنةً»، راغباً لسارا بفطارٍ دسِمٍ.

طافت خاطرة سريعة في رأسي: «اترك الأمر لها. ستأتيك. توسَّلها أن تُحضر هي الفطار لكُما حسب مزاجها ورغبة مَذاقها. أشْعرْها أن مكانك هذا هو مكانها أيضاً»، هكذا نزلت الفكرة السريعة، فأصغيتُ لها بانحناءة احترامٍ وشُكْر.

رنَّةٌ خفيفة على جَرسِ الباب تسلَّلتْ إلى أُذني مرْتعِشة. فتحتهُ. سارا الجهنميَّة أمامي، بابتسامةٍ غنجٍ تُخْفي نصفها تحت نظاراتٍ شمسية.

كانت ترتدي فستاناً طويلاً، فضْفاضاً، أسْود، بِلا كُمَّيْنِ، وبأزرارٍ بيضاء كثيرة. ترمي على كتفيها العاريتين شالاً عريضاً يُغطي

الساعدين نزولاً إلى نهاية جذعها العلوي بقليل. شعرها الجعْد منثورٌ كخواطِرَ من حروف مُبعثرة، شعرٌ مُعسَّلٌ ببريقٍ غريب .

«تفضلي، يا صاحبتي. هذا أحلى صباح من صباحات غوتنبرغ، يا سارا»، قلتُ لها محيِّياً.

أغلقْتُ الباب. أصبحت سارا في شقتي بكامل كيانها. كيان هابِطٌ عن مرساة مركب مستسلمٍ لمديح الجُرفِ.

«شمسُ هذا الصباح، خجولة، يا سارا، ما السرُّ في ارتدائكِ نظارات شمسية؟»، سألْتُها أُسخِّنُ عَتبات دخولِ ساراً، للمرة الأولى إلى شقتي.

تبَّسمتْ سارا ابتسامة خفيفة؛ ابتسامة جعلتني أكتشفُ، للمرة الأولى، أن لها غمَّازة خجولة تختفي تحت خدَّها الأيسر؛ غمَّازة بالكاد تُرى.

«بنظارتي هذه أرسلُ تحيةً امتنان، وقبول لشمسِنا، إنها مِنَّا. أليست هي الوحيدة التي تبزغ من الشرق؟»، قالت سارا رداً على تعجُّبي.

«تفضَّل»، قالت سارا تمُدُّ إليَّ بشيء مخروطي الشكل مُغلَّف بورق هدايا. خمَّنتُ، بلا موارية، أنه ورد.

شكرتها. وضعتُ هديتها على الأرض.

قُبلتان سريعتان، طبعتهما على وجنتيها. رفعتُ شالها العريض أستميحها أن أعلِّقه على المشجب. خلعت سارا نظارتها فارتمى على وجهي بريقُ دمعٍ شفيف يغطي عينينها العسليتين. لم تُحرِّكْ ساكِناً.

حدَّجتُ أزرار فستانها بنظرة إعجاب. وضعتُ راحة يدي اليسرى على كتفها اليمنى، وبسبابة يدي اليمنى ضغطتُ، بخفَّة، على الزر الأول عند التقاء الترقوتين، «واحد»، قلتُ.

أطلقت سارا ضحكة بلا صوت.

رفعتُ منسوب الضغط من سبابتي على الزر الثاني الذي يتوسط التحام نهديها الجبليين.

رفعتُ أكثر منسوب الضغط على الزر الثالث، بخفضٍ من رأسي، فاستقرت سبابتي تحت القوس الأمين للحجاب الحاجز. لم تتحرك سارا، بل تركتني أُكمل عدِّي الأزرار.

نقرتُ بسبابتي على الزر الرابع فوقعت بالضبط على تكوير صُرَّتها. الغارِ المؤْصَد منذ هلَّت روحاً على نجيل الكون.

نقلتُ سبابتي إلى الزر الخامس، الأخير، أمْتحِنُ مستوى الرضا الأمين، فأمسكتني سارا، من مِعْصمي، بخفَّة. انتابتها رعشة طائرة:

- إلاَّ هذا الزر، يا حبُّوب، إنه حارس كُوَّة المبْكى، توقَّف.

استويتُ، بكامل استقامتي، وجهاً لوجه أمام سارا. مسكتُ ببعضِ خصلاتٍ من شعرها. شممْتها ساحباً شهيقاً ولْوَلَ كلهاث شرودٍ في باطن صدْري:

- لشعرِكِ عطرٌ غريبٌ، هذه المرة، يا سارا.

«فركتُهُ بزيت اللافندر. لأول مرة أُجرِّبُ هذا الزيت»، ردت مُتبسِّمة على استغرابي.

طوَّقتُ وجنتيها براحتيَّ يديَّ. طوَّقتْني بإغْماضتين من عينيها، خبَّأتْهُما برمشيها الأسْودين، الشاردين. إغْماضةُ إشارةٍ أن أمضي إليها.

طبعتُ، على سطح شفتيها، قُبلةً خفيفة، بخفَّةِ أوراق زهر الجنْبُذ. اندفعنا، بعجْنٍ طريٍّ، ملْتحميْنِ بشِفاهٍ مُضرَّجة، فوراناً، بدمِ الاستسلامِ المباح.

أنزلتُ يديَّ عن وجه سارا. التصقتْ مُطّبِقةً، بيديها، نصْفي الأعلى فأحسسْتُه يرتفع، يطير، فأوقفته سارا شداً أقوى، شداً عنيفاً، لا فكاك منه.

تمرَّغنا تقبيلاً منتقميْنِ من مجازات قُبَلٍ تاهت قبْلاً؛ قُبَلٍ حانَ ربُّ حصادها.

انْعجنَ بُخار شهيقنا، وزفيرنا عجْناً يغلي، يتوتَّر، يتصاعدُ، ببطْء، فوَّاراً صادماً.

قلقٌ في الدمعِ الأنيسِ،

إسرافٌ قُدسيٌّ، جنوني،

زلَّةٌ تسحبُ أقدامنا، طفرة طفرة إلى غرفة المنام.

ارتمينا على سريرِ الاعتراف. سالَ نبيذُ ريقي ساخناً، وأنا ألْتَقِمُ جُلَّنارَ الحلمتين المخضَّبتين بحنَّةِ الشَّبق.

تجاسرنا أكثرَ. الأَزْرارُ الأربعة استسلمتْ لأصابعي، تحرَّرت عن عُراها، فاضت رغوةُ بحرها نفضاً هائجاً، صوتاً يُولْوِلُ من أعماقِ قرارٍ؛ رغوةٌ غسلَت هذيانَ الورَعَ المهول، المهرول لهيباً لا يُكظمُ بعد الآن.

ماذا تبقَّى؟ سَحَلتْ جسارةُ الأزرارِ، الأنبياءِ الأربعة، أصابع يدي اليُمنى إلى الزر الخامس، النبيِّ الأمين على كُوَّة المبْكى.. لكن يدي ارتطمت بيد سارا كابِحةً إيَّاها خوْفاً من جِماحِ جسارتي، تصُونه من تهوُّري الذي انْفلتَ بلا حِساب.

قفزتْ سارا منتفضة. جلستْ على حافة السرير، مسكَتْ صدْغها بإحْدى يديها:

«توَّقف، يا حبيبي، لا تأتيني»، قالت وهي تُمسِكُ بيدي ضاغطةً بها، من وراء ثوبها، على دكَّةِ حرِّها ـ دكَّة بُرْعمها الكليم.

حشرتْ كامِلَ كفِّي اليمنى بين فخْذيها، حشْراً ضغْطاً متأنِّياً، ترفع منسوبه بتؤدة. أحسَسْتُ نثْرَ رغبتها تتوغَّل، رويداً رويداً، في أناملَ يدي.

رمَتْ برأسها على صدري نازلةً به ليستقرَّ، ضغْطاً، كظْماً بصوتٍ جارفٍ من آهات اللذَّة، عند مُسْتقر الوتَر المنْفلت ، ضغْطاً غير مُتعادلٍ بين يدي المحشورة بين فخذيها وانزلاق وجهها.

فاحَتْ آهاتها متحرِّرة منِّي رمْياً بظهرها على السرير:

«أين خبَّأتَهُ، يا هرميتس؟، سألتني سارا وهي تُحمْلق في سقف الغرفة.

«ما هو، يا سارا، الذي خبَّأته؟»، سألتُها بامتعاضٍ حرمانها لي بلوغ نشيد الذروة .

«الصليب، يا وَلَدي، صليب تورنغ»، ردت سارا.

«ما شأن الصليب بكل هذا الهبوب الجهنمي بيننا، الآن، يا سارا؟»، سألتُها باستغرابٍ من كَلْمِها البرهة الهائجة عند امتحان التحامنا الأول.

«أَسْمَعُ، الآن، الأصوات تلك؛ الأصوات المولولة من قعرِ الكوَّة تحت قدميه، ألا تسمعها أنتَ؟ أكُلُّ جنونك الشبقي هذا خبَّأتهُ لي؟ كُدتَّ تبتلِعَني. ما أرْحمكَ، يا حُبِّي؛ ما كان عليكَ أن تخلع التفاحة من مكانها»، ردَّت سارا على استغْرابي مُبْتلِعاً غيْظي كي لا أُزعجها.

وقفت سارا. أعادت أزرارَ فُستانها كلاًّ إلى عرْوته، تاركة الزر الثاني طليقاً يكشفُ الجزء العلوي من نهديها الجبليَّيْن، الساحرين.

- أنا جائعة، قالت.

«لمْ أُهيِّئ فطاراً، يا سارا. تركْتُ الأمر لكِ، البيت بيتُكِ. أشتهي فِطاراً يُدْهش الرغبة المُخبَّأة تحت قشِّ جمْرتها، حسْب ذوقكِ، يا حياة»، قلتُ لها.

«ذلك يعتمد على ما لديك من أطعمة، يا روحَ الذوق»، ردت سارا.

خطت سارا إلى حيث البرَّاد. فتحتهُ. ألقت نظرة مُتفحِّصة محتوياتها: «مخزون برَّادك من لذيذ الطعام معظمه إيروتيكي، يا هرميتس، مدهش أنت»، قالت سارا وهي تُخرج ما رسمت له في عقلها من تحضيرٍ لوجبة إفطار:

خفقت أربع بيضات، في صحنٍ عميق خلطاً مع حفنة روبيان مُملَّح، محفوظ بالماء. قطَّعت بصَلَة مع قرن فلفل أخضر، حرِّيف. نثرت، على الخليط الشهي رشَّة فلفل أسود، والقليل من المِلح.

«يبدو أنك نسيت ما جلبتهُ لك، يا روحي، هل دوَّخكَ وجودي»؟، قالت سارا

قفزتُ إلى حيث مشجب الملابس. تناولتُ هديتها لي. أزلتُ الورق من حوله. فاحت رائحة نبتة الروز ماري الطرية المزروعة في أصيصٍ صغير. وضعتُ الأصيص على الطاولة. قبَّلتُها شاكراً. أتتْ سارا على الأصيص، قطعت إبرة واحدة من إحدى السيقان، فركتها بين سبابتها والإبهام، وقرَّبتهما إلى أنفي: «شُمَّ نَدى البحر، يا قَلبَ سارا»، قالت تُلْصق إصبعيْها تحت فتحتَي أنفي.

مسكتُ سبَّابتها، مرَّرْتُها، صعوداً، ثم نزولاً في المنزلَق الطري بين ثدييْها، غمَرْتُ أنفي، بشدَّة، بينهما. سحبتُ شهيقاً عميقاً، ورفعتُ رأسي: «إمممممم، آآآآه، بين نهديْكِ تكمُن نفحات الطِّيب، يا روحي»، قلت لها.

ضحكت سارا:

«كفاك، دعني أُكمل الفطار، أيها المجنون»، قالت تستدير إلى حيث الخليط الطري في الصحن. قطَّعت عدَّة إبرَ من الروز ماري ورمتْها في خَفْقة البيض، وحقائق الكمال الشهي الأخرى. قلَت الخليط بالمقلات على نار هادئة، حتى انتفخ، ثم وضعته في صحنٍ كبير:

«تفضَّل»، قالتْ.

«أخْطَأَ الذي أسماكِ سارا، يليقُ بك اسم أَفْروديت، أفروديت هذا الزمان».

«لا ترفع من سقف المجاملات، يا هرميتس. لم أفعل شيئاً خارقاً. أكلة بسيطة هذه، هيا، لننغمسِ ونتذوق من مُطيَّبات يديَّ».

وقعت عينا سارا على لوحة «البرتقالات الأربع». تأمَّلتْ اللوحة بصمتٍ مشوبٍ بابتسامة غامضة:

«من أين لكَ هذه اللوحة، يا صديقي؟»، سألتني وهي تُطيلُ النظر إليها.

«هدية من صديق فنان، يُقيم في غوتنبرغ، هو مهندس معماري في الأصل»، أجبتها.

« يبدو صديقك مُغرماً بأرْداف النساء، يا هرميتس»، قالت.

«هذه اللوحة اسمها «البرتقالات الأربع»، ما دخل الأرداف بها، يا صغيرتي؟».

ضحكت سارا. وقفت مُقتربة من اللوحة: «أعتقد أن ثمَّت نقْصاً غير مرئي في هذه اللوحة الجميلة، لكن هنالك انسجام عنيف بين اللونين البرتقالي والأسود؛ بين الضوء، والعَتَمَة، عَتَمة خارجة من ثُقْب، كأنه ثُقب الأوزون، يا هرميتس؟»، قالت عائدة تجلس قُبالتي.

- كُل عَمَل فنِّي يظلُّ ناقِصاً، النقص يُكْمله المُتلقِّي. هنالك سؤال يبقى معلَّقاً في ناقوس كل لوحة، وكل شخص يدقُّه بضوء نظرته بالاتجاه الذي يسوقُه خيالُه، يا سارا.

لم تُعلِّق سارا على كلامي. عادت تُدوِّرُ بالشوكة بقايا خلطتها الجهنمية من البيض وملحقاته.

«فِطارُكِ مُدهش، يا روح اللافندر»، قلتُ لها ألْوِي مُماحكتها لي عن موضوعة اللوحة.

«أتعرف، يا وَلَدي هرميتس، أن للأرداف، كوجود، عُمق فلسفي؟»، رمت كلامها وأنا مستسلم، أتناولُ، بحماسة، فِطارها اللذيذ.

- سيفرح صديقي صاحب اللوحة، بفذلكتُكِ هذه، إن سمِعها، يا صديقتي.

«أنا لا أتفذْلَك، بل جادَّة في قولي هذا، يا حبيبي»، ردَّت بانفعالٍ مُغنَّجٍ، كعادتها حين أُغيظها أو استفزها استفزازاً طفولياً.

«الأردافُ فصائل، ومقامات، وإيقاعات، عند الرسَّامين، يا سارا. أرداف النساء، ومنهم أنتِ، مُعْجِزة إلهية، وأجمل فصائلها تلك التي لها بوح مُستتِر وراء أكَمَة من القِماش، يا حُبِّي.

- لهدوء الأرداف حِكمة لا تُغْتفر.

- المكان الوحيد الذي يتوه فيه الشيطان هو في الأرداف المكتنزة.

- الردف أكثر منطقة قابلة للتلصُّص بحريَّة، وهنا يكمن جماله.

- الردف فِكرة لا يُحْسن ترجمتها إلاَّ الراقصات».

ضحكت سارا من هذه الإيقاعات التي رميتها تغزُّلاً بالأرداف، دحضاً للقيمة الفلسفية التي أرادت سبغها على موضوعة هي أقرب للاثنولوجيا منها إلى الفلسفة.

ساد صمتٌ تداولناه نظراتٍ تُثيرُ شهوانية لذيذة.

«أين خبَّأته، يا فيلسوف الأرداف، يا قلبي؟»، عادت سارا تُلحُّ عن مكان وجود الصليب.

«في غرفة النوم. في خزانة ملابسي، يا سارا»، قلت مُجيباً على إلحاحها.

صمتت سارا. اقتربت من الفُرن: «أين عُدَّة القهوة، يا صاحبي؟».

أشرتُ لها إلى المكان. تناولتها، انشغلت بتسخين الماء، ووضع مسحوق القهوة في الركوة، وظهرها باتجاه عيوني. رسمتُها بنظراتي من أعلى رأسها حتى كعْبي قدميها. وقفتُ مطوِّقاً إياها من الخلف. طبعتُ قبلةً حميمية على إذنها اليسرى نزولاً تحت شحمتها. استدارت. سقطت عيناي على نهديها. أمسكتُ الزر المنفلت، وألقمتُه العروة: «أغارُ عليه من تلصُصِ الهواء»، قلت لها.

«ألمْ تشتهِ سيجارة لحد الآن؟»، سألتني سارا، مستديرة تستكمل تحضير القهوة.

«دعيها مع ارتشاف قهوتكِ، يا حُبِّي»، قلت لها أمسك بعلبة السجائر متناولاً واحدة من اللفافات.

- أشْعل واحدة، أشتهي نَفَساً دُخاناً، الآن، يا صديقي، ستلحق واحدة أخرى بإخْتها عندما يُطْبخ البُن.

لم أتوانَ عن كبح رغبتها. أشعلتُ لِفافة. اقتربتُ منها. نفختُ على رأسها نفحةً من قلق التبغ المورَّث من نار زفيري. استدارت. قرصتْني من ساعدي الأيسر:

«أنتَ ملعوني الأبدي. أحبُّك، يا مدوِّن الألم»، قالت، واضعة فنجانين على الطاولة.

اقتربتُ منها. مسكتُ كفَّيْها براحتي يديَّ: «قبِّليني، قلتُ لها».

وضعت شفتيها على خدِّي الأيمن. تشمَّمتهُ، ونقَّلت شفتيها إلى خديِّ الأيسر. تشمَّمْتهُ وطبعت قبلةً غزيرة عليه.

- قبلة الخد ليْست بقُبلة، يا حبيبتي، هذه بوْسة، أو إيهام بالقُبلة، هي تسخين للشِفاه، ولها رنين، أمَّا قُبلة الشِّفاه فلها رنين المص الوهَّاج، يا سارا.

خطفتْ شفتيَّ. أغرقتهُما في فمها. بلَّلتْهُما. عضَّتهُما:

«شفتاك مدبوغتان تبْغاً، يا روحي، دوَّخْتَني، كفى. دعنا نرتشف قهوتنا، يا ملاك»، قالت، تُبعِدُ رأسها ماسكة بالركوة تسكب محتواها في الفنجانين.

جلسنا، من جديد، مُتقابلين. مسكتُ بفنجاني، ارتشفتُ القليل من قهوتها المُهيَّلة. أعدتُ الفنجان إلى قعر صحنه. أشعلتُ لفافة أخرى.

سحبتُ نفساً منها، ووضعتها في فتحة المنفضة. كنتُ أغلي إلى الإتيان بها، من جديد إلى السرير:

- لِمَ، يا سارا، لم ترغبي أنْ نُكمِلَ خبطنا، حتى السقوط، عن السرير؟

«كنتُ سأتركك، فوْراً، ولن تراني بعدها. أُحب الخَبْطَ النَّيء. أعرف أن التحامنا، قبل قليل، كان لابد أن ينتهي ببلوغ ذروتنا، لكن هي ذروة إلى ماذا، إلى أين؟. أنا أسميها ذروة اليأس، ذروة النشوة عندي تتحول إلى حادث عابر، غوْرٍ ميتافيزيقي. رغبَتي أن أتشهْوَن التمرُّغ في البرزخ ما بين قنص القُبَل، وروح المداعبات، إلى ما قبْل انعطافة البلوغ. لا أشتهي الكمال إلى البلوغ، أحس بعده بالتَّأْنيب، وإن روحي قد امْتُصَّت، وأصبحتْ هشَّة، وهذا مرعب بالنسبة لي».

صمتتْ سارا. استدارت وطوَّقتْني، وأنا جالس، مُنْقضَّة بشفتيها على رقَبَتي رشْفاً ولولَ لهُ شهيقها جنوناً. عادت إلى جلستَها: «أحبك، يا صديقي، أنتشي بمداعباتك»، قالت كمن يُقدِّمُ اعتذاراً.

«اعذريني، يا سارا. أنا منزعج، لا أُحب التيه في منتصف الطريق، أحسُ أن ثمة سبباً آخر غير الذي ذهبتِ إليه»، قلتُ لها نافثاً دُخان سيجارتي بقهر في سماء المطبخ.

«لمْ يُعطِني الأمان. لم يتنازل لي عن غيرته منك إليَّ»، ردَّتْ سارا بتبريرٍ جديد.

استفزني كلامها. بعثر لساني غضباً:

«من هو يا سارا، أثمت أحد غيري في حياتك؟ كوني صريحة»، قلتُ لها رافعاً من نبرة صوتي.

ضحكت سارا. قلبت فنجانها في صحنها. دفعتهُ ببطءٍ إلى الأمام:

«لا ليس ثمت غيرك، الآن، في حياتي، يا هرميتس، صدِّقْني».

«من هو، إذاً، ذاك الذي لم يمنحك الأمان أن تذهبي معي تعطُّراً ببخار الشهوة، شهوة الندم، كما تسمينها؟».

«ذاك المُثْخَن بالمعُجزات»، قالت سارا بصوتٍ شبه أخرس، ماسكة بفنجاني تقلبه في صحنه.

«لا، لا أشتهي مُعْجزات الفناجين، اليوم، يا عينيَّ. اتركي روح البُن تسيح إلى جهنم»، قلتُ غيظاً من رب المعجزات.

قطعَ رنيُن هاتفي المماحكة العجيبة، الغريبة، بيني وبين سارا.

- ألو، أهلاً أليسْيا.

- اتصلتُ أُذكِّرُك بموعدنا هذا المساء في حانة دِبْلِن. سأُفاجئك بأمورٍ تقلبُ موازين نظرتك إليَّ، أيها الإغرْيقي اللطيف.

- أبداً أليسيا عزيزتي، سألتقيكِ، حتماً، لا تقلقي، إلى اللقاء.

أعدْتُ سماعة الهاتف إلى موضعها. تشممْتُ رائحة عطبٍ من نظرات سارا، ترْمقني مستشيطة غضباً:

- أنا على موعدٍ مع أليسيا، مساءً، هل ترغبين أن تصطحبيني، يا سارا؟، سألتُها، غير مُدْرِكٍ، لحظتها، أني ضربتُ على وترِ الغيرة مُثيراً غبارها السَّمِجَ.

نظرت سارا إليَّ نظرةً مزَّقت بها أنفاسَ شبرين من الفراغ بين وجهي ووجهها.

طوَّقت سارا سطح فنجانها براحة يدها اليمنى، ضغطت عليه ضغطاً هائجاً: «أتستفزّني؛ أتمتحن غيرتي؛ أتنتقم مِنّي، يا هرميتس؟».

فار الدمُ على خدَّيْها. وضعتُ راحة يدي اليسرى على كفِّها المطوِّق فنجانها. أبعدت يدي بعنف. سقط فنجانها أرضاً. استدرتُ فطوَّقتُها. وضعت شفتيَّ على رأسها. كانت ترتجف كسعفة آيلة للسقوط:

«اهدئي، يا روحي. ما ربُّ عصبيتك هذه؟ لِمَ استفزكِ اسمها؟ أتعلمين من هي أليسيا؟»

«لتكُن من تكُن، أنت حُر. لكني، الآن، في صومعة روحك، هنا، في شقتك هذه، أيها الشاعر المتعدِّد عشقاً، وهياماً بالنساء».

أغرقتُها بضحكة مُجلجلة. طوِّقتها شداً أقوى، أُذيبُ عاصفة ارتجافها بكلتا يدي:

«أتمنى أن تتعرفي على أليسيا السكِّيرة، يا روحي. إنها مدهشة، مجنونة، وطيبة».

استكانت سارا، ذوَّبَ تطويقي لها، حضْناً، سارداً تفاصيل علاقتي بأليسيا، من روْعَها. رفعتْ ذراعيْها خلف رأسها، طوَّقت رأسي شداً، تأنيباً غنَجاً، تُحرِّكُ رأسها، يُمْنةً، ويُسْرة، تُدغْدِغُ بشعرها رقبتي:

«لا تستفزَّني، ثانيةً، بهذه الطريقة، يا صديقي»، قالت تُحرِّرُ يديها عن رأسي.

وقفت سارا. خطت ببطءٍ نحو الشباك. ثرثرت كلماتٍ لم تستطع المسافة بيني وبينها أن تُترجمِها لي بوضوح تام.

استدارتْ: «أينَ هي تفاحة تورنغ، يا صديقي، هاتها، لو سمحت»، قالت تفركُ باطن كفَّيْها ببعضهما، فرْكاً خفيفاً، كمن اقتنصَ فكرةً تلوحُ في رأسه.

«تفضَّلي، يا حلوتي»، قلتُ أناولها التفاحة الخشب، المقضومة.

مسكتْها، قلَّبتْها بعينيها الكبيرتين، بتمعُّنٍ. دوَّرتْها في باطنِ كفَّيْها تدويرَ الفقيه العارف ببواطن أسرارٍ تسبحُ في مياه أسرار. تأكَّدت، أن اسم آلان تورنغ منقوشٌ، بالفعل على جدارها:

«هات الصليب، يا روحَ الخَلْع بالنبيذ، يا لِسان النار، أمِنْ ماءٍ تُطفئُ حطبَ استفزازك؟»، قالت وهي تبتسمُ بغَنَجٍ، كعادتها حين تستكين بعد عِراكٍ معي.

قفزتُ، بهدوءٍ، جالباً الصليب. بَرُدَت مُماحكاتها الغيْريَّة كأنني دلقتُ عليها سطْلاً من ماءٍ بُرِّد بثلجِ تطويقي مُذوِّباً هياجَ غيْرتها.

ناولتُها الصليب. مسكته، أمْعنت النظر في الفراغ الذي خلَّفته التفاحة في باطن السلَّة. أعادت التفاحة إلى مكانها. لم يستجب الفراغُ إلى عودة التفاحة، في محاولة من سارا، كما كانت، قبْلاً.

«عجببٌ هذا الأمر، لم أصل، شخصياًّ، إلى السر الرابط بين اسم هذا الشخص، عالِم الحاسوب، والتفاحة الخشب، المقضومة، تحت قدمي الواقف يُراقبنا، بحسدٍ، يا سارا»، قلتُ محاولاً قنص معلومة جديدة، ربما لم تبح بها سارا.

«أين حاسوبك الصغير، يا هرميتس؟ هاته، لو سمحت»، قالت وهي تضع التفاحة والصليب على طاولة المطبخ.

فتحتْ سارا الحاسوب. دخلت إلى مكتبة العم غوغل. سطَّرت بضع كلمات في الفراغ المستطيل، المُعد لنقش أي استفسار عن معلومة غامضة.

لم أشَأْ مشاركتها ما جدَح في رأسها، فجاءةً. وقفتُ بعيداً أنظر إليها ككيانٍ مُدهِشٍ مُسْتبشِر بوجودها في حياتي، وجوداً لا مُعادلَ له هنا، في غوتنبرغ الوديعة، القاسية في الآن ذاته. استأذنْتُها لدقائق لحلاقة ذقني.

صرختْ سارا، بفرحٍ طفولي، بعد دقائق معدودات، كَمَن عثر على كنزٍ ضائع:

«وجدَتُّها، يا حُبِّي»، قالت سارا، مُركَّزةً عينيها على شاشة الحاسوب.

«ماذا وجدْتِ، يا أرخميدس الثاني»، قلتُ عائداً، مقترباً منها ناظراً إلى الشاشة بفضولٍ قلقٍ.

«اقرأ»، قالت. «عمَّك الكريم غوغل يبشرك بمعلومة محبوكة حبْكاً ممْتعاً، وذكياًّ، بشأن ما يخص تورنغ، والتفاحة علامة الحاسوب».

أضافت سارا: «سألتُ عمك غوغل: ما علاقة التفاحة المقضومة، كعلامة تجارية، للحاسوب أبل؟، خُذ اقرأ»، قالت، فاسحة المجال لي للإطلاع على ما أرسله غوغل بهذا الشأن.

بقلقٍ لا غَضاضَة فيه، وارتباكٍ غير محسوب النتيجة، بين مصدِّقٍ ومتشكِّك، أخذتُ أقرأ في مقال طويل بتفاصيل أشْبه بمتاهة.

(لو كانت عضّة تفاحة شعار شركة آبل Apple الشهيرة جريمة، لفتحت شهيّة كل المحققين الجنائيين في العالم خاصّة بعد أن تجاوزت

هذه الشركة في ثرائها 141 دولة ذات سيادة وحدود وعلم وجيش وشرطة وبرلمان وحكومة).

حال ظهور هذه الشركة وقبل أن نعتاد على شعارها أو ماركتها التجاريّة التي تطالعنا على ظهر أي (آي فون) و(آي باد) و(ماك كومبيوتر)، وتعتاد أعيننا على رؤيتها في مشهدٍ يومي مُتكرّر سحبَ من السؤال فتيلته وجعله غير قابل لإثارة الدهشة بحكم الاعتياد خاصّة وإن عالما باتَ على قدرٍ من الحركة والديناميكية للحد الذي صارت أعقد الظواهر وأكثرها غرابة تتحوّل الى حدثٍ يومي طبيعي سرعان ما يكفّ عن إثارة دهشتنا أو فضولنا!

ولو انطلقنا في تحقيقاتنا وسألنا (روب جانوف)، مصمّم التفاحة الأول، لأعلن لنا، كما فعل سنة 2009 في لقاء مع CreativeBits وقال بأنه كان يعمل مدير التصاميم في شركة (ريجس ماكينا) عندما وصله طلب واضح ولا لبس فيه:

«أصمّم تفاحة مقضومة من أحد الجوانب لكي يجري تمييزها باللوغو عن حبّة الكرز، فصمّمتها بالشكل الذي طُلِبت مني به».

هل انتهت الحكاية إذاً؟ وما علاقة ذلك بالتفاحة؟، فحتى منتصف السبعينيات لم يكن هنالك الكثير من الكومبيوترات الشخصيّة، وكلمة كومبيوتر تحيل سامعها إلى جهاز كبير ومُعقّد لا يُستخدم بغير الدوائر والشركات الكبرى وعلى أيدي مُتخصصين.

(السي أن أن) في تقرير لها يعود الى سنة 2011، طلعت علينا قائلة بأن تفاحة Apple قد تكون تذكيراً بتفّاحة «آلان تورنغ»؛ وهو العالم البريطاني الذي اخترع ما يُمكن اعتباره أول كومبيوتر بالتاريخ، وهو الكومبيوتر الذي كان بحجم بناية بكاملها، تمكّن بصحبة فريق

معه من تفكيك شِفرة النازيين السرّية والتي تتغيّر رموزها كل بضع ساعات، ومن خلال كشف سرّها صار من الممكن معرفة خطواتهم وقراراتهم العسكرية والتجسّس عليهم لحظة بلحظة، ولأول مرة، إذ تمكن من فك شفرات الرسائل التي يتبادلونها، في لحظة حاسمة من لحظات الحرب العالمية الثانية، والتي جاءت قبل أيام من إنزال قوات الحلفاء في النورماندي.

لا مفاجأة صدمتني، في ما قرأته، لحد هذه اللحظة. خفتَت همَّتي، كدتُ أتوقف عن إكمال هكذا تقرير صحفي مترجمٍ ترجمة تلقائية، شهيِّ الإثارة، لا غير.

نظرتُ إلى سارا ببرودٍ. سألتني: «ها، عرفت الآن ما السر في هذه التفاحة الخشب، واسم تورنغ عليها؟».

- لا. تبدو لي مقالة من مقالات صحف التابلويد المثيرة، لا غير، يا سارا.

«أكْمِل. لماذا بَصَلتَك محروقة؟ أكمِلْ ما تبقى»، قالت تُشيرُ بسبابتها اليمنى إلى سطح الحاسوب.

أصغيتُ إلى كلامها. ركَّزتُ، ثانية، على ما تبقى من المقال:

(ورُغمَ مكانة تورنغ العلمية، وإنقاذه آلاف الأرواح، إلَّا أنه تبيّن للإنكليز بأنه كان مثلياً جنسيّاً، وتلك كانت جريمة يُعاقب عليها القانون في ذلك العهد، فجرت محاكمته وإدانته، إلا إنه بدلاً من أن يقضي محكوميّته بأحد السجون، خُيّر إن كان يرضى بتلقي حُقن الأستروجين تحت إشراف ومراقبة حكوميّة، فقد كان يُعتقد، في بريطانيا، وبعض البلدان الأوروبية، آنذاك، بأن هذه الحُقن تُشفي مُتناوليها من الميول الجنسية المثليّة.

وافقَ تورنغ، على مضض، وظلّ يتلقّى الحُقن في مكان عمله أحياناً، وفي بيته أحايين أخرى، حتى واتته المنيّة، بعدَ أن أكل تفاحة محقونة بالسيانيد سنة 1954، ويُعتقَد بأنه انتحر نتيجة إحساسه بالمهانة.

كان رأي « السي أن أن» بأن تفاحة آبل كانت نوعاً من التذكير، أو تمجيداً لذلك العبقري).

«يا إلهي»، صرختُ بفجاءة، صرخة نَفَرَت مولوِلة من جوف صدري: «أيُعْقَل أن تورنغ انتحر بقضم تفاحة محقونة بسُمِّ السيانيد؟ أيُعقل، يا سارا، عبقري كهذا يُعاقب بسبب مثليته؟».

لم تتجاوب سارا كثيراً مع استغرابي. وقفت صامتة، تتمعَّن في الصليب، وتُفَّاحته. قرأتُ في ملامحها هماًّ آخر؛ وسوسة أخرى، غير تلك المتعلقة بالعالِم المُنْتحِر.

«ما الفكرة التي كان يرمي إليها صانع صليب «تورنغ؟ ما شأن تفاحة تورنغ بالصليب؟ هل تورنغ آدم هذا الزمان؟»، سألتُ سارا أُسخِّنُ انفعالها البارد مع استغرابي الذي هيَّجهُ صدمة انتحار تورنغ.

«لا عِلْم لي، بصراحة، أنا، كما أنت، أسأل ذات الأسئلة»، ردت سارا، أضافت:

- لِمَ، باعتقادكَ، يا صديقي هرميتس، أن أكثر العباقرة يُصابون بداء المِثلية الجنسية؟

فاجأتني سارا بسؤالها. نظرتُ إليها أُلملمُ السؤال الغريب، غير المتوقَّع. كانت ما تزال تنظر، بل تُكلِّمُ بلسانِ عينيها، النبيِّ المصلوب رافعة الصليب مسكاً من قعر السلَّة، في يد، ضامَّةً التفاحة الخشب

في يدها الأخرى. لم يخطُر لي أن أُجيبها. باغتني سؤال خرجَ قلقاً من لُبِّ سؤالها المُدوَّخ بتأويلات لا نهاية لها، ربما:

- أتعتقدين، يا سارا، أن المثليَّة الجنسية، فعلاً داء يُصابُ به المرء؟

نظرت سارا إليَّ نظرةَ حزنٍ؛ نظرة يشوبها وخزةُ انفعالٍ:

«أحسدهُ على خلاصه»، رمت كلامها متزامناً مع إرجاعها الصليب إلى الطاولة:

«أشعرُ بقشعريرة»، قالت سارا، تخطو إلى حيث المشجب، تسحب، باضْطراب، شالها العريض مسوِّرة به، برخاوة، كتفيها. جلست إلى الطاولة يُطوِّقها الصمت كَمَن يفرُّ من لواعِج نُبِشت في غير أوانها:

- كَم سيجارة تُدخِّن في اليوم، يا صديقي؟

«لستُ مُدمِناً، أُدخِّن حسْبَ المِزاج، يا وردتي»، أجبتُها مُشْعِلا لفافة، أُلبِّي رغبتها في التعطر بضباب التبغ. درتُ حول الطاولة أُمعِنُ، دون فضول مكشوف، النظر إليها، أتشمَّمُ رد فعلها على سؤال مَسَّني بَرْقهُ بلا استئذان:

- أتعْتقدين، يا سارا، أن المُخلِّص يُعد من العباقرة؟

«لا أشكُّ في ذلك، وإلاَّ لما كان لهذه المليارات من البشر أن تؤمن به، وتعتنق دينه الذي صُلِب من أجله»، ردَّت، وهي مطمئنة إلى ما تقوله.

حَمْلقتْ سارا، فجاءةً، إليَّ مُقلِّصة بين أجفان عينيها. مدَّت يدها ساحبة سيجارتي من بين أصابعي. غرزتها، بعنف، في المنفضة تُطفِئُها:

«ما الذي ترمي إليه بسؤالك هذا أيها الفيلسوف المُهَذَّب؟ أراك

ترمي إلى البعيد؛ أراكَ تُجدِّف»، قالت ساحبة نظارتي عن وجهي تمسح عدستيهما بطرف شالها، وتعيدها إليَّ.

«أبداً، يا سارا. لا أُجيد الرمي بعيداً، يداي لا تسعفانني»، قلتُ أُلطِّفُ حوارنا المدبوغ بالاستفزاز البريء. أضفتُ: «ثُمَّ إن التجديفَ، هنا، ليس كُفْراً، إنه وجهة نظر، لا أكثر. أنا أقودُ قاربي، وبيدي مجذافان أحاول بهما المشي على الماء للوصول إلى جرف الحقيقة»، أجبتها إجابة فيها بريقٌ من بلاغة المجاز، مُتلاعِباً بالألفاظ.

استكانت سارا. مدَّت يدها اليمنى إلى وجهي تُمرِّرها، مسحاً رقيقاً. مسكتُ يدها، فتحتها. غمرتُ شفتي في راحتها شماً فاحَ آهاً. مسكتُ أصابعها أفركها بخفَّة إحماءً محاولاً تسخين رائحة الخبط من جديد:

«أتُحبِّين، عادةً، أكل التفاحة قضْماً، أم تُقطعينها شرائح، ثم تأكلينها، يا سار؟»، سألتُها مُدغْدِغاً بعضَ وساوسها.

حرَّرت سارا يدها عن يدي. وقفت مبتسمة، ابتسامة رضىً. اقتربت مني. عضَّت خدِّي الأيسر عضًّا خفيفاً:

«سأقْضمكَ بتمامِكَ، يوماً، يا روحي. ينبغي أن أتركك، الآن. عملي، في مركز «ذوي الاحتياجات الخاصة»، يبدأ مساءً. سهرة مُمْتعة لك، مع أليييييسا، يا حبُّوب»، قالت، تمُطُّ اسم السكيرة مطاً لعوباً. «لنْ أرْحَمَكَ، إنِ أكتشفتُ أنَّك مُلهِمٌ لِغَيْري، يا شاعري، لن أسمح لكَ أن تنزلق في البَياض، سأُقلِّيك بزيتِ سُمْرتي، الأبيض باردٌ، يا رهيب»، أضافت، خارجة ترميني بنظرةٍ مقضومة بأسنان الغيرة.

الفصل العاشر

أَلِيْسيا في حانة دِبْلن

توجَّستُ كثيراً من دعوة أليسيا إلى أرقى حانات غوتنبرغ، حانة دبْلن. أليسيا سكيرة نهاريَّة. دعوتها المسائية لي فيها شيء من الريبة. من عادتي أن لا أخلف موعداً إلاَّ لظروف قاهرة.

ترجلتُ من الباص الذي أوصلني على بُعد عشرة أمتار من موقع الحانة. وصلت قبل الموعد بنصف ساعة، بالدقة التامة، حسب العنوان الذي أرسلته أليسيا لي. حانة بطبقتين تحتل زاوية أنيقة على شارعين: شارع الملك، وشارع الميناء الشرقي.

نظرتُ إلى اليافطة الرخامية السوداء التي تعلو مدخل الحانة: «IRISH EMBASSY» عنوان بحروف صفراء كبيرة. توجَّستُ من العنوان، أأكون أخطأت المكان؟، لكن رسمة دِنانِ نبيذ كبيرة خلف العنوان، هدَّأتْ من قلقي. ثمت يافطة أخرى تعلو الأولى: تؤكد صحة المكان: «The Dubliner pub».

كان مساءً رائقاً من مساءات غوتنبرغ النادرة حيث يطول ضوء النهار. شمسٌ مطمئنة أنها تغلب سحاب الضحر، كما العادة.

رنت، في رأسي، كلمات سارا الغيريَّة، وهي تودعني صباحاً: «لن أرحمك إن اكتشفت أنك مُلهِم غيري». سارا - أفروديت السمراء بثوبها الأسود الفضفاض، التي تركتني، صباحاً، في منعطف استدارة الخبط الأنيق.

تراءت لي سارا، كطيفٍ، كدبُّور يطنُّ حولي؛ كطبَقٍ نازلٍ من فضاء الغيرة، تسحبني، أن أترك المكان.

أنا في برزخٍ مُدوِّخ، الآن. تحسستُ وجهي. ثمة شيء رقيق يشبه القِناع يُدغدغُني. مررت أصابعي فأحسستُ بغشاء جلدي أمْلَس، يُغطي وجنتيَّ. ما الأمر؟ لقد حلقتُ ذقني قبل ساعتين.

ابتعدتُ عن المكان قليلاً، ثم عدتُ مسرعاً مخافة أن تأتي أليسيا ولا تراني.

أأنا أنا الآن، أم أنا ذات أخرى؟ أيُعقل أن لي ذاتين، إحداهُما مُخبَّئة لا تظهر إلاَّ وقت لا لزوم لها؟

أيُعقل أني أحملُ ذاتاً مُستعارة؟ ربما أضعتُ شيئاً! أنَّى لي أن أعرفَ؟

سأُنيبُ ذاتي الأخرى، هذا المساء، صحبة أليسيا التي تُصرُّ أن أُناديها «أَلِيْس»، اختصاراً.

ستجلس وتتحدث مع أَلِيْس.

أعرفها، أفروديت السمراء، ستجلس خلف شباك صحنها الفضائي، خلف شباك من شبابيك الحانة الراقية، ترقُبني.

لم تتحرَّر ذاتي الحقيقية من ربِّ الشَّك، لحد الآن.

كلما اتسعت مساحة الحرية، ضاقت ذاتي المستعارة.

صراعٌ على أشدِّه بين ذاتين. ذاتٌ في الْهُنا، تحاول أن تُثبِّت أقدامها المتزعزعة، والثانية في الْهُناك المُقْتَلَعة منه عنوةً، المصرَّة على التشبُّث فيه.

قلبي، قلب طفلٍ سارح في أرجوحة مُرقَّعة كملاءة خيطَت من قطع أقمشة مُبعثرة الألوان.

أنا فزِعٌ؛ أنا مرتابٌ الآن، لكن مِنْ مَنْ منهُن؟ لا أعلم.

مَنْ منهُنَّ تُلبِسُني، الآن، قناعاً طري الملمس، خجولاً، مُسالماً، مُنْفصِماً؟

قناعُ التكيُّف قناعُ شبح، أو طيف، شبح الذات المستعارة التي لا تشبه إلاَّ نفسها.

تتناطحُ الذاتانِ؛ تتناكحان لاستيلاد ذات ثالثة. هل أُزوِّجهُما؟ من سيشهد على هذا الزواج؟

ارتعبتُ. لا شيء أنظر إليه. ستخطفُ الأولى الثانية، وتغتصبها لتأتي بالثالثة.

وقفتْ بسمْرَتها الساخنة، المستولدة من بياضٍ شرقي نادرٍ؛ بياض لا يشبه إلاَّ بياضه؛ وقفتْ تُناكفني:

«أنا شبحُ مَنْ؟ أمْ أنا طفلتُك الثالثة؟».

«أنتِ شبحي الأعمى، لستِ إلاَّ إيَّاي. أنتِ شيخوختي؛ أنتِ احتشامي».

«أأكونُ فقط سلْواك، كأي عانس تُطرِّزُ لك قفَّازات العُزلة؟ أأنا شكوككَ؟ أهذا ما تود أن تصل إليه؟».

- أنتِ إيهامي.

«لا أُراكَ، الآن، كما أراكَ».

«حسب الظرف. المهمُّ أن أراكِ من غير أن تكوني مرئيَّة. أنا تابِعُكِ».

- أنا لعْنتُكَ الباتَّة، فكلمني يا وَلَدي.

نقرتان خفيفتان على كتفي، جَفَلَتْ شرودي المرعِب ذاك. استدرتُ. احتضنتْني أليسيا بقوة، فشبَكْتها سَحْباً مُفرطاً، مُقْشعِّراً؛ فملكْتُها عاريةً بثيابها.

كانت «ألِيْسيا» في حُلَّة بهيَّة. لا، ليستْ تلك السكيرة. هذه عشْتار غوتنبرغ؛ عشتار بفستانٍ قطني، فضفاض، طويل، مطرَّز بكؤوس من أجراس ورد التوليب. قبعة من القَش الرفيع بلون الكاكاو على رأسها

يلفُّها شريطٌ أسود عريض. حقيبةٌ على الكتِف؛ وشعْرٌ يُهفهِف متماوجاً كأيِّ موجة بحر.

لم أَشُمَّ أيَّ رائحة كحول من فم أليسيا، بل سحراً من عطر الشانيل المهيِّج يُحاكي الدفء الأنثوي.

قوَّست ألِيْسيا يدها اليمنى ووضعتها على عظْمة وركِها. شبكتُ يدها المقوَّسة بيدي اليُسرى. لم نتعادل في الطول. هي أطولُ مني بشبْرين، رغم انتعالها حذاء أسود بلا كعبين.

تسلَّقنا الدرج الخشبي المفروش بسجاد ماروني رقيق، نظيف، مدعوكٍ بأقدامٍ لا عَدَّ لها، إلى الطبقة الثانية من حانة دِبْلن.

وقفت ألِيْسيا بالقرب من إحدى زوايا الحانة. قرأتُ علاماتَ احترامٍ، وهيبة، على عيون النُدُل، وهم يرمقونها بالكثير من الفرح. نظرت أَليسْيا إليَّ، قالت:

- هنا تُرفرفُ رُوْحَا أوسكار وايلد، وجيمس جويس، ومن بعدهم سترفرف أرواحُ أبْطالي.

مسكتني أليسْيا من يدي تدعوني أن نجلس في زاوية بدتْ أنها قد حُجِزَت خصِّيصاً لها؛ زاوية هادئة مُحاطة بمقاعدِ جلد فيروزي، من خشب الزان المشبَّع بزيت الكتان لمقاومة الحريق والتسوس. مقاعد مُشبَّعة برائحة العصر الفِكتوري، أمامنا طاولة من خشب الصندل، ثابتة، لا تتزحزح.

اقتربَ أحد النُّدُل. حيَّانا. وضع قائمة الطلبات من المأكولات والمشروبات أمامنا. أزاحتهما ألِيْس تُعيدها إلى النادل:

- هذه لا تعُوزنا. أنا أعلمُ ما يحتويه هذا الكشكول من مُتَع النِّعمة. نادِ لي على «إيريك»، صاحب الحانة، لو سمحت.

اقترب السيد «إيريك»، الطويل، أشْبه بِنادل من نُدُل القصور المَلَكية، ببدلته السوداء الأنيقة: شَعْرٌ أشْيب، ذقْنٌ حُلِقت باعتناءٍ مدْهش، أشْعلت حُمرةَ وجهه بريقاً. اقتربَ متبسِّماً. صافح أليِسْ، مُقبِّلاً يدها.

«أقدِّم لك السيد هرميتس، من اليونان، يا سيد إيريك»، قالت ألِيْس تُعرِّفني إلى صاحب الحانة.

رحب بي السيد إيريك. جلسَ قُبالة ألِيْسيا:

- ماذا تشتهين، أنتِ وضيفك المحترم، اليوم، سيدتي أليسيا؟

«لا تتعجَّل الأمر، سيد إيريك»، أجابته أليشيا، ساحبة من حقيبتها رزمة أوراق، مُغلَّفة بورق السيلوفان. حررت الرزمة من غلافها. وضعتها أمام إيريك:

«هذا هو الفصل التاسع من روايتي. إنهُ فصلٌ ساخن، مُدوَّخ برائحة جمر الروح»، قالت لإيريك، طابعة كفها على حزمة الأوراق تأكيداً على اتفاقٍ بينهما.

قلَّبت أليشيا الرزمة الورقية، إلى آخر ورقة في الفصل. سحبت قلماً من حقيبتها:

«وقِّع، لو سمحت، باشتلامك هذا الفصل، سيد إيريك، لم يتبقَّ لي إلاَّ فصلاً واحداً وأُكمل هذا العذاب المُنتَهِك أرواحَ حيوات، كرهائن. لن أعدكَ متى يكتمل الفصل الأخير من وقاحة هذا الإعتراف الشجي . لا أعرفُ الإلْهام متى يتشهَّى شُرْب آخر كأس من دِنٍّ روحي»، قالت أليِشيا مُتبسِّمة، ماسحة الطاولة براحة يدها اليمنى إشارة للسيد إيريك لجلب ما تشتهيه.

«لا عليكِ سيدتي أليشيا، لكِ كل الوقت»، قال إيريك مستئذناً. عاد بعد دقائق:

«تفضلي سيدتي، هذا شيك بمبلغ غير نهائي لعملك الروائي الجديد، وحين تُكْمِلينه سيكون باقي المبلغ جاهزاً أيضاً. والآن لكِ ما ترغبين من مشروبات، وأطعِمة، حسب مزاجكِ، أنت، وضيفك اليوناني الكريم».

- أرغبُ، اليوم، طبعاً، أنا وسيد هرميتس، مشروباً من ذاك الذي كان يحتسيه صاحبنا العبقري مع سيگاره المُفضَّل.

«تقصدين الكونياك، شرابَ السيد تشرشل؟».

«نعم، سيد إيريك، كونياك أرارات، لو سمحت».

«ما رأيكِ أن تُجرِّبا كونياك «Armenica»، صنفٌ جديد، مُعتَّق، وصلنا حديثاً»، رد السيد إيريك يسأل أليسيا، وهو يُشعل فتيل ثلاث شمعات منتصبات على الطاولة.

استدارت ألِيْسيا نحْوي تستجلي مزاجي بنظرةٍ من عينيها. منحتُها موافقتي بابتسامة دافئة.

- لا بأس، سيد إيريك.

ثلاثُ زجاجات كونياك أرمينكا، هبَّت حضوراً عذباً على طاولتنا الخشب الثابتة، لا تتزحزح: الأولى مُدوَّرة الشكل بداخلها تمثالٌ لراقصة باليه، والثانية بيضوية بداخلها فتاة مُتجلِّية، راكعة، وِجْدانيَّة، أما الثالثة فبداخلها وردةُ جُنبُذٍ حمراء.

نظرت أليشيا إليَّ أن أضع يدي على واحدة من الزجاجات الثلاث كأفْضلية:

- اخْتر، يا هرميتس، هل تشتهي كونياك في حضرة الباليه، أم مع تلك الخاشعة، أم تُفضل الانتشاء من روح وردة حمراء؟

- أنا أمشي مع مزاجكِ أنتِ سيدتي الروائية، أجبتُها.

مسكتْ أليسيا بيدي اليسرى مُغمضة عينيها: «أغْمِض عينيك يا هرميتس»، قالت. مرَّرتْ يدي لمساً، على التوالي، على القوارير الثلاث المقطَّرة من أثْداء عِنبِ سهول أرارات. دوَّرت يدي ويدها ثلاث مرَّاتٍ عليها. أثبتتها على واحدة:

«افتح عينيك، يا هرميتس»، قالت ألِيْسيا. فتحتُ عيني. كانت يدانا مُثبَّتتان على عُنق قارورة المتجلِّية.

«لنشرب بصحة المتوحِّدة، إذاً، يا صديقي اليوناني، مَن يدْري، ربما نكون ناضجيْن، في الخِتام للذوبان تحت عراءِ الخاشعة»، قالت أليْسيا، وهي تسكُب القطرات الأولى في كأسين من الكريستال ذي الرنين الطافح فاكهةً تمشي حافية إلى خلْوةِ النضوجِ.

لا أعرفُ من أين اكتسبتُ عادة التركيز في عيون النساء، لا لغايةٍ ما. لا بل كثيراً ما أتيهُ حين تدْهمني هذه العادة ساقطةُ عليَّ، بغْتَةً، في حضرة أُنثى تمشي بخفَّة على سكَّة مزاجي.

رأيْتُني، منذ الكأس الأولى مبهوراً بأليْسيا المرأة العجيبة، التي تسللت إلى حياتي صُدفةً.

قرعَت أليْسيا كأسها، قرْعاً خفيفاً، على كأسي، فجفلَ برقُ الكريستالِ:

«بصحة باخوس، أيها الإغْريقي العصْري، الهابط على قلبي بصندلكَ المجنَّح»، قالت أليسيا وهي تقبضُ على عنق كأسها بإصبعين من أصابع يدها الرفيعة.

بادلْتُها القرْعِ بابتسامةٍ خجولة. شرِبتُ كأسي، ساهياً بتمامي؛ ساهياً بعيوني المنزلقة على سكةِ السحر المنفلت من عينَيْ أليسْيا الفيروزية.

«ما بِكَ، يا روحَ الأُولمبِ؟ لِمَ تنظر إليَّ كأنك تنوح؟، ما زلنا في الكأس الأولى، ستفترِسَني، أيها الحَمَل الوديع، أخافُ عليك، فأنا أحملُ بعضاً من روح «مِيْدوسا»، فإن كانت ميدوسا تُحوِّل الناظر إليها إلى حجَر، فأنا باستطاعتي أن أُخمِّرك نبيذاً. سأُخمِّرك في شرايين قلبي، وأحْتسيك على دُفعات، يا هرميتس، احترِسْ».

رمت ألِيسيا كلامها في أول تجلِّيها من نُعْمى الكونياك، أضافت:

«يييييياه، ما أطيب الغوص في هلْوسات هذا المشروب المدْوْزَن على أنْغامِ وَحْي مُنْشَق ندَماً، صياماً من أجل صلوات تحت خيمة في صحراء ».

«لِمَ صلوات في صحراء، يا أليس، يوتبوري لا تُصافِح إلاَّ الغابات؟».

«إنْ تفقد شيئاً تتمناه، يا هرميتس. في الصحراء، فقط، يمكنك أن تُعانق روحك حيث لا يوجد حتى ظل لشجرة».

«لكن عالم الصحراء مُرعب، تَيْه وفُقدان، يا أليس، أفعلاً تتمنين أن تعيشي في صحراء؟».

«نعم»، أجابت أليسيا بلا تردُّد. أضافت «الصحراء فردوس حُرٌّ، فيها تكمنُ حقيقة المواعظ. الرمل حريَّة، ألا تراهُ يتراقص حين عاصفة».

بحْلَقْتُ بتركيزٍ أكثر من سهْوٍ في عيني أليسيا محتفظاً بابتسامة هادئة تكسر بلاغةَ العَجَب:

- صحراء: تَيْهٌ. عطَشٌ. الذين دقُّوا خزان الماء القاطع صحراء البصرة إلى الكويت، ماتوا مختنقين.

- صحراء: شعراء، قطعوها هاربين مشياً، من البصرة إلى الكويت، فجفَّ حبرُ القصيدة.

- صحراء: سجناء نقرة السلمان في العَراء الهاذي من جمرِ الريح الماجنة.

- خيمنا كثيراً في صحراء الرب، يا أليس، لسعَنا برق شباط، فوَلْولَ الكمأ.

«هههههه. هلو. ما بِكَ تُهلوِس، يا هرميتس؟ أيوجد كمأ في الصحراء؟».

«چِمَهْ چِمَهْ، أليسيا».

«هههههه. بصحتك، يا صاحبي»، علَّقت أليسيا على كلمة لم تفقه معناها.

أحْرَجتْني أَليسيا. أنزلتُ عينيَّ من على كوكبِ عينيها اللاسعتين. بدأ فهرنهايت التجاسُر يصعد سُلَّمَ دمي، بعد الكأس الثالثة، شيئاً فشيئاً.

«أنتِ، اليوم، لسْتِ، بذات الثوبِ يومَ التقيْتُكِ فيه لأول مرَّة، والمرات التي تلتْها، يا أَليسْ»، قلتُ أعْجنُ ظنَّها الحقيقي لحظة ارتشافي اغْروْراق عينيها المدوِّختيْن زاحفاً، مُقرِّباً كتفي اليسرى احتكُّ بها، احتكاكاً خفيفاً بكتفِها اليمنى.

نظرتْ أليسيا إليَّ كأنها تُعاتبني عتابَ استخفافٍ بما لم أعرفهُ، بحقٍّ، عن طبيعتها. وضعتْ أنْفها على شفتي. سحبت نفساً عميقاً.

شفطتْها شفْطاً من شهيقٍ نزلَ صدرها يُهلْهِلُ، شهيقٍ رجَّفت به رقَّاص فؤادي، فأَرْخَتْني، مانحةً إيَّاي جسارةً خفيفة.

أغْمضتُ عينيَّ. دوَّرتُ طيْشي المولولُ على مِحْرابِ شفتيها اليانعتين وهي تقتنِصُ قُبلةَ تستدلُّ بها مدى رضاي. ذبتُ استرخاءً أُبادلها العدْلَ المقابلِ لرغبتها.

طوَّقتُ خصرها مُدغْدِغاً تدوير عظمة حوضها الصغيرة بدبابيسِ أظفاري.

قفزت ثلاث كرات زُجاجية من ألعاب الطفولة، على الطاولة. تناطَحَت. طقطقتْ:

«أنتَ تُوهِم الآخرين بخجلكَ. تذكاراتكَ يانعة، جريئَة: سنابك خيول الحنطور تعزفُ في رأسك. سنابك الصِّبا. كم شقياً كنتَ، وأنت تحكُّ عظمة ساعدكَ بِمِخدَّةِ وزْك «أم العباءة». عجيب!!. تركتكَ تحكُّها، دونَ أن تُبعِد خصرها، أو تتهركَ. كادَ كيس الأكل يسقط من يديك. كنتَ شديد الحرص عليه. إن والدك جائع، ينتظرك في المشْفى».

- لا تُسرعي يا خيول، صرختُ.

«وصلنا مستشفى الجمهوري»، صاحَ السائس. نزلتُ. صاحت عليَّ فتاة العباءة: «وَكِيحْ»، واختفى الحنطور.

قَرْصةٌ، من بينِ فَخْذي، أجفلتْني:

«لمْ ينضُج عسلُ العويل، بعدُ، يا وَلَدي»، قالت أليسيا مبتعدةً عني قليلاً، واضعةً يدها على رُزمة الأوراق من فصل روايتها الناقصة:

«أنتَ هنا، في هذه الأوراق التي تسلَلْتَ إليها بِكامل رغْبتي، يا حامل المِظَلَّة الإغْريقي، لهذا دعوتُك اليوم كي نحتفي بهذا الفصل

الذي عنْونتُه بـ: «مِظلَّة هرميتس الإغْريقي»، هو من أحلى فصول روايتي الجديدة، المهداة إلى روح عشيقي «غوستاف»، وملهمة روحه الشاعرة «كورين بُوْيْ»، قالت أليسيا وهي ترفعُ كأسها تقرعه بكأسي احتفاءً، بعدَ كؤوس ضاع عددها عدًّا.

مُفاجأة أبْهرتْني. لجَمَتْ لِساني عن التعبير بفرحي لوجودي الخفي في عمل روائي لسيدة سويدية. لم أشأ، في ذات الوقت، أن أُضخِّم من وقْع المفاجأة. سألتُها:

«لماذا، يا أليس، تنشرين رواياتك في سفارة إيرلاند؟ أهذه دار نشر، أم حانة؟».

«لا يفهم، ولا يتمتع برواياتي إلاَّ السُكارى، يا هرميتس. السُّكارى أفضل قُرَّائي. هُم من الدرجة الأولى، يقرأون ببهجة كأنهم جالسون على مقاعد الدرجة الأولى في الطائرات، لأن ما أكتبه قابل للطيران». صمتتْ أليسيا، ثم أضافت مُتمتمةً بكلماتٍ تقفزُ بخفَّة على سطح الطاولة:

- أفكاري تطير. أنقضُّ عليها وأنا أكتب على أجنحة الغواية. فِعْلُ الإبداع هو الأكثر نُسْكية عن باقي الأعمال، أما قرائي من الدرجة الثانية، فأولئك أخالهم يتحاشون الخمرة، ولا يتفنَّنون في الانسجام مع أشخاص رواياتي، لا بل قد يبدون امتعاضاً حين يعلمون أني مؤلفة روايات سكِّيرة. في نظرهم، هؤلاء تخرج من أفواههم رائحة العفَّة العفنة.

- لكن فعلَ الإبْداع استكشاف والتقاطٌ لمتاهات الوجود، وبالتالي هو كأي عمل يتحول إلى بضاعة، يا أليس، أليس كذلك؟

«ليس على الكاتب، والروائي بالذات، الترويج لمنتجه الروحي. لا أمتلكُ دُكاناً لبيع الفاكهة، لذا اشترطتُ على صاحب الحانة هذه توزيع روايتي، أولاً، على مرتاديها، مجاناً، قبل أي مكان آخر. أنا لا أبتغي ربْحاً، مما أكتبهُ، رغم أن لي شُهرة لا بأس بها».

صمتَتْ أليسيا فاركة يديها فرْكاً خفيفاً. مسكتُ يدها اليمنى، قبَّلتْها، نظرتْ إليَّ نظرة التهامٍ عطِشْ:

«قد أستوعب يا أليس العزيزة، إهْداءَك روايتك إلى عشيقك المنتحر غوستاف، لكن لِمَ أهديتِها، أيضاً، إلى الشاعرة «كُورين بُوي؟»».

صمتت أليسيا. رفعت زجاجة الكونياك بيدها اليمنى. نظرت بغضب إلى الخاشعة، الغارقة في لُجِّ القنينة: «ارفعي رأسُكِ، يا كورين، أيتها السابحة في بحر هذا السُّم الفقيه، الأجمل ما اخترعه الإنسان. ما زال أمامكِ مُتَّسعٌ من الوقت كي ترحلي إلى جنة العَدَم»، تمتمت أليسيا، وهي تُعيد الزجاجة إلى مكانها:

- لنأتِ عليها؛ لنغْتصبها، هذه القحبة، يا هرميتس.

«مَنْ، يا أليس؟».

«الزجاجة»، ردت أليسيا.

«اغتصاب كلمة قاسية، يا أليس».

«هذا غَزَل»، ردت أليسيا.

طقطَق صوتٌ مَشحون في حنجرتي: «آخ مْحيسن: زجاجة. أَمنْ. تعذيب. اغتصاب. خوْزَقَة. اعتراف. أُفِّيش. تسقيط. طلقة. كنيسة. قُربان. كاهن. اعتراف. نصير. حرب عصابات. سعوط. مُذكرات. أين أنتَ، الآن، يا أبا مشگين؟».

«هلووو»، نادتني أليسيا. نظرت إليَّ مُتبسِّمةً:

«ألسْتَ جائعاً؟»، سألتْني أليسْيا، تمتمَتْ، وهي تُمسِّدُ بأصابعها على شفة كأسها الكونياك: «أعتقدُ حانَ الوقت للتمتع بمُطيِّباتٍ من حِيَل المذاق بما يُسكت هيجان المعدة. سأفرضُ ذوقي عليك. تذوق الطعام فن. للتذوق فريضة من فروض اللسان. سأمتحن خبرتك، أيها الشيف الخجول، تضليلاً على مسارات سكة تذوقكَ، ما عليك إلاَّ أن تحزر. سأختارُ ما يدعمُ، ويرفع من كرم الكونياك»، قالت وهي تُشير إلى أحد النُدل بالاقتراب من مائدتنا. دفعت إليه بورقة كتبت فيها شيئاً لم أتبيَّنه.

نفخت أليسيا، نفخاً خفيفاً، على الشمعات النائسات على الطاولة. تراقصتِ الذُبالات من زفير مجروح، طائش، متعطش للإنقضاض، فأطفئأَتْها. تفتَّت نور الذُبالات دُخاناً رمادياًّ، مستسلماً لأنفاس روائية تتراقصُ على أمواج سَرْد تشرَّبَها بمتعة.

سادت المكانَ ظُلمةٌ خفيفة، ساحرة؛ ظُلْمة دغدغت رغبة غير متَّفق عليها تستوجب التحضير لامْتِطاء عربة التزلج، تَترجَّف على ثلج المتعة.

لا أعرف بِمَ تُذكِّرني رائحة دُخان الشمع، لكنها مُنعشة، أستطيبُها، قد يكون من مِزاجِ أفاويح التوابل؛ رائحة مُميَّزة على أية حال.

«الأسوء لم يأتِ بعدُ»، رمت أليسيا جملتَها هذه معجونة بقهقهةً مِغْناج، فارتعبْتُ من الأسوءِ الذي ببالِها؛ لم أشُمَّ رائحة سوء مُنبعثة من قولها ذاك، فما الأسوء الذي تقصده؟

«كأنَّكِ تُعاقبينني، يا أليِسْ، على فعلٍ لم أرتكبهُ؟ هل يستهويكِ الانتقام؟».

«أنا لا أسعى، إطلاقاً، إلى انتقام؛ لكنِّي، أحياناً، أقسو، يا حامل المظلةَّ، بارتجافٍ، على الرؤوس»، علَّقت أليشيا على استغرابي الذي لم يُفاجئها. أضاءت شمعة واحدة، من الشمعات الثلاث المنتصبات على شمعدانٍ فضِّي. تموَّج الضوء ناعساً على نصف وجهها وبعض من شعرها الذهبي نصف المجدول. نظرت إلى مَلْزمة فصل روايتها التاسع. قلَّبت الأوراق بحنوٍّ كمن يودِّع شيئاً عزيزاً. نظرت إليَّ ببلادة، مُضيِّقة بين حاجبيها الرفيعين؛ نظرة يعجنها عتاب:

«اكتشفتُ، هذه الليلة، يا هرميتس، أنكَ عبقري في الهذيان».

- ماتَتْ جدَّتي «ريجينا»، بعد ان أكلتْ نصفَ قرنٍ من فلفلٍ أحمر حرِّيف شَوَّطَ فمها، وحنجرتها، ومعدتها. بقيت يوماً وليلة تهذي هذياناً يتشقَّق فيخرجُ من فمٍ بلا أسنان؛ هذياناً محْروراً يصعد ويهبط على فراشِ الموت.

«أتستهويكِ قِصَص الجدَّات، يا أليس؟».

«ذكَّرتَني بجدَّتي «داگمَرْ»، يا صديق الصدفة المُجَلْجَلة ببياض الثلج».

صمتَتْ أليسيا. أحنت رأسها تنظر إلى فستانها المُعشَّق بالورد.

علَّقتُ بلا تردُّد: «توليب. كؤوسٌ فارغة تنتصب».

- هذا الثوب هدية من جدَّتي. كانت تعشق زراعة هذا الورد، يا هرميتس.

«تقصدين ورد «التصريح بالحُب؟».

«بالضبط، يا صاحبي. هذا هو التوليب».

«وماذا عن الجدَّات الجدات، يا أليس؟».

«تقصد الجدَّات الجدات، أم جدات القصص وأفلام الكرتون، يا هرميتس؟».

«الجدَّات الجدَّات، يا أليس».

«جدَّات القصص والأفلام أصدقُ هلوسة، يا صديقي. أما قصص الجدات الجدات فهي مجرد ذكرى».

«يبدو أننا قد أكثرنا من احتساء الكونياك، يا أليس، ألَيْسَ كذلك؟».

«ثلاثة أشياء على المرء أن لا يعدَّها: العُمر، العشق، وكؤوس الخمرة، يا هرميتس»، أجابت أليس، أضافت:

«كُنتَ مُدهِشاً، مُغْرياً، مُسْتعيراً لسانَ الأقدار المرئيَّة وغير المرئية».

«اعْترفتَ لي، بمتعة، أننا شركاء في مصائر العَثَرات؛ مصائر الخيْبات».

«هذيتَ بصوتٍ نقي، خافت، مكْلوم، لكنه مسموع».

تلقَّفت أليسيا، بعقل الروائي، عفَّةَ المقموع القابع في باطنِ خيالي، على بِساط الهذيان الذي رميتُه إليها طائراً بلا افتعال، أو مُبالغة:

«أكَّدْتَ، بهذيانك الضبابي، الجميل، يا هرميتس ما سرَّبه لي وحْيكَ الباطن، أنك تمطرُ كثيراً، لذا سبقتني وحشرتني، بكل طاقتك، في رواية هذيانك، يا هرميتس. بالمناسبة، ما أخبار رفيقك محيسن، هل كلبُه «بوبي»، على ما يُرام؟».

صُعِقْتُ. أنزلتْني أليِسْ هوَّةً سحيقة. أجلستْني أمام مذبحِ مُهيَّأٍ لاعترافاتٍ لا قُدرة لي عليها، تلك اللحظة.

لفَّني الصمتُ بِخرَسه، مُمْعناً النظر إلى وجه هذه المرأة الساحرة، بحقٍّ.

أكان عليَّ أن أُبادرها مستفسراً: «من أين لكِ هذه التفاصيل المغرقة بأوجاعي، يا أليسيا؟»، لكني لِم أسألها، ولِمَ أسألها وأنا جالسٌ أهذي بما طابَ لها أن تسمعهُ، الآن، من بوْحٍ سالَ عن لساني هِبَةً، دون أن أرتجف، أو أتمنَّع.

بماذا أُسِرُّ لها عن مصير محيسن؟ أأجلبُ لها دفاتر مذكراته، مُذكرات تحملُ عنوانين صاعقيْنِ، غريبَيْن: «تطهيرٌ ناقص» و «أعيشُ وأتنفَّس مثل رصاصة».

مذكرات محيسن مُختنِقة، مستسلمة للكارثة؛ مذكرات ثبَّتَ لها مُفْتَتَحاً مُقتبَس عن الفيلسوف سيوران:

«ما أن غادر الإنسان الواقع إلى الفكرة، والفكرة إلى الأيديولوجيا حتى انزلق نحو كونٍ فرعي، نحو عالم من المشتقَّات، حيث يكتسب الوهمُ فضائل المعطى الأساسي».

كيف ستقتنع أليسيا، التي يهمُّها معرفة مصير صاحب الكلب «بوبي»، أن مذكراته وصلتني صدفة عبر صديقي الكردي ريباز؛ مُذكرات الصدفة التي جالت على حصان الضرورة ووصلَت إليَّ، فهي لي.

لا ضرورة تُجبرُني كي أُبرِّر لأليسيا إن أبا ميشكن، النصير هو غير محيسن الذي تعرفت إليه في «خَمْسَميل»؛ غير ذاك الفنان المُرهَف، المثُقل بجراحٍ لا تندمل؛ المثقف الذي طُعِنَ مرَّتين، مرة حين اكتشفَ، هكذا، بلا إرادة منه، أنه غصنٌ مبتورٌ من شجرة حزبه، ومرة

أخرى، تلقيه طعنة لا تُغْتفر بخنجر السفالة التي لا وازع لها؛ طعنة امتحنَ بها آدميته المعجونة ببعض من الحَيْوَنَة، فاكتشف، وهو مُسلَّحٌ ببندقية، أنَّ عليه أنْ ينشقَّ عن الخوف العاطل عن الكرامة.

ربما كان عليَّ أن أرسم لأليسيا أشياء أخرى عن محيسن، رسوماً بين السريالية والواقعية عن شكل، وطريقة إبداعه في فن نحت هواجسه، بين ضرورة الانتقام، ومأزق المغْفرة.

أَأُحدِّثُها عن أبا ميشكن الذي لا يجرؤ على قتل نَملة، فكيف به أن يقتُل إنساناً؟

أَأَصِف لها تفاصيل المعارك التي خاضها، أبا ميشكن، مع مفارز الأنصار لعشرات المرات، هو الذي لم يجرؤ أن يرمي جندياُ واحداً برصاصة، بل كان يتلذذُ بصوت الرصاص وهو يطيشُ في الهواء صلياً من رشاشته.

كيفَ أُترجِمُ لأليْسيا كلمة «أُفِّيش»، التي بقيت مُعلَّقة في حنجرته طويلاً، تحرقه، وتُذلُّه؟

- ما بِكَ، يا هرميتس؟ كرَّرتَ كثيراً اسم محيسن؟

«أأنا ذكرتُ اسمَ محيسن، يا أليس؟».

«كثيراً، يا هرميتس. لوَّحت بيديك كثيراً. خربشْتَ على الطاولة كثيراً. رسمْتَ دوائِرَ، ومُثلَّثات، وأقواس، وبقيت تدور فيها كأنك سجين يبحث عن مخْرَج».

لم أُعلِّق على كلام أليسيا.

دَمْعتا غضَبٍ بائستين مسحتْهُما أليسْيا عن عينيَّ، لحظة اقتراب النادلِ حاملاً صحنِ مأكولاتٍ على مزاجِها، تفوحُ عَجْناً من تطاحنِ

توابِل غُمِّست، ورُشَّت على قطعِ لحمٍ ذي أشكالٍ لا مُعادلَ في صفِّها في الصحنِ العميق الكبير؛ صحنٌ أشبهُ بقاربٍ يطلبُ التجذيف الشافي؛ تجذيف الشفاعة من مستطعميه وآكليه.

رمت عليَّ أليسْيا، كعادتها الغريزية، سؤالاً لَعُوباً، مفاجِئاً، غريباً، لا لَحْنَ مُنْسجماً له مع إيقاع سهرتنا:

«هل صحيح، يا هرميتس، يا سليلَ الأئِمَّة الإغْريق الإثْني عشر، أن اليونانيين، من الرجال، لا يأكلون خُصى الحمير، قطُّ، بل يُعلِّقونها حول أعناقهم كَحِرْز للرجولة؟».

نظرتُ إلى أليسْيا باستغرابٍ وهي تُقطِع ما في الصحن، القاربِ الأنيق، وتضع بعضاً من نعمةِ تلك اللحوم التكويرات المطيَّبة بالقرنفل الوهَّاج، في صحنها الفارغ:

«من أين لكِ هذه المعلومة، يا أليس؟»، سألتُها، لحظة فار فيها دمي. كدتُ أنْدفِعُ لتصحيح منبع أصولي.

«قرأتُ ذلك في كتابٍ لا أتذكر إسمه الأن، يا هرميتس. هل أغَظْتُكَ بسؤالي عن خُصى الحمير، يا مُهجة روحي؟».

لم يَشْفع لي ردِّي على استفزازها البريء قولتي لها:

«أنا من بَني ميزوبوتاميا، يا عزيزتي أليسْ. رجالُ ميزوبوتاميا لا يأكلون خُصى الحمير، ولا يعلقونها حِرزاً، بل يستخدمون الحمير كواسطة نقلٍ ما بين البراري والجِبال»، أجبتُها عسى أن تتلقف اسم «ميزوبوتاميا»، وتستدل على اسم بلدي، لكن إشارتي تلك أُصيبت بالخيبة فلم تشفع لي، ولم تتلقفها أليسيا كما تخيَّلتُ الأمر، فجذر كلمة ميزوبوتاميا يوناني، وقد أطلقت على بلاد مابين النهرين أيام حملات الاسكندر الأكبر المقدوني.

التهمتُ، بهدوءٍ ما صُفَّ من المُشتهى في ذلك القارب الزجاجي الذي يُسيلُ لُعابَ الجوعِ. لم يكُن لحماً خالصاً ذاك الذي تعوَّدتُ عليه، بل خُلاصات مُلحقاتٍ مُكمِّلة.

دَنَت أليسْيا منِّي. وضعت يدها على رُكْبتي. دلَّكتْها بخفَّة. مسَّتْني قشعريرة طريَّة:

- هل حزرْتَ الطعام الذي اخترتهُ على مزاجي ومذاقي، يا كبْشاً أرشقه بأوتاري حتى يحين؟

«ليس تماماً، وليس غريباً، معظمه، على فمي. أمتلك حاسة تذوُّق لا بأس بها، لكني أرغب أن تُصنِّفيه، فأنتِ فحلٌ يُرمِّمُ المصطلى بنار الشهية، كما يبدو، يا أليسْ».

«لا يكفي الطعام اللذيذ حاسة التذوق، فقط، بألسانتنا، بل يحتاجُ إلى حواس الشم والنظر واللمس، لا بل السَّمع أحياناً، وما اخترته الليلة يحتاج لكل هذه الحواس: خُلاصةُ كبدٍ بقري مشوي، كمأ مقلي. لُبُّ الخرشوف. تلك الثمرة البَضَّة المتعجرفة، مسلوقةً ثم مقليَّة بزيت السُّمسم. ضروع معْزة مُبهَّرة بالفلفل الأسود، ومشويَّة، وأخيراً قطعُ لحمٍ بيضاء، هشَّة سُلِقت ودُهِنت بزيت الزيتون، ونُكِّهت بتابلٍ أخضرَ يفوحُ عِطراً، عليكَ أن تحزر ما ربُها، يا هرميتس».

«كل الأصناف التي ذكرتِها شهيَّة، يا أليس. ميَّزتُها كلها، إلاَّ هذا اللحم الأبيض الهشَّ بتابلٍ غريبٍ، ما هو؟».

«ألَا تراني أرتفع. إنك ترفعني ببطءٍ، بحِزْرِكَ المولوِل، يا هرميتس. رفْعُكَ شهيٌّ، كُلْ بشهيَّة، لكن لا تُسْرِع في الرَّفْع. إني أهتز، قاربنا يموج».

لم أشأ أن أُحذِّر أليسيا من شيطان الثمالة. رنَّت في رأسي تهديدات سارا وهي تودِّعني في الصباح: «لن أرحمك إن اكتشفت أنك مُلْهِم لغيري». ما كان أمامي إلاَّ أن أجذِّفَ مُبتعداً عن هلوسات أليسْيا:

- أتكتبين، يا أليس، صُحْبة الخمرة، أمْ من دونها؟

«يبدو أنكَ، كما الآخرين، الذين ينظرون إلى الناس بعيون الغشاوة، تعتقدون أنِّي سكِّيرة يا صاحبي. لِسُكرْي ضرورات أحياناً، حين أنتهي من الكتابة، وأكون راضية عنها، تتجلَّى معي، أفرح. لا أسمحُ للتجلي أن يقمع هلوساتي وينتزعها مني، فأثْقبهُ كي يُنفِّس ما بداخلي بإزميل الكحول، هذا الدنْيَوي المُبجَّل لا أجعله يحتسيني، أُقلِّبُ أمواجه على مزاجي. لا أكتبُ وقطرة نبيذ في فمي. أقرأ وأنا إدندنُ كلماتي، بعد كتابتها، قفزاً، كأني في حلبة جليد، مع كأس واحدة فقط. الكحول، أثناء الكتابة، وسيلة خادعة».

- وماذا عن شخصيات، وأبطال رواياتك؟ كيف تتصيَّدينهم وتدخلينهم قفص العذاب ترويضاً، يا أليس؟

«لستُ ماهرة في القنص، لا أحب التصيُّد. الصيدُ من أفعال الذين لم يتخلصُّوا من بهيميتهم الكامنة فيهم».

رفعت أليسيا الشوكة والسكين عن صحنها. قرعتهما ببعضهما. «انْظُر»، قالت وهي ترفعهما قليلاً إلى الأعلى تقرع بهما هواءَ الحانة الثقيل: «نحن البشر مُكبَّلون، بلا وعي بسلاح الانتقام. حتى ونحن نأكل نستخدم أدوات حادة. أنا، في بيتي أتناول طعامي بيدي، لا أستخدم الشوكة والسكين».

أنهت أليسيا كلامها رامية شوكتها والسكين قرعاً في صحنها: «أسمعت، يا هرميتس هذا الصوت، هو أيضاً حاسة من حاسات التذوق».

«هاتان الأداتان اللتان قرعتِهما، هما تهذيب للوَحْشنَة في اعتقادي، يا أليس».

نظرت أليسيا إلى شوكتَها. لعقت ما علقَ بها من بقايا طعام. رمتها على الطاولة غلى جانب السكين، غمَّست أصابعها في صحنها، ورفعتها إلى فمها:

«هكذا أشهى. لا حاجة بي لحاسة السمع»، رمت أليس كلامها كأنها تُحدِّث نفسها.

«لكنك، يا أليس الحبيبة، لم تُجيبيني عن شخصيات رواياتك، كيف حشرتِني، أنا مثلاً، في عملك الجديد هذا؟».

«ها أنك عدَّلت الفكرة الأهم. شخصيات، لا أبطال. إنهم، ومنهم، ربما أنت، يركضون ورائي، يقتحمون خيالَ قلقي، يستعيرون جنوني للإعتراف»، أجابت أليس بكلمات مجَّتْها ببعض غطرسةٍ واعتداد.

نظرت أليس إلى زجاجة الكونياك. حدَّقت إلى المتجلية النائمة في بئر بلا قرار: «أليسَ كذلك، يا كورينْ بويْ، أيتها المخادعة؟».

قرعتُ كأسي، عَمْداً، بزجاجة الكونياك، أستفزُّ أليس أن تكشف لي سر الخدعة التي وصمت بها الشاعرة كورين بوي: «بصحة أجمل شاعرات الاسكندناف، بصحة كورين، يا أليس».

«بصحة «خطاياها السبع المميتة، تلك المرعبة، المزدوجة الرغبة، التي عشق خيالها غوستاف، عشيقي، فتمثَّل انتحارها غرقاً».

صمتت أليس. مالت برأسها على كتِفي. ولولت حشرجة قاتمة، تدفع بها من صدرها بُخاراً بلَّلت به نصف وجهي. احتضنتُها بوسعِ يدي. قبَّلتُ جبينها. قبَّلتُ أنْفها. قبَّلتُ خدَّيْها. مسحتُ بعضَ دموعٍ ساحت على وجنتيها:

- أنتِ بحاجة لأن تستريحي، يا أليس. يبدو أنكِ أثقلتِ في الشُّرب.

«شكراً على قُبلاتكَ التي وزَّعتها على مناطقَ باردة من رأسي، يا جدِّي هرميتس»، قالت أليس وهي تُبعِدُ رأسها عن كتفي.

استعدلت أليس في جلستها. طلبت كأساً من ماء الصُّودا. قرعتْهُ. تجشَّأت. ملأت كأسها الكريستال من جديد:

«أتُحب أن تُلألِيء كأسك، من جديد، كي تُسخِّن جَمْرَ رغبتك، يا هرميتس؟».

اعتذرتُ من أليس، متذرِّعاً برغبتي في التدخين. تركتُ مكاني مهرولاً إلى باب الحانة الخارجي، حيث لا يُسمح بالتدخين داخلها.

لفحتني نسمات رطبة قلَّبَت ساعةَ رأسي فتناطحَت كوْمَةَ عقارب لدْغاً مع أول رشفةٍ من دُخان سيجارتي. أغمضتُ عينيَّ سارحاً إلى لا أين.

شيءٌ رقيق سحَبَني بخفَّة ساحرة خدَّرت عيني فلم أرْتَجِ فتحهما؛ خفَّة لا تُريد أن تُفْسِد لي هذه الغِبْطة التي سقطْتُ مطمئناً في لُجَّتِها.

كدتُ أتبخَّر حتى لم أعُد أتعرَّف على نفسي، أتَلوْلَب نازلاً هاوية يشع منها وميض كريستالٍ ذي رنينٍ، تعزفه لي أوركسترا كأنها تلك التي دوْزَنت ورجَّفت آلاتها فَفَوَّحَت زنجبيلَ دمي.

مُنْتَشٍ كنتُ، بالكاد أرى خيالَها من وراء شالها الحرير الذي ربطت به عينيَّ. إنه يلْتاثني. أحْسِن تمييزه أنه شالها، بالكثير من عطر إكليل الجبل.

لا كلامَ بيننا، إلاَّ لُغةَ الأصابع، وزفيرَ أنفاسها تلوبُ عتاباً.

مُسْترخياً، كنتُ للخدَرِ اللطيف بين لعلعة روح التبغ وشَعْشَعَة كونياك أجدادي الأرمن، في مسرى المهب الخفيف لأحتشام الريح.

وكُدْتُ أطير؛ لا بل كنتُ فعلاً أطير، مستعيراً حصان الملك كارل غوستاف التاسع المنتصب على بُعد أمتار من حانة دبلن.

كأني اُخْتطِفتُ في غمرةٍ من سَرَحاني. أنَّى لي أن أعرف، وقد أُخرِستُ بعد أن رمى لي الحصان لجامهُ كي أرتديه؟

البشرُ، من حولي، أشباحٌ كما الأشياء.

سأسقط، صرختُ.

ممتعٌ قفْزي يتلوَّى.

الريحُ، هذه الليلة، في أوجِ هدوئها، لا حوْلَ لها على الإسْقاط،

من ورائي تُوشْوِشُني، وأنا أمضي:

- كيف تُراكَ، الآن؟

- مُبْهَمٌ كما أنا.

لا ذاكرة تغويني، إلاَّ عطر الشَّال،

وَليلٌ ضبابي حزين،

وَأغنية في ذكرى من بلدٍ بعيد؛

وَحنيٌن ساخن.

- كيفَ تراني، الآن؟

«فيما بَعْد فيما بعد».

- لِمَ تؤجِّل ما هو سهل؟

«مُمَلَّكاً دون إرادتي».

- أسْرَفتَ في السُّم الزُّعاف.

«هو سُمٌّ لا يُعاف».

- تحتاج إلى صيانة.

«بالكاد أنظرُ إلى نفسي. غير قابل للإستعمال. المحروم لا يُصان.

- متى تكون سعيداً؟

- هههههه.

- لِمَ تسْخَر؟ قُلْ متى؟

«حين أتقمص دور لصٍّ في النهار. أعشقُ الليل. النهارُ مليء بالأصفاد».

- لعِّبْني. أنا ضجرة؛ لعِّبْني.

«حينما نصل، إنْ وصلنا».

- سيوبِّخُنا الوصول.

«لِمَ ترتعشين؟».

- لأنكَ مأثرتي. لَمْ تخذلني.

«إنْ سقطتُ، لِمن ستمدين يدكِ؟».

- لِوفاء الأخطاء.

«لِمَ أتلفتَ وثائق المحاكمة؟».

- كَيْ لا تُعقِّمنا البراءة.

«لكننا لم نرتكبَ جُرماً؛ لم نرتكب معْصية».

- أكانَ عليكِ أن تُضيِّعي المفتاح.

«خبَّأتُ نسخة منه في شقتك».

- لماذا؟

«كي لا أُضيِّعَكَ».

- ألَم نتأخر؟

«لِنفرض. نبدأ من جديد».

- لا يمكن. الهوة اتسعت، ولن نستطيع غلقها بنفس التفاحة المقضومة.

«لا يهمني. لا أسمعُ، بعد الآن، إلاَّ وشيشكَ فيلْتذُّني».

- بماذا تُذكِّرُكِ «وحْدُن»، هُنا، بعد هذه السنين؟

«بالعار، لأنها عرَّتْني، هنا، تحت هذا الصقيع».

- المنفى معصية.

«المنفى رحمة. لم يَنْجُ الشاعر برودسكي من العِقاب إلاَّ بالنفي».

- لسنا أبرياءَ، والمحاكمة ما زالت قائمة.

«هل خُدِعْتِ؟».

- وجودي خُدعة، لكنها خُدعة ضرورية، تساعدني أن أكون.

«لكنكِ حملتِه، وهربتِ به من الشرق إلى هنا، أكنتِ واثقة أنه سيحميكِ؟».

- لم أفكر أن يحميني أحد، ربما هو مصدر راحة كاذبة. كان هدية من أستاذي في معهد الفلسفة، والهدية لا تُرَد».

«لِمَ اختاركِ، أنتِ بالذاتِ، أن يُهديكِ صليباً غريب الشكل والمعنى؟».

- اعتَبَرَني منشقَّة.

«بأي معنى؟».

- انتقالي من المقاومة إلى الفلسفة: احتفظي به، هو سلاح للتطهير، قال لي الاستاذ يومها.

«هل تعتبرين نفسكِ منشقَّة فعلاً؟».

- أحاول أن أُهذِّبَ قلقي، أُنَقِّيْه. أعياني الصبر. إلى أين تُريد أن تصل بمماحكاتك هذه؟

«أنا وصلتُ، من زمان، وحسمتُ الأمر».

- لِيَ رغبة أن تلحقي بي، ربما نكتمل.

«أبَرُّكَ أمان؟».

«أنا في لُجَّة بحرٍ، أُجذِّف علَّني أصل بر الأمان».

- أنتَ أبْكيْتَني، وأنت تُحاول أن تطأ لاهِجاً، دكَّةَ فجري.

«البُكاءُ مغفرة».

- مغفرةُ ماذا؟

«أعْطيكِ ما ينقُصكِ».

غوتنبرغ

صحراء مؤاب 2018

الفهرس

الفصل الأول: مُهاترات تحت مظلة 5

الفصل الثاني: سمورگوس 41

الفصل الثالث: هذيان القُبَلْ 61

الفصل الرابع: مُماحكات تحت الصفر 89

الفصل الخامس: مواجع السبابة وهذيانها 109

الفصل السادس: وَحْدُن 119

الفصل السابع: عزيف الجبل 145

الفصل الثامن: ترويض المستحيلات 217

الفصل التاسع: قضمة آلان تورنغ 247

الفصل العاشر: أليسيا في حانة دبلن 309

صدر للمؤلف

1 . نواقيس الكلدان (شعر)

2 . سالميتي (شعر)

3 . رُباخ (شعر)

4 . فران الندم (شعر)

5 . جسدان في وضوح أ خضر (شعر)

6 . مهب الرمية الغامضة (شعر)